الكنز الثرى

فى مناقب الجعفرى

جامعه ومحققه
الشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى
شيخ الطريقة الجعفرية الأحمدية المحمدية

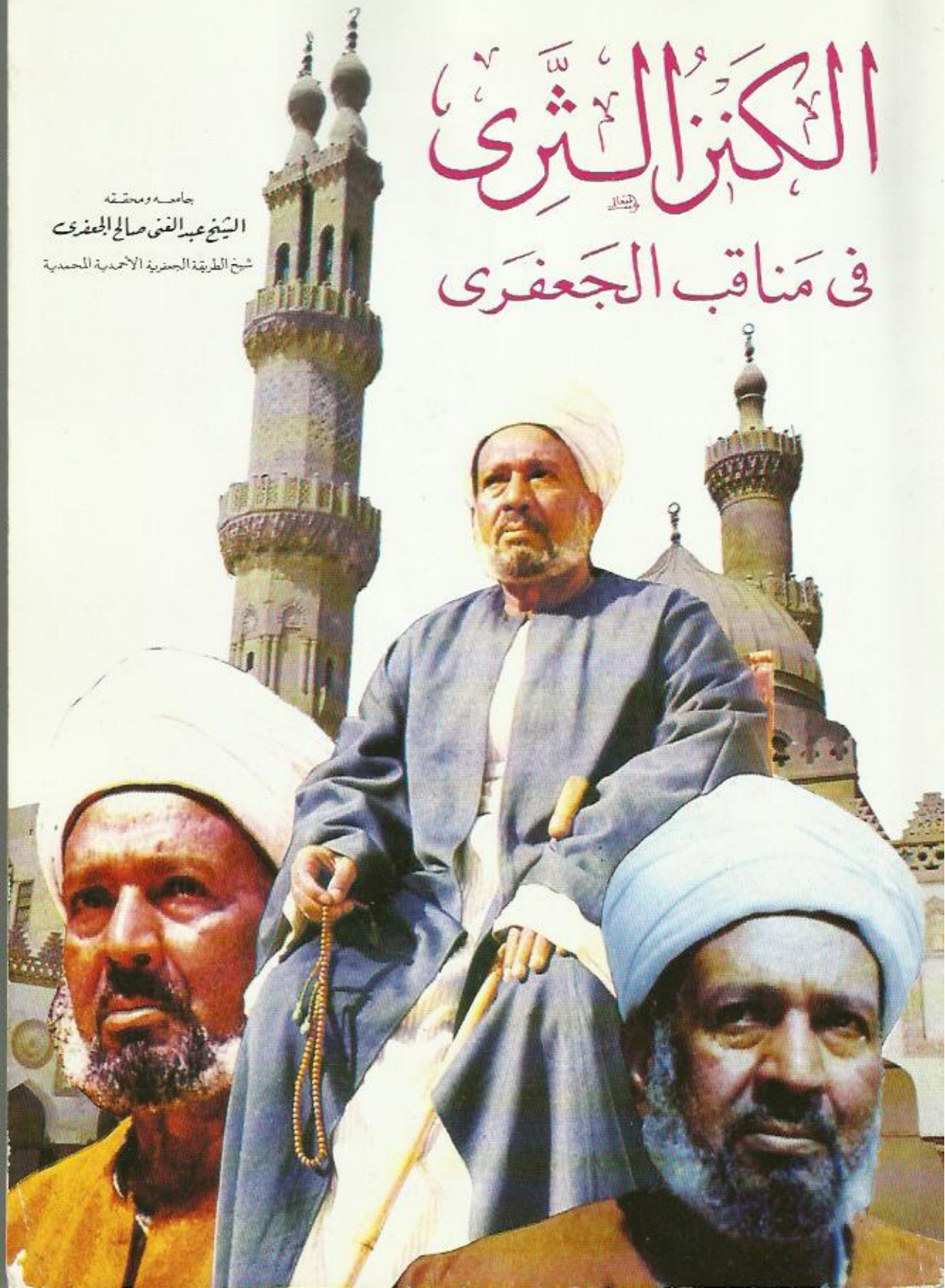

بسم الله الرحمن الرحيم

قرار بمنح شهادة العالمية مع الاجازة في التدريس

إن السيد الشيخ صالح محمد صالح الجعفري المالكي المذهب
من دخلا الشافعية
أقر المجلس الأعلى للأزهر بجلسته المنعقدة في ٦ رجب سنة ١٣٧٣ (١١ مارس سنة ١٩٥٤)
بحكم في امتحان شهادة العالمية مع الاجازة في التدريس الذي أجري
في سنة ١٣٧٢ هجرية سنة ١٩٥٣ ميلادية
لذلك أصدرنا قرارنا هذا بمنحكم هذه الشهادة مع حقوقها التي تخولكم اياها القوانين واللوائح
نفع الله الناس بعلمكم ووفقكم لما فيه الخير .
تحريرا بالقاهرة في اليوم الأول من شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٥ من هجرة خاتم المرسلين
الموافق (١٧ من شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ ميلادية)

شيخ الجامع الأزهر

سجل برقم
٤٧١٧

شيخ الجامع الأزهر

رئيس مجلس الوزراء

هذه صورة الشهادة العالمية لسيدى العارف بالله تعالى الشيخ صالح الجعفرى رضى الله تعالى عنه .

صورة للشيخ واقفاً يتوسط رفاقه السودانيين عند قدومه إلى الأزهر .

صورة نادرة للشيخ ، وهو يتدرب على الجهاد ، بملابسه العربية .

صورة لسيدى العارف بالله تعالى الشيخ صالح الجعفرى فى أحد حلقات درسه .

الكنز الثرى

فى مناقب الجعفرى

جامعه ومحققه

الشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى

شيخ الطريقة الجعفرية الأحمدية المحمدية

الناشر

دار جوامع الكلم

١٧ شارع الشيخ صالح الجعفرى ـ الدراسة ـ القاهرة

تليفون ٩٢٧٣٦٧

﴿ بســـم الله الرحمن الرحيـــم ﴾

الحمد لله الذى جعل من عباده مصابيح للهدى والرشاد يستنار بهم فى دياجى الضلال والغى والبُعـــاد .

وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم القائل « إن من عباد الله لأُناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامـة بمكـانهم من الله عز وجل فهم لايخافون إذا خاف الناس ولا يحزنـون إذا حزن الناس وجوهم كالقمر ليلة البدر لم تجمعهم أرحام ولا أموال ولا مصالح دنيوية بل جمعهم الحب فى اللهوالله ، وصدق الله العظيم إذ يقول « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وإنه لمن دواعى الفخر والاعتزاز أن تقوم مكتبتنا ـ دار جوامع الكلم ـ بعد طول غياب وعظيم إشتياق بإصدار السيرة المباركة لشيخ من شيوخ الصوفية العظام وقطب من أقطاب التصوف الحديث ألا وهو مولانا وحبيبنا العارف بالله تعالى سيدى الشيخ صالح الجعفرى الحسينى نسباً . المالكى مذهباً . الأشعرى عقيدة . الأزهرى علماً .الأحمدى الادريسى طريقاً . المحمدى سلوكا واخلاقاً رضى الله تبارك وتعالى عنه ونفعنا به آميـــن .

وكتاب « الكنز الثرى فى مناقب الجعفرى » الذى نحن بصدده الآن والذى يحوى السيرة العطرة للقطب الصوفى الشهير سيدى الشيخ صالح الجعفرى ليُعيد للأذهان ما كان عليه السلف الصالح من السادة الصوفيه العظام أمثال أبى القاسم الجنيد والإمام القشيرى وأبى حامد الغزالى فقد كانت الشريعـة السمحاء هى أول خطواتهم فنالوا السلامة فى عروجهم وبـذلـك حافـظوا على سلامـة الـظواهر فنالوا نقاء البواطن حتى عاينوا وشاهدوا فتحققوا .

وبذلك عاد سيدى الشيخ صالح الجعفرى بالطريق الصوفى إلى منابعه الأولى المقيدة بالشرع الحكيم بعد أن كادت معالمه أن تندثر وتضيع فقد شاءت إرادة الله تعالى أن يرسل لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة عام .

كما كان من بعض ما أردناه من هذا الكتاب هو أن يعرف التلميذ فصولا من سيرة شيخه لتحصل له تمام المتابعة الموصلة لله سبحانه وتعالى .

وإلى اللقاء مع الجزء الثانى من هذا الكتاب والله نسأل أن يكلل خطواتنا بالنجاح والتوفيق .

الناشر

دار جوامع الكلم

المقـــــــدمة

﴿ بســـــم الله الرحمن الرحيـــم ﴾

الحمد لله الذى اجتبى من عباده علماء أولياء ، أتقياء مخلصين ، أخلصوا لله النية فاصطفاهم وقربهم ، واختصهم بفضله وعطائه ، وآثرهم بحبه ووداده ، وكساهم من أنوار الجلال حُلل الهيبه والوقار ، ووضع لهم القبول بين خلقه ، وأنطقهم بالحكمة ، وأجرى على أيديهم الخير . .

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ . .

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا ﴾ . .

(هم القوم لايشقى بهم جليسهم) إذا نظروا إليك سرتك نظراتهم ، وإذا حدثوك هدتك كلماتهم ، تصفو نفسك إذا جلست إليهم ، وتترقى روحك إذا لزمت مودتهم . . يرونك قبل أن تراهم ، ويتحدثون إليك قبل أن تتحدث إليهم . . نجوم يهتدى بها الحائرون ، بل أقمار يسرى فى ضوئها السائرون . .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه صلاة دائمة بدوام الله العظيم حق قدره ومقداره العظيم . .

ورضى الله عن شيخنا سيدى صالح الجعفرى وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ، ونفعنا الله بعلمه وهديه وهداه . .

اعلم يا أخى المحب المريد : أن من ألزم قواعد الطريق صحبةَ الشيوخ العارفين ، ولا تتم الصحبة إلا بالاقتداء والتأسى ، ولا يكون الاقتداء والتأسى إلا بعد معرفة المقتدى به معرفة تامة شاملة كاملة ؛ لذا كان المريد ملزماً بمعرفة أحوال شيخه ومنهجه معرفة تثمر الالتزام ، وتُفْضِى إلى « سير القدم فوق القدم » ـ كما يقولون ـ وعلى قدر التحقق بمعرفة الشيخ يكون الاتصال به ، والتحقق بوصاله ومعيته ، والتهيؤ لوراثة أحواله ومقاماته . .

وقد جعل لك الشيخ الإمام الجعفرى ميزانا تعرف به حقيقة أمرك وموضع

قَدمِك ، فقال ـ رضى الله عنه ـ « وعلامة صاحب الحب الإلهى أنه كلما ازدادت محبته لله ـ تعالى ـ ظهرت عليه موافقة الكتاب والسنة ؛ والمبادرة إلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج وفعل الخيرات وترك المنكرات ؛ لأن المعصية والحب ضدان لايجتمعان ، ومن ادعى اجتماعهما فقد كذب ؛ إذ رفيق المحبة الطاعة ، ورفيق البغض المعصية : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ وقلت فى تائيتى :

علامةُ حبِّ اللهِ طاعةُ أمرِه * ولِلبغضِ عصيانُ لأهلِ الشقاوة
ومَنْ يدَّعِ حبَّ الإلهِ ويَعْصِه * فذلك كذَابٌ رفيقُ الجهالةِ

كما بين لك ـ أيها المحب معنى الوراثة وشواهدها فى قوله ـ رضى الله عنه : « إذا سلكت طريق شيخ وكنت محبا له انتقل حاله الذى كان فى الدنيا عليه إليك : بمعنى أن روحك تعمل مثل عمله ، فإن كان عالما مالت إلى العلم ، وإن كان فى خلوة مالت إلى الخلوة ، وإن كان فى عزلة مالت إلى العزلة ، وإن كان فى جذب مالت إلى الجذب ، وإن كان فى تلاوة قرآن وتدريس علم مالت الروح إلى ذلك حتى تكون فى الدنيا حياته كحياة شيخه ، وهذا يسمى مقام الوراثه يتأتى بالمحبة وتلاوة الأوراد واقتفاء أثر الشيخ ، وكل شىء كان الشيخ فى حياته لايفعله فإنه اليوم فى برزخه لايحبه ولا يحب فاعله نعوذ بالله من ذلك » .

من أجل هذا ـ وهو عندنا عظيم ـ اهتم علماء الصوفية بتسجيل مناقب الأئمة الأقطاب ، وتدوين مآثرهم حتى يتعرف عليها الأحباب والمريدون فتتضح على أساسها مناهج السير ، وتتحدد على ضوئها مدارج السلوك . .

هذا . . وقد تبوأ شيخنا العارف بالله سيدى الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ ذُرا مناقب الشرف والعلم والولاية فى هذا العصر ، فكان لزاماً على من هداه الله لمعرفته ، ووفقه لصحبته ، وشرفه بالانتساب إليه ، وأفاض عليه من فيوضاته أن يقوم ببعض ذلك الحق الأعظم شكراً لله أولا ، ثم تسجيلاً لمفاخر نعتز بها ، وبياناً لجوانب العظمة فى حياة هذا الإمام ، والتى استحق من أجلها أن يكون قدوة لطوائف الأشراف والعلماء والدعاة والصوفية على السواء . .

ونود أن نشير إلى أننا لم نتابع كثيراً ممن ترجموا لحياة الأولياء والصوفية ، ممن أُولع بالإفاضة فى ذكر خوارق العادات ، وغرائب الأحوال والفعال ـ وإن كنا نسلم بصدق الكثير منها . .

وذلك لأن لنا من منهج شيخنا وأصول طريقتنا ومقتضيات عصرنا ما يجعلنا لانقف كثيراً عند هذه الأمور :

فمن معالم منهج شيخنا الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ أنه كان زاهداً فى أمر الخوارق والكرامات ، مؤثراً إخفاء الأحوال والأسرار ، وقد ارتضى أن تكون كرامته الكبرى هى العلم . .

قالها ابن إدريس فى أصحابه خرق عادات هو العلم الأجلّ

وأرشد أهل الأسرار إلى ادخار أسرارهم إلى يوم لاينجو ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ فقال رحمه الله :

ياصاحب السرِّ حفظْ السرَّ مكرمةً * اظهر بسرِّك يوم الحشر يافانى

وأصول طريقنا التى استقيناها من موارد شيخنا بُنيت على أخذ المريد بالأسباب ، وتعامله بالظاهر ، وعدم تعلقه بما وراء ذلك من غيوب وبواطن مع تسليمنا بأن للطريق أحوالاً ومكاشفات ـ غير أن المريد مأمور بألا يقف عندها ، بل يجعل غايته قوله ـ تعالى ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ وقد وجهنا شيخنا إلى ذلك قائلا « ولا تتهجم على الغيب ، ولا تتكلم به فإنك إن كنت صادقا فقد خالفت طريق القوم فى أنهم يحبون الستر ، وإن كنت كاذبا فتلك صفة شنعاء ، وقد حذر منها أهل الطريق مريدهم » وقوله ـ على لسان شيخه ـ « العارف بالله ـ تعالى ـ تخاطبه الأشجار والجمادات ، وتقول له : أنا خلقت لكذا أو كذا من المنافع فلا يلتفت إليها ويقول لها : لا أريد إلا وجه الله ـ تعالى ـ فإن التفت إليها واشتغل بمنافعها منع وقفل دونه الباب » .

ثم إن مقتضيات الدعوة فى عصرنا تحتم على الداعية الفطن اللبيب ألا يكثر من سرد الخوارق والغرائب فى عصر رقّ فيه الدين ، وطغت فيه قوانين الحس والمادة ، بل جدير بالدعاة أن ينفذوا إلى قلوب الناس عن طريق إقناع عقولهم أولاً . .

وعلى أساس من هذا آثرنا أن يظهر الكتاب كاشفا عن جوانب الأسوة فى حياة شيخنا الجعفرى مخاطبا لكافة المسلمين ، مناسباً لمدارك القراء جميعهم ، بعيداً عما يثير الجدل والإنكار .

لذلك جاءت أبوابه الثلاثة مهداة إلى طوائف ثلاث من خيرة عناصر الأمة الإسلامية فى كل زمان ومكان :

فأما الباب الأول : (الحقائق التاريخية فى حياة الإمام الجعفرى) فهو مهدىٌ ـ بخاصة ـ إلى كل من شرف بالانتساب إلى البيت المطهر الكريم من سلالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليتعرفوا بأنفسهم على أنقى وأطهر صورة من بيوت أهل الشرف وقد زكّوا شريفَ انتسابهم بكريم فعالهم ، وأظهروا طيب أرومتهم بحميد خصالهم . . كما أنه يكشف لهم عن حرص أهل هذا البيت المكرم على إزكاء شرفهم بأنوار العلم الذى هم أحرص الناس عليه وأحق الناس به . .

وأما الباب الثانى : (منهج الإمام الجعفرى العلمى) فهو موجه لأهل العلم قاطبة على تفاوت أعمارهم وأقدارهم ، وتنوع علومهم ومعارفهم كاشفا لهم عن معدن العلم الشريف ، وسبيل الوراثة الكاملة ، وأحوال العلماء العاملين المخلصين ، وقد صحبنا شيخنا فى هذا الباب من مهد الطلب إلى منتهى مايصل إليه العلماء الراسخون . .

وفى الباب الثالث (منهج الإمام الجعفرى الصوفى) سراج وهّاج يضىء مسالك أهل التصوف على اختلاف المشارب والأذواق ، وذلك بالإشارة إلى ماتخلق به من صفات الأقطاب العارفين ، وما سار عليه من سجايا الكَمَلةِ المرشدين . .

حينئذ يتحتم على القارىء أن يستفيد من هذه الصحبة بزاد نافع ـ إن شاء الله ـ حيث تعرف على أبرز خصائص الصوفى الكامل منذ أن كان مريداً جادّاً فى سلوكه ، ملتزما بمنهج شيوخه المتحققين ، مفنيا ذاته فى محبتهم إلى أن فتح الله عليه بما فتح ، ومنحه مامنح ، فتوارى خلف أسمائهم ، واجتهد فى نشر طريقهم ورفع ذكرهم . . حتى جاءه الإذن بتأسيس طريقته الخاصة : (الجعفرية الأحمدية المحمدية) والتى تكفلت معظم فصول هذا الباب ببيان معالمها ، وتوضيح منهجها حتى يتيسر التأسى ، ويسلم السيرُ من الآفات ، وتتدانى الأرواح ، وتتلاقى القلوب ، ويحصل الاتصال والإرث ـ إن شاء الله .

ولهذا : قامت النخبة الممتازة من أبناء الشيخ الإمام بمجهودها المخلص ـ بحثا وجمعاً وتدوينا ـ لأشهر معالم حياة الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ حتى انكشف (الكنز الثرى) وقد وافق اسمه مسماه ، بما فيه من زخائر المعرفة ، وشواهد العلم ، ودلائل الولاية .

ولا يفوتنى هنا أن أسجل شكرى وتقديرى للأخوة الذين تعاونوا معنا ـ فكراً وعملا

ـ فى جمع المادة العلمية ، واختيارها من تراث الشيخ وتنسيقها وتبويبها مما أبرز « الكنز الثرى » فى هذا الثوب القشيب . .

وأخص بالشكر الإخوة العلماء ـ أعضاء هيئة التدريس ـ بجامعة الأزهر وغيرهم فى المركز الجعفرى الإسلامى ببنى عدى ، الذين أشرفوا على هذا العمل تحقيقا وتصحيحا ومتابعة ، والدكتور المهندس عصمت صبره ، صاحب الدور الرائد فى الإعداد ، والاستاذ عبد البديع الحسينى ، والاستاذ عطيه مصطفى المعيد بكلية أصول الدين بأسيوط ، وأمين الدعوة فى الطريقة الجعفرية . . والشكر الجزيل للأستاذ محمد فتحى مدير « دار جوامع الكلم » صاحب البصمات المشكورة على نشر تراث الإمام الجعفرى وجزى الله كل من قدم لنا العون فى هذا العمل خير الجزاء . .

وإنى لأرجو أن يكون الجزء الأول من « الكنز الثرى فى مناقب الإمام الجعفرى » بين يدى أبناء الشيخ منهاجاً قويما يلتزمون بالسير على هديه حتى يتحققوا بالانتساب إلى شيخهم ـ عليه رضوان الله .

وأسأل الله ـ عز وجل ـ أن يديم على الإخوان المحبة والمودة والألفة والتعاون . . ففى ذلك حفظ وإثراء للتراث الجعفرى .

الدراسة القاهرة . .
جمادى الآخرة ١٤١١ هـ

عبد ربه الغنى

« سيدى الشيخ » عبد الغنى صالح الجعفرى

شيخ عموم الطريقة الجعفرية الأحمدية المحمدية

البـــاب الأول

الحقائق التاريخيـــة فى حياة الإمام الجعفـرى

الفصـــل الأول
النســـب والنشـــأة

النســـــب الشريف

لقد نال شيخنا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ شرف القرابة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاسمه : صالح بن محمد بن صالح بن محمد ابن رفاعى الذى تمتد سلسلة نسبه الشريف لتتصل بسيدنا جعفر الصادق بن سيدنا محمد الباقر بن سيدنا على زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين ـ رضى الله تعالى عنه وأرضاه ـ بن الإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه وكرّم الله وجهه ـ فجدة مولانا الإمام الجعفرى هى السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وللجعـافـرة نسب كثيرة محفـوظة قديمة ، ومن الذين ظهر فيهم النسب الشـريف السيد الشريف إسماعيل النقشبندى وتلميذه الشيخ السيد موسى المرغنانى ولاتزال ذرياتهم تحتفظ بتلك النسب كثيرة الفروع المباركة .

وقد كان شيخنا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ فى بداياته لايصرح بهذه النسبة مع أنه كان يشعر منذ صغره بأنه من ذرية الإمام سيدنا جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ إلى أن وجد فى بعض الأوراق أن نسبة والده : جعفرى . ثم توالت البشارات التى تصدق هذه النسبة ، يقول شيخنا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ: « فأول رؤيا رأيت فيها السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ بنت أمير المؤمنين سيدنا على ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ فسلمت عليها وهى فى مقامها من وراء حجاب ومدت لى يدها وهى مستترة وقالت لى : كيف حالك وحال أهلك الجعافرة ؟ . . . . .

. . وهناك مراءٍ كثيرة تدل على ذلك والحمد لله ، وإنى أشكر الله تعالى

حيث جعلنى أنتسب إلى هذا البيت الطاهر ، وعرّف أجدادى بى وعرّفنى بهم ، وقد أقر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن جدى سيدنا جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ وذلك أننى رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه الخلفاء الأربعة الراشدون . فسلمت عليه وعلى الخلفاء ـ رضى الله عنهم ـ ولما سلمت على سيدنا علىّ ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ أمسكت بيده وقلت له : إننى محسوب عليك ، إننى من ذريتك ، إننى من ذرية سيدنا جعفر الصادق ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ! نعم وأشار برأسه من أعلى إلى أسفل مصدقا على قولى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فلما استيقظت كانت هذه الرؤيا أحب إلىّ من الدنيا وما فيها . . »[1]

وقد سجل الإمام الجعفرى هذه الرؤيا فى نظمه المبارك فقال :

فيا أيها الأجداد إنى أحبكم * وحبكم عندى حياتى مدى العمر
وجدكم المختار صدق نسبتى * وإنى شبيه بالكرام بلا نكر
وخذ بضعتى هذا إليك مقالة * تقدمها الزهراء للمصطفى البدر
وكانت إلى نفسى أحب من الدنا * فلله رب العرش حمد على الخير
ولست به أبغى فخارا زخارفا * ولكن جنان الخلد أنهارها تجرى
وأنظر للأجداد فيها وملكهم * وولدانهم فيها تماثل للدرّ
وأحمد ربى مذ علمت بأننى * إليكم ومنكم جعفرى لدى مصر[2]

وفى هذه الأبيات أشار الشيخ إلى رؤيا أخرى رأى فيها جدته السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ .

ويقول الإمام الجعفرى فى أحد كتبه : « قبل ذهابى إلى الحج عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف رأيت سيدنا الحسين ـ رضى الله عنه ـ فى مقامه وسلمت عليه ، ومن محبتى فيه قلت له : من أنا ؟ قال : الجعفرى . قلت له : إننى من ذريتك ، وإن أهلى يشبهونك ـ كأننى أعرفه بأننى من ذريته ـ فرفع صوته قائلا :

---

(١) المنتقى النفيس ص ٢ ، ٣ .
(٢) الديوان حـ ٣ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

سام وحام ويافث أبناء نوح عليه السلام أنا أعرفهم وأعرف ذراريهم ثم شرع يشرح فى ذرية سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ ففهمت من كلامه ـ رضى الله عنه ـ كيف لا أعرف ذريتى وقد أطلعنى الله ـ تعالى ـ على ذرية أبناء نوح ـ عليه السلام ـ ، وقد قالوا : النسب يظهره العلم ويخفيه الجهل وينفع صاحبه إذا أيقن به واحترمه وعمل ما ينجيه من النار ويخلصه من غضب الله تعالى ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » أى : من كان عمله سيئا وأخره عن دخول الجنة لا يدخله نسبه الجنة »[٣] .

الأســـــــرة الشريفة

الجد : الشيخ صالح بن محمد رفاعى . .

ومولانا الإمام الجعفرى أصله مصرى ، فجد والده من بلدة إسنا ، وجد والدته من جعـافـرة قنـا من بلدة اسمها البياضية ، وكان عندما يزور هذه البلدة يحضر عمـدتهـا شيئـاً من بلحها ، ويقول له : هذا من نخل جدتك التى هاجرت إلى السودان ، وأما والده فينتهى نسبه إلى الجعافرة الذين يسكنون بلدة « الحليلة » . وكان يقول : إن جدنا كان يعرف بالرفاعى ، وقد هاجر إلى دنقلا بالسودان واستقر هناك ، وكان من علماء الأزهر العاملين ،فقد كان يقيم حلقة لتحفيظ القرآن الكريم وحلقـة لتدريس العلم النافع فى مسجد دنقلا ، وكان منصرفا بقلبه وعقله وسائر جوارحه إلى العلم والقرآن ، وقد ترك أمور الزراعة وإدارة شئون منزله إلى ابنه ـ محمد صالح ـ فهو الذى كان يتولى فلاحة الأرض وأشرف على تزويج إخوته البنين والبنات قبل أن يتزوج هو .

وقد كان لهذه السيرة العطرة للجد أثرها العميق فى سلوك الحفيد ـ مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ فقد ورث عنه حب العلم والعبادة والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا ـ كما سيأتى فى الحديث عن نشأته الأولى ـ.

وكان الإمام الجعفرى يحب جده حبا عبرت عنه القصائد التى مدحه فيها مشيرا إلى علمه وفضله وولايته ، يقول فى إحدى قصـائده :ـ

---

(٣) فتح وفيض ص ٩٤ ، ٩٥ .

وجـدى الـجـعـفـرى له دويٌّ * يردد للصـلاة على محـمـد
ويحـفظ للكتـاب كتـاب ربى * وعـلمـه وكـم للخـلق أرشـد
ويحـفظ للدلائـل حفظ صـدر * ويقـرؤهـا ويسـمـعـه محـمـد [1]

ومن محبته له سعى إلى ملاقاة بعض معاصريه ، فعرف منهم بعض مناقبه ، ومن أجلّها علمه وتعليمه للقرآن الكريم ، وقد حفظ عنه كثير من مشايخ دنقلا القرآن الكريم ، وتلقوا على يديه أسرار القراءة ، ومسائل أحكام التجويد ، يقول مولانا الإمام الجعفرى مشيراً إلى ذلك :ـ

وقـد كان جدى الجعفرى مرتلا * حفـيظا مجيدا للكتـاب فكـم قرا
وعـلمـه إنى رأيت جمـاعـة * تلقـوه عنـه حافـظين بلامـرا
شريف له من آل جعفـر نسبة * وللعلم والقـرآن قد كان مخبـرا
عليه رضـاء الله ينـزل دائمـا * تعـم لآل طيبـين وجـعـفـرا [2]

ومن الأبيات السابقة نعرف أن جد الشيخ كان ذا صلة قوية بالتصوف ، فقد كانت له أوراده ، ومنها دلائل الخيرات للإمام الجزولى ـ رضى الله عنه ـ كما كان كثير الصلاة على سيدنا ومولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

يقول شيخنا رضى الله تعالى عنه ـ يمدح جده ـ رضى الله عنه ـ

رضـاء الله يغـشى بالتـوالى * لشيخ الفضـل مصحـوب الكمـال
فذاك الـجـعـفـرى له كمـال * وتـرتـيل على مر الـليـالـى
وخـير الـنـاس جاء حديث طه * بتـعـليم الـكـتـاب على الـتـوالـى
فكـم قد علم الـقـرآن ناسـا * فنـالـوا الـحفظ معـدوم الـمثـال
وقد حضروا العلوم على شريف * عبـيد الـعـال نبـراس الـمـقـال
عطوف ذو وداد واحـتـرام * شريف الـنـفس محـمـود الـفعـال
فقـيه مرشـد يحكى علومـا * بمـجـلسـه يفـيد بكـل حال
ولا يدعـو بسـوء بل دعـاه * صلاح الـحـال دومـا والـمقـال [3]

---

(١) الديوان حـ ٢ ص ١٨٥ .
(٢) الديوان حـ ٢ ص ٢٧٨ .
(٣) الديوان حـ ١٠ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(الجـــــــدة) :

وكذلك كانت جدته لأبيه صاحبة دعوات حفظها عنها حفيدها الإمام الجعفرى ومنها دعاء كان الشيخ حريصا على ترديده وكان يوصى الناس بحفظه وكان يقول : إن جدتى لوالدى عمرت حتى بلغت مائة وخمسة وثلاثين عاما ، وكان لها دعاء جميل فى السحر ، تقول : يارب يابو سما عاليه وخزاين ماليه ، بحيلى وعينى لما أدخل قبيرى ـ أى تدعو الله ـ تعالى ـ أن تظل بقوتها وصحتها حتى تدخل قبرها يقول الشيخ : إن هذه الجدة لم تمرض إلا أسبوعا واحدا طوال عمرها المديد ، وانتقلت وهى فى كامل صحتها وعافيتها .

الأب : الحاج محمـد صـــالح . .

أما والد الشيخ سيدى محمد صالح فقد كان من المكافحين فى السعى على أهله وقضاء مصالحهم وإدارة شئون الأرض ، أما فى الليل فكان يقوم فيه يتعبد لربه ، حتى يدنو وقت صلاة الصبح ، فكان يبكر بالذهاب إلى المسجد ، صيفا وشتاء ، فيفتح باب المسجد وينير المصابيح ، وينتظر المصلين ، ثم يؤذن لصلاة الفجر ، ثم يؤم المصلين ، ثم يعود إلى المنزل ليوقظ أهله ليصلوا الصبح قبل طلوع الشمس ، ثم يأخذ إفطارا خفيفا معه إلى الحقل ، وكان قويا نشيطا ، وكان لايحب أن يرى إنسانا كسلان ، وكانت زراعته أحسن الزراعات فى دنقلا ، وكان يعرف فى بلدته بالأسد لشدته وقوته فى العمل ، وقد حج إحدى عشرة حجة كان يمشى فيها على رجليه بين المناسك ، وكان يقوم بخدمة الحجاج ورعاية مصالحهم ، وكان يحمل سلاحه ليدفع عنهم قطاع الطرق الذين كانو يخرجون لقطع الطريق على الحجاج وسلب متاعهم ، وقد أشار شيخنا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ إلى ذلك فى إحدى قصائده فقال :

وبـشـراك حقـا أيا والـدى * بمـدح عظيم أنـار الـديـارا
جزائـى عليه رضـاك الـذى * يكـون نجـاتـى إذا الـشـر ثارا
وأنـت بخـير وقـد زرتـه * حججـت اعتمـرت وزرت مرارا [٤]

(٤) الديوان حـ ٣ ص ٣٧١ .

وكان والد الإمام الجعفرى يحضر من السودان إلى مصر ليزور أجداده من أهل البيت وليزور مشاهد الأولياء والصالحين ، وكان يزور ابنه الشيخ صالح فى الأزهر وقد ذكر الإمام الجعفرى قصة عن والده ـ رحمه الله ـ تدل على مدى ما كان يتخلق به من أخلاق الصالحين الذين عُرفوا بالحياء والورع ، يقول : إن الوالد كان فى آخر زيارة له بمصر كلما ذهب إلى مكان بالقاهرة يولى وجهه إلى الحائط ويمسك ذقنه بيده ، وأنا لا أستطيع سؤاله عن ذلك تهيبا له واحتراما فلما هم بركوب القطار ليسافر إلى دنقلا قلت له : يا والدى لماذا كنت كلما ذهبت إلى مكان تدير وجهك إلى الحائط ، وتمسك ذقنك بيدك فقال لى : يا ولدى : كلما رأيت امرأة سافرة متبرجة واريت وجهى عنها وقلت : يارب أبعد هذا السن نفتن وننظر إلى النساء ؟ ولم يكن العرى والسفور كحاله اليوم ، ولكنه من شدة ورعه كان يفعل ذلك ، وهذه الشمائل الزكية تزكى هذا النسب الطاهر الشريف ، وقد ظل ـ رضى الله عنه ـ ملازما للعبادة والصلاة ـ مواظبا على أداء الصلوات الخمس فى جماعة ، حريصا على أن يكون فى الصف الأول طوال عمره الذى أربى على التسعين عاما .

وقد قال الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ فى رثاء والده ـ رحمه الله ـ :

ما الموت إلا راحة فى جنة * فى قبرك السامى لدى مولاك
منى إليك تحية وترحم * من قلب مشتاق إلى رؤياك
كم قد لقيت من الكرام أفاضلا * وأحبة وأقاربا وأباك
كم من شريف طاهر فى روضة * من آل جعفر دائما يلقاك
كم للمساجد قد مشيت مهرولاً * فى كل وقت تاركاً دنياكا
وحججت عشرا ثم وترا بعدها * والرب للبيت العتيق دعاكا
علمت نجلك للكتاب وبعده * للأزهر المعمور قد لباك
وتقول لا أبغى بذلك حاجة * إلا ثوابا ترتجى أخراك
حتى غدا علما بِنِيَّتِكَ التى * قدمتها واليوم لا ينساك
وعظاته فى الأزهر المعمور فى * حرم النبى وفى منى ذكراك

فى الغرب فى السودان فى مصر التى * فيها الحسين وكل ذا برضاك

فلك الثواب بكل وعظ قاله * يهدى به ما قاله مولاك
يا غارسا للطيبات ثمارها * قد أينعت فامدد يديك وهاك
كم قد سعيت مجاهدا ومبكرا * بشجاعة وشكرت فى مسعاك
قد كنت جنة والديك موفقا * للبرِّ ياكنز الرضا بشراك
ياواصل الأرحام بالعطف الذى * من عطف والدك الذى رباك
كم من أذان فى الدجى أذنته * لله كم سمع الإله نداك
زكيت مالك لم تكن متوانيا * فى حق ربك بل تمد عطاك
وحضرت عبد العالى فى أيامه * ودروسه ومن العلوم سقاك
عمرت دنياك التى وافيتها * بالحق لم تترك بها علياك
وعملت للدارين عشت مكرماً * وبعزة التقوى تعيش هناك
عُمراً طويلا عشته وعمرته * ولقيت ربك بعده بتقاك
قد غبت عن أبصارنا ومكانها * وببرزخ رب العلا أحياك
منى السلام عليك مانجم سرى * وتحية مقبولة تغشاك

الوالـــــــــدة . .

أما والدة الشيخ ـ رضى الله عنه ـ فقد كان له عندها مكانة عزيزة وكان الأثير الحبيب إلى قلبها لذا كانت شديدة التعلق به ، كثيرة الحنين إليه ، يقول عنها ابنها الإمام الجعفرى : عندما سافرت من السودان إلى الأزهر كانت والدتى لاتطبخ طعاما أحبه فى غيابى ، وكانت تقول : لا أحب أن آكل طعاما يحبه ولدى الحبيب فى غيابه

وعندما تخرج الشيخ من الأزهر وعمل فيه طلبت منه والدته أن يرسل إليها جزءا من راتبه ، لا لحاجة إلى المال ، ولكن لتفرح بأن ابنها قد تخرج وصار له راتب ينفق منه على أسرته ، فكان الشيخ يرسل إليها خمسين قرشا كل شهر من راتبه الذى كان مقداره ثلاثة جنيهات وخمسة وسبعين قرشا .

وكانت محبة الشيخ لوالدته محبة شديدة ، تدل على الوفاء والبر والرحمة ، وفى المرة الوحيدة التى لم يذهب فيها للحج منذ بدأ رحلات الحج من سنة ١٩٥٢ وهى سنة ١٩٦٢ م ، فقد حالت ظروف طارئة دون سفره من القاهرة إلى الحجاز ، ذهب

إلى السودان ليسافر من هناك ، ولكن لم يكن له نصيب فى الحج ، فلم يستطع أن يسافر إلى الحجاز من السودان أيضاً ، فذهب إلى بلدته ليقضى أيام عيد الأضحى مع والدته فإذا بها تقول له بلسان الأم الصالحة الطاهرة الولية التقية : كيف تذهب إلى الحج وتتركنى ؟ وأنا منذ عام قد اشتريت خروفا للضحية وأنا أدعو الله تعالى أن يأكل منه ابنى الشيخ صالح ؟!

تلك كانت لمحة موجزة عن أسرة مولانا الإمام الجعفرى ، وهى أسرة ظهرت عليها دلائل شرف النسب ، وزكّى نسبتهم إلى جدهم الإمام جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ صدق فعالهم وكريم خصالهم ، يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ :

قبائل الجعافرهْ * وفى البلاد ظاهرهْ
قد أدركت مفاخره * نورا بهم سناه
قد ورثوا إقداما * وأطعموا الطعاما
وأحسنوا الكلاما * بهم له أشباه
وجدهم ينادى * أهل التقى أولادى
قد شرفوا للنادى * أحبهم لله (٥)

---

(٥) الديوان حـ ٧ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

مولد الإمـــام وطفولتـــــه

قضى الله أن تسبق ولادة سيدى صالح الجعفرى إشارات لها معان فقد مضى على والديه ثمانية أعوام بدون إنجاب ، فعزم أهل أبيه على أن يزوجوه بامرأة أخرى فعلمت الزوجة بذلك ، فحزنت وذهبت إلى قبر سيدى عبد العالى بن السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنهما ـ لزيارته ، وأخذت تدعو الله عنده ، وقالت إذا رزقنا الله تعالى ـ بمولود فى هذا العام فسوف أصوم ستة أيام بعد رمضان وأهب ثوابها لك ، وأنفق جنيها فى مولدك على الفقراء والمساكين ، وقد تحقق أمل الأم ورزقها الله تعالى بمولود كريم هو سيدى الشيخ صالح الجعفرى فكان أن أوفت والدته بنذرها لله تعالى ـ ووهبت الثواب للسيد عبد العالى وكان الإمام الجعفرى يحفظ هذه القصة جيدا ويذكرها لأبنائه ويشكر الله تعالى ـ على هذه النعمة العظيمة فالجعفرى ـ رضى الله عنه ـ نذرته أمه لله تعالى ، فتقبل الله تعالى ـ منها ذلك النذر ، ويسّر له الطريق إلى عبادته ، وقد تأكدت تلك الإشارات بما حدث عندما علم أبوه بمولده ، فتلقفه بين يديه فرحا ، وذهب به إلى جده (سيدى صالح) وقال له : لقد رزقنى الله تعالى ـ بولد ، وأريد أن أسميه باسمك . فقال له الجد ـ العارف ـ: إذا سميته باسمى فإنك ستهبه لله ـ تعالى ـ ولن تنتفع منه بشىء فى عملك ولا فى زراعتك ، فقال له الوالد : لقد نذرته لله ـ تعالى ، فسماه : صالحا فكان له من اسمه أكبر نصيب ، يقول شيخنا مشيرا إلى ذلك فى آخر منظومته (جالبة الفرج) :

كذا الجعفـرى جدى وإنى سميُّه * لهم نسب بالصدق جاء مسلسلا [1]

وهكذا أخذ الوليد ينمو ويكبر حتى إذا آنس منه والده شدة وقوة أراد أن يعلمه شيئا من التجارة ، فذهب به إلى دكان عمه ، ولكن الصبى كان يهرب من الدكان ليذهب إلى حلقة تحفيظ القرآن الكريم فى مسجد دنقلا ، يحكى لنا الشيخ ذلك بنفسه فيقول : كنت أتوارى عن عمى فى الدكان حتى أحفظ القرآن ، وكان والدى يعاقبنى على تركى الدكان ويأمرنى أن أتعلم التجارة من عمى ، فكان عمى يقول له : دعه وشأنه ، وكان عندنا دكانان فكنت إذا حضر أحد الفقراء أعطيته مما فيهما

---

(١) الديوان حـ ٤ ص ٥٨٠ .

ولا آخذ منه شيئا ، ولما ذهب أبى إلى سيدى محمد الشريف ليسأله عن هذا الحال قال له : أنسيت أنك قد وهبته لله تعالى ؟ أرسل ولدك إلى الأزهر .

وكـان عمر الشيخ فى ذلك الوقت ستة عشر عاما ، وكان قد أتم حفظ القرآن الكريم فى مسجد دنقلا العتيق الذى يوجد فيه قبر سيدى عبد العالى ، وعمره أربعة عشر عاما . فى هذه السن الصغيرة التى يحلو فيها للأطفال اللهو واللعب ، ولكن الجعفرى لم يكن كبقية الأطفال ، فلم يكن يشاركهم فى لهوهم ، بل كان دائما منصرفا إلى المسجد ، وكانت أمه إذا سئلت عنه تقول : إنه فى المسجد يحفظ القرآن وكان يحكى عن حالـه فى ذلك الوقت فيقول : كنت منذ طفولتى مشغوفا بالعلم وحفظ القرآن وكنت ملازما للمصحف الشريف ، وكنت عندما أنام أضعه بجوارى ، فإذا استيقظت فى أى وقت من الليل أعود إلى المصحف للقراءة والترتيل ، وقد حفظ الإمام الجعفرى القرآن الكريم على يد فضيلة الشيخ : على أبى عوف السنهورى والشيخ السيد حسن أفندى ـ وكلاهما حفظ القرآن عن جده الشيخ صالح ـ وتلقى علومه الأولى فى الفقـه على فضيلة الشيخ على محمد جوى من علماء الأزهر ، وكان إمام مسجد دنقلا العتيق .

الشيخ فى مرحلة الشـــــبيبة . .

وكان الشيخ صالح ملازما لضريح سيدى عبد العالى الكائن بمسجد دنقلا ، وقد اتصل مبكرا بالسيد محمد الشريف بن سيدى عبد العالى بن السيد الشريف أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ فأخذ الطريق عنه وكان عمره فى ذلك الوقت تسعة عشر عامـا وكـان السيد محمـد الشريف يختصـه بمـزيد العناية ، وينظر إليه نظرة خاصـة ، ويروى لنا الإمام الجعفرى هذه الحكاية عنه يقول : كنت صبيا صغيرا عندما كان الشيخ يلقانى قائلا : مرحبا شيخنا ! فكنت أخجل من نفسى وأتساءل عجبا : كيف يقول لى : مرحبا شيخنا وأنا صبى صغير وحوله كبار المشايخ ؟ وسيأتى تفسير هذه الإشارة عند الحديث عن حياة الشيخ فى الأزهر .

فى الطريق إلى الأزهـــــــر

تزوج الإمام الجعفرى فى سن مبكرة لم يتجاوز فيها الأربعة عشر عاما ، وقد انصرف إلى تحصيل العلم بمختلف فروعه ، حتى جاء وقت الرحيل إلى الأزهر الشريف وكان سبب ذلك أنه وقف على كتاب « شرح النووى على صحيح مسلم » فأخذ يقرأ مافيه بشوق ولهفة ، وعند ذلك جاءته إشارة من سيدى عبد العالى بن السيد أحمد بن إدريس كانت سببا فى عزمه على السفر إلى الأزهر الشريف ولنستمع إليه يحدثنا عن تلك القصة يقول : « وقبل مجيء إلى الأزهر جاء أحد أهل البلد بأول جزء من شرح النووى على صحيح مسلم ، فاستعرته منه ، وصرت أذاكر فيه ، فرأيت سيدى عبد العالى الإدريسى ـ رضى الله عنه ـ جالساً على كرسى ، وبجواره زاد للسفر وسمعت من يقول : إن السيد يريد السفر إلى مصر إلى الأزهر ، فجئت وسلمت عليه وقبلت يده ، فقال لى مع حدَّة : « العلم يؤخذ من صدور الرجال لا من الكتب » وكررها فاستيقظت من منامى وقد ألهمنى ربى السفر إلى الأزهر . . . »[1] .

وقد فهم الإمام الجعفرى مغزى الإشارة التى وجهه فيها سيدى عبد العالى إلى السفر إلى الأزهر الشريف لتلقى العلم عن العلماء فى مجالسهم ، وكان توجهه إلى الأزهر لما فيه من العلوم والمعارف التى يعزُّ وجودها فى مكان غيره ، فهو جامع العلوم ، وقد قص الشيخ فى أحد كتبه أنه « رأى السيد أحمد بن إدريس وهو يقول له : الله معك اقرأ فقه المذاهب الأربعة » يقول الإمام الجعفرى : فلما أصبحت قصصت الرؤيا على شيخ لى ، فقال : إن صحت رؤيتك فتأويلها أنك ستذهب إلى الجامع الأزهر (حيث يدرس الفقه على المذاهب الأربعة) وقد حقق الله تلك الرؤيا[2] .

وأما تفسير ما قاله سيدى عبد العالى ـ رضى الله عنه ـ لمولانا الإمام الجعفرى فى الرؤيا السابقة فهو إرشاد طالب العلم إلى أن هناك أنواعا من المعارف لاتحصل

---

(١) فتح وفيض ص ١٢ .

(٢) انظر المنتقى النفيس ص ٦٥ .

من مجرد النظر فى الكتب ومطالعة الصحف ، فالعلم النافع ، والمعارف اللدنية ، لاتؤخذ إلا من أفواه العلماء العارفين ، ومن مجالستهم والنظر إليهم ومراقبة أفعالهم والاقتداء بأحوالهم ، وقد أرى سيدى عبد العالى شيخَنَا الإمام الجعفرى صدق مقالته عندما سافر إلى الأزهر ، وفى أول درس حضره ليتلقى العلم من صدور الرجال ، جلس أمام عالم الأزهر الجليل المحدث الكبير ، الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى ، وقد تجلت الكرامة التى تحققت بكلام سيدى عبد العالى لشيخنا ، عندما كان أول ما تلقاه من صدر الشيخ السمالوطى هو ما كان يقرؤه من الكتب قبل هذه الرؤيا مباشرة ، يقول شيخنا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ :ـ

« . . . وحضرت الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى المحدث وهو يدرس شرح النووى على صحيح مسلم ، فجلست عنده ، وسمعته يقرأ حديث « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإن استنفرتم فانفروا » »[٣] .

رحلة الشيخ الأولى إلى الأزهر . . .

وقد صح العزم من سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ على أن يجاهد فى سبيل العلم فشمر عن ساعد الجد ، وبدأ رحلته إلى مصر ـ بلد الأزهر ـ وقد كانت رحلة شاقة وذلك لطول المسافة ووعورة الطريق بين مصر والسودان فكان السفر من دنقلا ـ مثلا ـ يتم عن طريق البر ، وكان المسافرون يركبون المراكب الشراعية من دنقلا إلى « كرْمه » ومن كرْمة يركبون العربات اللوارى فى الصحراء والجبال إلى « عقبات » ثم إلى « حلفا » فيركبون صنادل النقل والمراكب إلى الشلالات ثم إلى أسوان ومنها إلى القاهرة ، والطريق بين دنقلا والشلالات كلها جبال شاهقة ، وبينها وديان عميقة ، وكان المسافرون يبيتون فيها ليالى طويلة ، وقد أشار شيخنا الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ إلى هذه الرحلة الطويلة فى قصيدته التى مدح فيها آل البيت ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ وأسماها البردة الحسنية الحسينية فى مدح آل خير البرية فقال :ـ

سريت من بلد أسعى إلى بلد * حتى أتيت إليهم فى ديارهم

---

(٣) فتح وفيض ص ١٢ .

وبت فى جبل من بعده جبل * أرجو الإله شهودا فى جمالهم [٤]

وهكذا كانت رحلة الإمام الجعفرى إلى مصر وكان عمره آنذاك عشرين عاماً تقريبا ، وكان قد أنجب ولدا هو سيدى عبد الغنى ، وبنتا هى السيدة « فتحية » ولما وصل إلى مصر التحق بالأزهر الشريف ولازمه ملازمة تامة فمن أجل طلب العلم هاجر من بلده وموطنه وترك أهله وولده ، فلم يكن ليضيع لحظة بغير استفادة علم أو معرفة من علماء الأزهر الأعلام فى ذلك الوقت ، وقد وصف الإمام الجعفرى بنفسه صورة ليوم من أيام حياته فى الأزهر فقال : « كان الشيخ يوسف الدجوى - رحمه الله - يقرأ الدرس فى الأزهر ، من بعد صلاة الفجر إلى الساعة السابعة والنصف ، وكنا نحضر عليه ، وبعد انتهاء الدرس نخرج من الأزهر ونذهب إلى مسجد الإمام الحسين ، فنجد الشيخ محمد السمالوطى جالسا يدرّس فنجلس عنده حتى الثامنة ، وبعد انتهاء درسه نعود مرة أخرى إلى الأزهر حيث تبدأ دروس الفقه ، وفى فترة الأجازة كنا نحضر دائما عند الشيخ السمالوطى فى مسجد الإمام الحسين . . » [٥] .

أحواله مع شـــــيوخ العلم . .

وكان من أوائل العلماء الذين حضر الشيخ دروسهم الشيخ عبد الرحمن عليش يقول الإمام الجعفرى - رضى الله عنه - : « عند حضورى من بلادى كان من أول الذين لقيتهم الشيخ عليش ، وقد تعلمت منه فوائد لأقولها للناس ، فجزاه الله خير الجزاء » ولم يكن الشيخ عند حضوره إلى الأزهر خاليا من العلوم التى تدرس به فإنه كان قد حصل كثيرا من العلوم والمعارف التى تدرس به ، وحفظ من كتب الحديث مايسره الله تعالى له ، وقد تجلى ذلك واضحا عندما التقى بأحد علماء الأزهر المعدودين فى ذلك الوقت وهو الشيخ محمود خطاب السبكى ، وكان ذلك اللقاء بعد حضوره من السودان بشهرين ، وكانت تلك المناظرة التى يجدر بنا أن نقف أمامها متأملين مافيها من دروس وعبر ، فإن فيها أدلة واضحة على علم الإمام

---

(٤) الديوان حـ ٥ ص ٨٤٣ .

(٥) درس الجمعة ١/ ٣٥

الجعفرى الفياض الغزير ، وفيها أيضا كشف لحقيقة منهج الشيخ السبكى الذى يجاهر بعض مدعى الانتساب إلى منهجه بالعداوة لزائرى آل البيت ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ يروى لنا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ قصة هذا اللقاء فيقول :ـ « والشيخ محمود خطاب السبكى ـ اللهم اغفر له فإنك غفور ، وارحمه فإنك رحيم ـ حضرت عليه الدرس ، وكان يجلس أمامه خمسة وخمسون طالبا ، فلما انتهى من درسه قام يريد الخروج ، فقمت إليه ـ وكنت قد حضرت من بلادى حديثا ـ فتناولت يده لأقبلها ، فمنعنى من ذلك ، فقلت له : « أخرج أبو داود فى سننه فى باب وفد عبد القيس أنهم ألقوا بأنفسهم من فوق دوابهم ، وابتدروا يد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجله فقبلوهما » ، فما أنت بأورع من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظر إلىّ مليا ، ثم التفت إلى من حوله ، ثم قال لى : من أين أنت ؟ قلت : من بلاد الله ! وكـان قد مضى علىّ شهران فى الأزهر ، فالتفت إلى من معه ، ثم قال لهم : انظروا إلى هذا ، له شهران فى الأزهر ، ويخاطبنى بسنن أبى داود ، وفى الأزهـر من له ثمـانون سنة ولا يدرى أين سنن أبى داود . كان هذا جوابه ، وأنا أشكره ، لأنه امتثل للدليل وكان بعد ذلك كلما سلمت عليه يرسل يده لى فأقبلها ، فأنا أشكره ، لأنه اقتنع بالدليل وأشهد له يوم القيامة بهذا عند الله تعالى »[٢] .

وحين وفد الشيخ إلى القاهرة ساءه شيوع التبرج والاختلاط بين الكثير من أهلها على غير ما ألفه فى بلده دنقلا التى نشأ فيها نشأة الزهد والعلم ولزوم المساجد للعبـادة ، ولم يكن هناك فى بلدته اختلاط النساء بالرجال أو ظهور النساء بهذا المظهر الذى فوجىء به عندما خرج فى شوارع القاهرة فأخذه الضيق من زحامها ، واختلاط النساء بالرجال فيها ـ حتى هم بالعودة إلى بلاده ، ولكنه قرر أن يزور مولانا الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ ولما فرغ من الزيارة ، لقيه شيخه العارف محمد إبراهيم السمالوطى ـ رضى الله عنه ـ فكان أن كاشفه بما يدور فى خاطره قائلا : لاتظن أن الأولياء يعيشون فى الخلوات ويفرون من الناس فى المغارات فقط ولكن

---

(٢) درس الجمعة حـ ٢ ص ١٥٦ .

الولى الصادق هو الذى يعيش وسط العقارب فلا تتمكن من لدغه ، فامكث هنا وجاهد نفسك ، وجاهد هؤلاء النفر من الناس !! فقال الشيخ صالح فى نفسه : هذا شيخ عارف لن أفارقه ماحييت ، وقد لازمه بالفعل حتى وفاته وكان درس الشيخ السمالوطى فى علوم الحديث ، وكان يلقيه فى مسجد مولانا الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ وهكذا انطلق الشيخ فى طريق العلم ، فلم يترك شيخا إلا وأخذ عنه وجلس فى حلقته ، وكان يسهر ليله فى العلم والذكر وتلاوة القرآن وكان يحب السهر فى العبادة ، وكان يقول : إن للعبادة لذة لاتعدلها لذة ، فكان يمسك المسبحة الألفية ، ويظل يدور بها فى صحن الأزهر يسبح لله ـ تعالى ـ حتى صلاة الصبح ، وكان يقول : كنت فى شبابى أختم القرآن كل ثلاثة أيام وهذا لايكون إلا بتوفيق الله ـ تعالى ـ .

ولم يكن الشيخ وهو بالأزهر منقطع الصلة عن والده ، فكان والده يرسل إليه كل شهر عشرة جنيهات ، وهو مبلغ كبير فى وقته فى الثلاثينيات ولكن الشيخ صالحا كان ينفقها على فقراء الطلبة فى الأزهر ، وكان يعيش بينهم ويشاركهم طعامهم البسيط ، بل إنه فى بعض الأوقات كان لايجد طعاما يأكله فيبيت طاويا تأسيا برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان يحدث أبناءه ومريديه عن هذه الأيام فيقول : كنا نبيت على الطوى ليالى كثيرة ، بل إننى مكثت أربعة أيام لا أجد ما آكله ، وكنت أزور بعض معارفى فكان يسألنى : هل تريد أن تأكل ؟ فكان الحياء والخجل يغلباننى فأرد قائلا : قد أكلت ، وهكذا بلغ بى الجوع حداً جعلنى أبكى قبل النوم ، فجاءنى السيد أحمد البدوى ـ رضى الله عنه ـ فى المنام وعلى وجهه لثامان ، ثم كشف عن وجهه ، فوجدته أبيض كالقمر ثم وضع يده على وجهى وقال : لماذا تبكى ياشيخ صالح ؟ فقلت : من شدة الحاجة ، فقال لى : سيوسع الله عليك إن شاء الله ، ولكن لاتنس إخوانك فاستيقظت من نومى فرحا مستبشرا ، وقلت : لك عندى ذلك وسأزورك كل عام زيارتين على الأقل .

وكان الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ حريصا على الاستفادة من كل لحظة يجلس فيها مستمعا للدرس ، فكان كثير السؤال فى الدرس للاستفادة والاستزادة مما عند شيخ الحلقة من علوم ومعارف ، وقد قال مرة لشيخه السمالوطى : أنا أسألك كثيرا ، وأنت ترد على كثيرا ، وإخوانى يدفعوننى من

ظهـرى ، فقال له الشيخ السمالوطى : أنت عليك أن تسأل . ونحن نجيب ، فعليك أن تتحمل لسع النحل ، حتى تحصل على العسل !

ولم يكتف الشيخ بالدروس العامرة التى كان يحضرها بين أعمدة الأزهر ، بل سعى إلى العلم خارجه أيضا ، فكان يخرج من الأزهر ليحضر درس العلامة الشيخ الشبـراوى فى مسجـد « النور » الملحق بقصر عابدين ، وذات يوم تأخر الشيخ الشبراوى عن الحضور إلى الدرس ، فنهض شيخنا الجعفرى وجلس مكان شيخه وألقى الدرس ، وفى أثناء ذلك حضر الشيخ الشبراوى فوقف بعيداً ليستمع لتلميذه النجيب ، وهو فرح به مسرور ، فلما فرغ من درسه قاله له : ماشاء الله ! ماشاء الله ! إنك لست فى حاجة إلى حضور درسى بعد اليوم وقد عرفت الآن أنك تستطيع أن تجلس وتدرس العلم للناس ، فقال له شيخنا الإمام الجعفرى : أنا لا أستغنى عن درسك أبدا ، وإنما جلست مكانك حتى تحضر .

يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ: « عندما نظمت البردة الحسنية الحسينية ، وكانت من أول ما نظمت ، ذهبت مع الشيخ الشبراوى لزيارة الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ فأعطيت له القصيدة ليقرأها فجعل كلما قرأ بيتا أو بيتين يقول لى : أأنت نظمت هذا ؟ فأقول : نعم ، فيقول لى : ماشاء الله ! ماشاء الله ! ، واستمر على ذلك حتى انتهى من قراءة القصيدة كلها .

ويبدو أن لذة العبادة وحلاوة العلم ، واستغراق الشيخ فى حياته بالأزهر ، قد جعله لايفكر فى أهله ووطنه فى دنقلا بالسودان ، فدفع الحنين والشوق والده إلى أن يرسل له خطابا يذكره بأهله ووطنه ، ويدعوه إلى زيارتهم بالسودان ، وقد وجد هذا الخطاب بين أوراق الشيخ بعد انتقاله وهذا نص الخطاب :ـ

« فى يوم ١٩٤٠/٢/٥ م . . . . حضـرة الشيخ صالـح محمد صالح . . . . دام . . . . بعـد السـلام عليكم . . . أتعشم أن تكون بكامل الصحة كما نحن كذلـك ، حضرت من الحج بخير وصحة جيدة ، وكذلك الوالدة ، إن شاء الله تكون كذلك ، وأنا أتعشم أن تسمع منى لتحضر لدنقلا تأخذ معنا شهرا واحدا ، وبعد ذلك ترجع إلى مصر ، أرجوك الرجاء الخاص أن تحضر لنا ولو شهراً واحداً بدنقلا يا إبنى ضرورى من حضورك ، وإذ لم تحضر فأنا مضطر أن أحضر لمصر ،

الأمل أن لاتكلفنى مصاريف لحضورى مصر ، أتعشم أن تسمع قولى ، ولازم من إفادتى والسلام . . . . والدك محمد صالح محمـد .

ولكن الوالد لم يحتمل فراق ابنه أكثر من ذلك ، فلم ينتظر ليحضر إليه ، ولكنه ذهب إلى القـاهـرة ليزوره ، وقـد استقبـل الشيخ صالح الجعفرى والده أحسن استقبال ، وقام على خدمته ، ولازمه فى زياراته لأهل البيت ـ رضى الله عنهم .

وقد ذكرنا خبر تلك الزيارة ، وما حدث فيها فيما مضى من الكتاب [٣] . وكذلك كان الشيخ ـ رضى الله تعالى عنه ـ باراً بوالدته ، فكان يرسل إليها ـ كما ذكرنا ـ جزءاً من راتبـه عنـدمـا تعين فى الأزهر ، وكان يحفظ كثيراً من كلامها ودعواتها المباركات ، وفيما يلى نص خطاب أرسله إليها ـ ويلاحظ فى هذا الخطاب أن الشيخ ـ رضى الله تعالى عنه ـ يبسِّط الكلام ، ويسهل الألفاظ ، ويصوغ عبارات قريبة من طريقة أهل السودان فى كلامهم ، يقول :ـ

« يا والدتى السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، إن شاء الله عمرك يطول وخيرك كثير ، والبركة حاصلة ، وإن شاء الله الشىء اللى تعوزيه توجديه بين يديك ، اليد السعيدة سعيدة ، وبيت الكرام عند الله مكروم ، والبركة ماتدخل تحت التراب ، والحمد لله بركتنا مشرِّق معانا ، مغرِّب معانا ، ولنا رب اسمه الكريم ، ولنا رزق مضمون لايأكله ديب ، ولا يمنعه عدو ولا حبيب » .

وعندما بلِّغ الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ نبأ انتقال والده إلى دار البقـاء ملأ قلبه حزن نبيل ، عبَّر عنه نثراً وشعراً ، وتمثل ذلك فى صورة خطاب خاطب فيه الشيخ روح والده ـ رحمه الله ـ وتأمل جيدا محتوى هذا الخطاب أيها القارىء الكريم ، تجد فى كلماته صفاء النفس ، وعمق الإيمان ، ورقة الشعور ، وقوة عاطفة الابن تجاه والده ، فلم تخرجه مصيبة الموت عن منهجه وطريقته ، ولم يفقده ألم الفراق ثباته ورباطة جأشه ، وإنما يخاطب فيه والده مخاطبة الحى للحى ـ وإن اختلفت العـوالم ـ ولا نريد الإطالة فى تقديم الخطاب ، فها هى عباراته مسـطورة تكشف عن الحـال ، وتغنى عن بليغ المقـال :ـ « بسم الله الـرحمن

---

(٣) انظر ص ٦

الرحيم ، وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ماوسعه علم الله ، أيها السيد الوالد الحاج محمد صالح محمد الجعفرى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فى عالم برزخك ، وفى روضتك ، حيث تسمع وترى ، وتبصر مالا نرى ، أسلم عليك من قلب حزين ، برحمة الله يود رؤيتك ، ولكن الحكم لله ، فإذا حجبت عن بصرى ، فلم تحجب عن بصيرتى ، وإذا غبت عن المكان ، فلم تغب عن الجَنان ، قد منّ الله عليك بنعمة عظيمة ، ووهبك حياة طيبة كريمة ، واليوم أنت فى ضيافة الكريم الأكرم فى راحة تامة ، ونعيم أعظم ، وقد منّ الله عليك بشىء لم تنله بلسانك ولا بيديك ، وهو اتصالك بمن أنت منهم ، وهم أجدادك الجعافرة فهنيئا لك اليوم بمجاورتك لتلك الأرواح النقية الطاهرة ، ولقد كنت تمشى على آثارهم فى حياتك ، واليوم تفرح بلقائهم بعد مماتك ، ولقد أخبرتنى أنك ووالدك كنتما تجلسان لسماع دروس بحر العلوم المتلاطمة أمواجها والشمس التى أضاءت قلوب الأحبة بسراجها ، الزاهد التقى ، والشريف الولى السيد عبد المتعال الإدريسى ـ رضى الله عنه ـ فهنيئا ياوالدى ، فلطالما تمتع نظرك بالنظر إلى ذلك الوجه البراق ، وتشنَّف سمعك بذلك العلم التـرياق ، الذى تلقاه السيد عبد المتعال عن شيخه الفاضل المفضال ، علاّمة الـزمـان ، وفـريد الأوان ، ذى الأنوار الباهرة ، والعلوم الظاهرة والعبادة والمجاهدات ، والمواعظ والإرشادات ، الحافظ المتقن لما يرويه ، والفقيه المحقق لما يحكيه ، الذى سار على قدم شيخه ولم يخالف قيد شعرة والذى أعطى شيخه حقه من الإجلال وعرف قدره ، السيد محمد بن على السنوسى الإدريسى ، وهو قد تلقى عن شيخه : شيخ الشيوخ الأكابر ، والإمام فى علمى الباطن والظاهر ، شيخ الطريقة ، وعالم الحقيقة ، عالم الأسانيد ومفتاح الاجتهاد والتقاليد ، عالم الفنون الغريبة ، مظهر الأسرار العجيبة ، تالى الأحاديث بالأسانيد والروايات ، المؤيد من عند الله بالنصر والكرامات الذى علمه نافع لكل سامع ، فمن ذاق منه قطرة صار وليا ، والذى نظره ترياق للقلوب ، فمن نظر إليه صار بإذن الله تقياً ، المجاهد الهمام ، والعارف الإمام ، السيد أحمد بن إدريس ، ذو الأفعال الأحمدية ، والأخلاق المرضية فهنيئاً لك ياوالدى بهذا الاتصال ، وبسماعك ونظرك للسيد عبد المتعال وبذلك تعتبر من الإخوان السنوسية ، الذين

بشّرهم ابن السنوسى بكل خير ، ومن أعظم ما بشرهم به أن شيخه أخبره أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبره أن من يأخذ طريقه يتولى تربيةَ روحه النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك يقال لها : الطريقة المحمدية ، وأن صاحبها يكون متمسكا غاية التمسك بمتابعته ـ صلى الله عليه وسلم .

فهنيئاً لك ياوالـدى ، لأنـك صحبت البحـر الذى تلاطمت أمواجه واتسعت فجـاجه ، قطب الأولياء ، وإمام الاصفياء ، الذى تحيرت أمام أحواله الأكابر ، وظهرت كراماته لكل بارٍّ وفاجر .

انتهى خطاب مولانا الإمام الجعفرى إلى والده الحاج محمد صالح ـ رضى الله عنه ـ ولمّا ينته أثره فى النفوس ، ولمّا تشبع من حلاوته الأرواح ، فياله من بحر زاخر ذى موج هادر ، يرتوى بعذب سلسبيله الظمآن ، ويهتدى بوميض لآلئه الحيران ! إن هذا الخطاب يحمل بين سطوره أنوار العلم ، وإشراقات التصوف ، وإشراق شمس الولاية الكاملة ، فوق مامُلىء به من الحكم والإشارات ، وعلو مكانة كاتبه فى صوغ الألفاظ وسبك العبارات ، رضى الله ـ تعالى ـ عن شيخنا الإمام الجعفرى الذى علّمنا الله به كيف يخاطب الأحياءُ الأموات .

ولمّا تدفقت المعانى وتزاحمت الأنوار على قلب الجعفرى وهو يخاطب والده فى هذا المقام السامى انطلق ينظم شعراً يذكر محاسن والده ، ويعدد مناقبه ، وقد سبق نقل هذا الشعر فيما مضى من الكتاب [٤] .

ولم يلبث الشيخ أن نفض عن نفسه غبار الحزن ، فنهض إلى دروسه ومضى مجدًّا مجتهداً فى تحصيل علومه بالأزهر الشريف الذى لم يكن يفارقه إلا لزيارة جده الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ ومشاهد أهل البيت ، وكان ـ رضى الله عنه ـ يقول : بلدٌ فيها مولانا الإمام الحسين لايفضلها إلا المدينة التى فيها جدُّه ـ عليه الصـلاة والسلام ـ ولولا وجود مولانا الإمام الحسين ما بقيت فى مصر ، وسنعقد فصلاً خاصاً لعلاقة مولانا الإمام الجعفرى بآل البيت ـ رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

---

(٤) انظر ص ٦ ، ٧

وجاء وقت الحصاد ، فقد أتم الشيخ صالح الجعفرى دراسة علوم الدين واللغة وغيرها فى ساحة الأزهر المعمور ، فى وقت لم يكن التشعيب والتخصص قد عرف طريقه إلى الأزهر ، فكان طالب العلم ينتقل بين دروس العلم المختلفة كما تنتقل النحلة النشيطة من زهـرة إلى أخـرى ، فتمتص غذاءها من رحيق هذه وتلك ، فيخـرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . حصل الشيخ صالح الجعفرى على شهادة العالمية الأهلية من الأزهر فى نظامه القديم .

عـــــود إلى دنقـــلا

أراد الشيخ أن يدخل البهجة والسرور على أهله فى دنقلا فسافر إليهم بعد أن نال شهادة العالمية الأهلية ، ففرحوا به كثيرا ، وطلبوا منه أن يبقى معهم ، فلم يشأ أن يغضبهم ، وبقى بينهم قرابـة ثلاثـة أشهر ، ثم رأى فى المنام السيدة زينب والسيدة سكينة ـ رضى الله عنهما ـ تتحدثان قائلتين : إن الشيخ صالح قد تركنا وانشغل بزوجته وأولاده ، فاستيقظ من نومه متأثرا ، وجعل يبكى ويقول إننى لم انشغل عنكم يا آل البيت بزوجتى وأولادى ، ولكن الطريق بين دنقلا والشلالات مغلق ، فهل تفتحون لى الطريق لأذهب إلى مصر ؟

يقول الإمام الجعفرى مكملا رواية ما حدث : « وفى اليوم الثالث فتح الطريق ورجعت إلى مصر وبحثت عن عمل فلم أجد إلا عملا بزاوية صغيرة بالصنادقية ومكثت فيهـا ثلاثـة أشهـر ، حتى أتانى رجل وقال لى : هناك وظيفة فى الرواق العباسى فتقدمت إليها وعينت فى الأزهر .

بدايـة عمله فى الأزهـــــر :

ولم يقتصر الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ على واجبات وظيفته ، بل قام بالتدريس والوعظ فى جنبات الأزهر ، وجذب إليه القلوب بما أفاض الله ـ تعالى ـ عليه من العلم النافع ، والموعظة المخلصة الصادقة فأقبل عليه طلاب العلم من داخـل الأزهـر وخـارجـه ، حتى بدأ بعض من يعمل معه فى الأزهر يتذمرون ، ويستكثـرون على الشيخ تصـدره للدرس والـوعظ ، وينفسـون عليه هذا القبول والإقبـال من النـاس ، إلى أن جاءت منـاسبـة أظهـرت جدارة الشيخ العلمية ،

واستحقاقه لهذه المكانة العظيمة ، فسلّم المعترض ، وأفحم المجادل ، وسُرّ المحبُّ وقر .

كان ذلك عند وفاة العلاّمة الشيخ يوسف الدجوى سنة ١٣٦٥ هـ ، وقد اجتمع أبناء الأزهر وكبار العلماء لتوديع عالمهم الجليل ، فاحتشدوا فى موكب مهيب . . . ولكن تعالوا بنا نستمع إلى ما حدث من أحد شهود العيان ، وهو عالم من كبار علماء البيان ، وعَلم يُشارُ إليه بالبنان ، ذلكم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى أستاذ الأدب والبلاغة بجامعة الأزهر يقول :-

« ومن مواقفه التى بلغ التأثير فيها روعته الخالبة موقفه فى رثاء أستاذه الكبير الشيخ يوسف الدجوى - رضى الله عنه - فقد كنا طلابا فى كلية اللغة العربية ، ونادى الناعى منذراً بوفاة الشيخ الكبير ، ومحدداً ميعاد الجنازة ، فسارعت إلى توديعه ، وكان المشهد مؤثراً ، تتقدمه جماعة كبار العلماء برئاسة أستاذهم الأكبر مصطفى عبد الرازق ، وحين بلغ الموكب نهايته عند القبر انتفض الشيخ صالح خطيبا ، يرثى أستاذه ، فبدأ مرثيته مستشهداً بقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبضه العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهّالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلّوا » متفق عليه .

ثم أفاض فى إيضاح منزلة العالم الفقيد ، وأشاد ببعض مواقفه الجريئة أمام المبتدعة والملاحدة ، وكان جلال الموقف ، ورهبة المناسبة واحتشاد الجموع ، مما جعل نفس الراثى ممتداً ، يتسع ويتدفق ويجيش ، وكان لصوته الحزين هزة تحرك النفوس ، وتعصف بالألباب ، وما أن انتهى الخطيب من مرثاته ، حتى سأل عنه الأستاذ الأكبر معجباً ، ثم بادر بتعيينه مدرساً فى الجامع الأزهر ، فأضفى عليه تعينه الرسمى رسوخاً أخرس ألسنة من كانوا يضيقون بسلفية الشيخ لحاجة فى نفوسهم ، ويرونه يتجاوز الوضع المناسب لمثله ، حين يتصدر للوعظ يومياً ، دون ملال ، وهم قلة قليلة ، عرفت خطأها المتحامل ، فاستكانت إلى الحق بعد جموح . . » [٥] .

---

(٥) مجلة الأزهر عدد شوال سنة ١٣٩٩ سبتمبر سنة ١٩٧٩ ص ١٨٧٤ وما بعدها .

ولمّا عرف الأزهر نظام التخصص ، واستحدثت الكليات ، اتجه الشيخ إلى كلية الشريعة الإسلامية ، حيث نال منها شهادة العالمية مع إجازة التدريس سنة ١٩٥٢ م ، وكان قد التحق قبل ذلك بكلية أصول الدين لمدة سنتين درس فيها علوما لم يكن قد درسها من قبل ولم تكن موافقة لطبعه ومواهبه كما تحدث الشيخ عن نفسه » .

الفصـــــل الثانى

علاقة الإمام الجعفرى بالأزهـــــر

(الأزهر) اسم ارتبط بتاريخ الإسلام والمسلمين ـ منذ إنشائه ـ فهو الجامعة الإسلامية العريقة ، التى تحفظ علوم الشريعة والحقيقة ، وهو بقعة طاهرة مباركة من أرض الإسـلام ، يفد إليها المسلمون من كل مكان ، فيتلقون دقائق العلوم ولـطائف المعارف من أفواه علمائه العاملين المخلصين ، ويتزودون من علومهم وأخـلاقهم ، ثم يعـودون إلى بلادهم ، دعاة نافعين مخلصين لدينهم وأمتهم ، قادرين على الدفاع عن عقيدتهم ، حاملين أنوار العلم والهداية إلى بنى جلدتهم ، محققين فى أنفسهم وأهليهم قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوافى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [1] .

ولقد كان الأزهر ـ فى عصره الزاهر ـ عامراً بالعلماء العارفين ، الذين جمعوا بين الشـريعـة والحقيقة ، ولم يقفوا عند حدّ التحصيل والفهم ، ولكنهم عملوا بهذه العلوم فى أنفسهم ، ثم اتجهوا بها إلى الناس يرشدونهم ويعلمونهم ، فأفاض الله تعالى على قلوبهم من الأنوار والأسرار ، ما جعلهم هداة مهدّيين ، فتعلقت بهم قلوب التلاميذ والمريدين ، لما وجدوه عندهم من الصدق والإخلاص فى القول والعمل ، وتحقق فيهم قول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) [2] . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فلا عجب فى أن تظل قلوب المسلمين متعلقة بالأزهر وعلمائه ، وأن يكون منتهى أمل طلاب العلم فى سائر بلاد المسلمين أن يتعلموا فى الأزهر الشريف ويجلسوا بين يدى علمائه .

ولقد كان الإمام الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ شديد التعلق بالأزهر المعمور متصلاً به اتصالاً روحياً ، محباً له محبة قلبية خالصة ، ترجم عنها نثراً وشعراً فى

---

(١) التوبـــة / ١٢٢ .

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية .

مناسبات شتى ، وهذه بعض كلمات عنه [٣] :

« الأزهر هو الأزهر : شرع إلهى ، وميراث محمدى ، محفوظ بحفظ مافيه ، لأنه حوى القرآن وما فيه من فنون (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [٤] . ترفرف فوقه روح صاحب السنة ؛ إذ فيه سنته النبوية ، وعلماء أمته الذين هم ورثته وخلفاؤه ، فهو مكان نظر الله ـ تعالى ـ وعنايته ، وموضع الذين استشهد بهم على وحدانيته ، (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) [٥] فهو يحوى العدول ، وبه العدالة تعرف ، ومنه تبعث ، لا يُظْلِمُ إذا أظلم الكون ، ـ وفيه نور الله ـ، استنارت به القلوب ، وهديت بهديه الشعوب ، قوى الحجّة ، واضح المحجّة ، فيه استبصار لجميع المسلمين (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين [٦]) مرفوع الذكر والدرجات برفعِ الله تعالى لعلمائه ، فلا يخفضه خافض ، فمن دنا منه رُفع ، ومن عاداه وضع ، له سيف قاطع وبرهان ساطع ، وتجارة لن تبور ، ومنافع فى مشارق الأرض ومغاربها ، فهو كالغيث للنبات (يرفعِ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات [٧]) هم الذين اصطفاهم الله ، فهم صفوة الله فى عباده بعد رسله ، فلله تعالى اصطفاء فى كل زمان ، وجعل لمصر الحظ الوافر من هذا الاصطفاء ، بأزهرها الذى رفع شأنها ، وأعلى ذكرها ، وجعلها كعبة للقاصدين ، ورحمة للمسلمين ، (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) [٨] ولا يكون وارثا حقّا حتى يعلم ما فى الكتاب ، وللأزهر فى ذلك القدم الراسخ ، والباع الطويل ، واليد العليا ، ولقد جعل الله الأزهر موضع التفقه فى الدين ، وإليه الهجرة والنَّفرة ، وبه الإنذار للشعوب والأمم ، فهو أزهر الأمة المحمدية ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [٩] .

وهو مكان لزيادة العلم التى أرشد الله ـ تعالى ـ إليها نبيّه ـ صلى الله عليه وسلم

---

(٣) منبر الأزهر ـ ديوان خطب الشيخ ص ١٥ ـ ١٨ .

(٤) الحجر : ٩ .

(٥) آل عمران : ١٨ .

(٦) المائدة : ١٥ .

(٧) المجادلة : ١١ .

(٨) فاطر : ٣٢ .

(٩) التوبة : ١٢٢ .

ـ بقوله : (وقل ربّ زدنى علما) [١٠] .

وهو مكان الحسنى وزيادة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) [١١] فالحسنى هى العلم ، والـزيادة : هى الزيادة منه ، والتفهم فيه ، والتبحر فى معانيه وهذا فى الدنيا ، وفيه رجال المعاهدة الصادقون ، الذين حافظوا على التراث المحمدىّ من غير تبديل ولا تغيير ، من مات منهم مات على ذلك ، ومن عاش منهم عاش على ذلك ، (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتـظر ومـا بدلـوا تبـديلا [١٢]) وفيه رجال الأمر والاستنباط ، الذين أمر الله الشعوب أن ترد الأمر إليهم (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم [١٣]) وأولو الأمر : هم أولو العلم ، لقوله تعالى ـ (لعلمه) . . ولا يخلو شعب من الشعوب إلا وفيه أشباله . أسوْدٌ : عمائهمم تيجانهم ، وعدتهم إيمانهم ، وما من خير إلا وهم قادته والداعون إليه ، ففى الجهاد هم السابقون ، وفى الآراء هم المفكرون ، ارتضاهم الله حملة لدينه ، وأئمة لعباده ، ومرشدين لخلقـه ، فهم مصـابيح الأمم ، وأقمـار الشعـوب ، وبهم إصـلاح المجتمع ، يحـافـظون عليه من الـوحـوش الضارية ، والكوارث السامّه ، والعقائد الزائفة ، والآراء الفاسدة ، ومن عبث العابثين ، وتخريف المخرفين ، لايضل شعب وفيه منهم عالم ، فهم الزائرون على المنابر وهم الخطباء فى النوادى ، والكاتبون فى الصحف والمجلات . أقوالهم كالأسنّه تقطع كل قول ضالّ ، وتزجر كل منافق ، وتهدى كل حائر ، وتبين الغوامض من الأمور ، والمشكلات من المسائل .

فمن أكرمهم أكرمه الله ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن الله ، مجالسهم مجالس الله ، يقولون بقوله ، ويهدون لأحكامه ، ويحافظون على حرماته ، فمن أحبهم فبحب الله أحبهم ، فهم أهل الله وخاصته ، وخلاصة خليقته . . .

وعند هذا الحدّ انتهت هذه الكلمة الطيبة الجامعة التى أخرج لنا فيها الإمام

---

(١٠) طـــه : ١١٤ .
(١١) يونـــس : ٢٦ .
(١٢) الأحـــزاب : ٢٣ .
(١٣) النســـاء : ٨٣ .

الجعفرى جواهر كلامه ، ونفائس درر حكمه ، فترجم عن أصدق معانى الحب نحو الأزهر المعمور ، وماحبُّه للأزهر إلا حبُّه للعلم الشريف الذى يدرس فيه ، فإنك ـ أيها القارىء الكريم ـ لو أمعنت النظر فى معانى هذا الكلام ، لوجدته فى حقيقة الأمر ثناء على العلم وأهل العلم ، يضاف إلى ذلك اقترانه باسم السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله تعالى عنها ـ فنال ذلك المعهد العلمى شرف ذلك الاسم ، وشملته بركته ، يقول الإمام الجعفرى (١٤) . .

فيازهراء أزهركم منير * ومن بركات والدكم تشعب
وعم العالمين سنا ضياه * فكل المسلمين إليه تطلب
سألت الله يكلؤه بنصر * ومن يبغى له الإذلال ينكب

وإذا كان القرآن الكريم هو أكبر معجزات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن (الأزهر قام بدور كبير فى حفظ هذه المعجزات :ـ فالقرآن وعلومه : تدرس فى الأزهر ، والفقه بمذاهبه الأربعة فى الأزهر ، وكتب اللغة وعلوم النحو والصرف فى الأزهر ، والمعانى والبيان والبديع ، والتوحيد وعلم الحديث ، ومصطلح الحديث ، وكتب الصحاح كالبخارى ومسلم ، والمنطق الذى نعرف به التوحيد ، ونرد على الفلاسفة : فى الأزهر ، وما من علم إلا وهو موجود بالأزهر الشريف ، وكان العالم يمكث به اثنى عشر عاماً على الأقل ليأخذ شهادة العالمية ، وبعدها يستطيع أن يقول : أنا مالكى ، أو شافعى ، ولا يزيد على ذلك ، وإنما يتخصص فى مذهب واحد فقط (١٥) » .

---

(١٤) ديوان الجعفرى : ١/ ٦٩ .
(١٥) درس الجمعة ٢/ ١٣٥

علاقة الإمام الجعفرى بمشايخ الأزهـــــــر

نوهنا فيما سبق إلى أن الشيخ ـ رضى الله تعالى عنه ـ قد أحب فى الأزهر العلوم والمعارف التى تدرس فيه ، ونزيد هنا فنشير إلى أنه كان شديد المحبة لمشايخه ، وكـان يعد الجلوس فى حلقاتهم شرفاً ملزماً لمن يريد أن يلبس ثياب العلماء ، ويتولى وظائف الوعظ ، والإمامة والقضاء ، يقول فى تقرير هذه الحقيقة الراسخة :ـ

« أعوذ بالله من دعوى العلم من غير حضور على مشايخ ، ومن غير الشهادة العالمية التى حكم علماء الأزهر بأن من لم يحملها لايكون عالماً يثق العلماء بعلمه ، ولا يتولى الوظائف الدينية من إمامة وقضاء ووعظ .

ولقد كان الإمام الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ شديد التعلق بمشايخه فى الأزهر ، مراقباً لأحوالهم ، التى تدل على خشوعهم وإخلاصهم ، وتمكن خشية الله تعالى من قلوبهم .

يقول ـ رضى الله عنه :ـ

وحينما جئت وانتسبت إلى الأزهر : وجدت عند كل عمود شيخا يدرس العلم ، وكانت دموعنا تسيل من دروس العلماء ، ومن لمعان وجوههم ، لهم طريقة فى التدريس والكلام تقشعر لها القلوب ، وكان لعلماء الأزهر نطق حسن ، ونبرات مخصوصة فى إلقاء العلم والدروس ، وكان الشيخ السمالوطى ـ رحمه الله ـ يقرأ الحديث كما لم يقرأه أحد من قبل ، حتى إنك لتحس بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحدث ، فكان يقول : ألا أحدثك حديثا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمعتـه أذناى ، ووعاه قلبى ، ونظرته عيناى ، وكان ـ رحمه الله ـ يقلد الشيخ سليم البشرى شيخه » .

ومن دلائل محبة الإمام الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ لمشايخه أنه حفظ لهم الـود ، وأثنى عليهم فى دروسه وكتبه ، ووصف لنا أحواله معهم ، مما يعد صورة مشرقة للوفاء والمحبة . . ومن هؤلاء الأعلام :

الشيخ محمد إبراهيم الســمالوطى :ـ

وقد ذكرنا فيما سبق أن الإمام الجعفرى قد جلس إليه فى بداية عهده بالأزهر

الشريف ، فاستمع إليه وهو يدرس الحديث وعلومه وكان الشيخ السمالوطى يشرح الأحاديث بإسهاب وتفصيل ، وكان تلميذه الجعفرى يتلقاه بالفهم والرضا والقبول ، نأخذ مثالاً على ذلك ما حكاه الشيخ عن شرحه لحديث « احفظ الله يحفظك » يقول الإمام الجعفرى :-

« ومما منّ الله به علىّ أننى تلقيت هذا الحديث بشرحه عن شيخى الشيخ محمد السمالوطى بالمسجد الحسينى ، شرع يشرح فيه من بعد العصر الى قرب المغرب ، وكان ذلك فى شهر رمضان المبارك ، ومن كلامه : « احفظ الله فى أوامره يحفظك فى دينك وفى جسمك وفى مالك ، وفى ذريتك وفى زوجتك وفى أهلك وفى حياتك وفى موتك وفى قبرك وفى بعثك وفى المحشر » ومن ثقة الإمام الجعفرى فى علم شيخه السمالوطى كان عندما يستشهد بأحد الأحاديث النبوية الشريفة كان يسند هذه الرواية إلى شيخه المحدث ، فقد قال بعد أن روى قول النبى صلى الله عليه وسلم - « إن الحرم لايؤمن فاراً بدم ولا فاراً بخربة » « الخربة » هى الناقه ، وتلقيت ذلك عن فم الشيخ السمالوطى الذى قرأه فى صحيح مسلم .

وقد أشرنا أيضا إلى أن للشيخ السمالوطى يداً فى توجيه تلميذه الإمام الجعفرى إلى الصبر على ما قد يجده حوله من فتن ، وذلك عندما لقيه خارجاً من مقصورة مولانا الإمام الحسين - رضى الله تعالى عنه - فكاشفه بما يدور فى نفسه وناصحه تلك النصيحة الغالية التى أجملها فى قوله : « الولى الصادق هو الذى يمكث وسط العقارب ولا تتمكن من لدغه » .

يقول الإمام الجعفرى - رضى الله تعالى عنه - « وكانت تلك أول كلمة سمعتها من الشيخ السمالوطى ، فتعجبت من ذلك وقلت . . أيوجد فى هذا البلد مثل هذا الرجل من أرباب القلوب والكشف ثم أتركها ؟ فجلست فى درسه وأحببته وكنت أحضر درسه فى مسجد مولانا الحسين - رضى الله تعالى عنه - ولأن الأرواح جنود مجندة ، فقد تآلف الروحان واتصل قلب الجعفرى بشيخه السمالوطى الذى كان من أرباب الكشف والاتصال برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا ماكشفته لنا القصة التى ذكرها الشيخ فى أحد دروسه فقال : (١٧)

---

(١٧) درس الجمعة ١/ ٦٥ .

« وكنت أجلس فى درس الشيخ السمالوطى على يمين الكرسى الذى كان يجلس عليه ، فقلت بقلبى : هل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الشيخ كما يقول ؟ فقال الشيخ لى : نعم ياولد ، نعم ياولد ، نعم ياولد .

ولم يقتصر درس الشيخ السمالوطى ـ رحمه الله ـ على شرح الحديث النبوى الشريف ، لكنه كان يدرس علم التوحيد كما أفاد بذلك تلميذه الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ حين قال : « ولقد أعد الشيخ السمالوطى رسالة فى علم التوحيد فى تفسير قوله تعالى « لايسأل عما يفعل [١٨] » فقال فى تفسيرها : « إن الله ـ تعالى ـ حكيم ، إذا فعل فعلا كان لحكمة ، والحكيم هو الذى يفعل الأشياء محكمة ولحكمة ، فهو لايسأل لماذا فعلت كذا ؟ إنما يسأل الجاهل : لماذا فعلت كذا ؟ وقد نتج عن فعلك كذا وكذا ، أما الحق تبارك وتعالى فهو يعلم حقائق المخلوقات وعواقبها ، فإذا فعل : فعل عن علم وخبرة بعواقب الأمور ، وأما ماسواه فإنهم يفعلون وهم لايعلمون حقيقة ما يعملون ، فيقعون فى الخطأ ، ولذلك قال الله تعالى : « لايسأل عما يفعل وهم يسئلون [١٩] » .

الشيخ محمد بخيت المطيعى [٢٠] :

وقدم له الشيخ بقوله : « شيخى الشيخ محمد بخيت المطيعى ـ رحمه الله ـ عاش ١٠٣ سنه ، وظل يتردد على الجامع الأزهر ليدرس فيه حتى توفى ـ رحمه الله ـ وكان يدرس فى الرواق العباسىّ ، كان ذات مرة يقرأ الدرس فى تفسير آية الصبر وهى قوله تعالى :ـ « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب [٢١] » فأراد أن يضرب مثالا على الصبر كيف يكون ؟ فقال : كأن يسبُّ « دخيل الله » صالح ، و« صالح » يصبر .

وكان الشيخ « دخيل الله » زميل الشيخ صالح الجعفرى فى الدراسة ، وكان قد شتمه قبل حضورهما درس الشيخ ، فكان ذلك كشفا للشيخ محمد بخيت المطيعى ـ رحمه الله تعالى ـ ويبدو واضحا من كلام الإمام الجعفرى عن شيخه

---

(١٨) ـ (١٩) ٢٣ الأنبياء .

(٢٠) هو مفتى الديار المصرية ١٣٣٣ ـ ١٣٣٩ هـ .

(٢١) الزمر : ١٠ .

محمد بخيت المطيعى ـ عليه الرحمة والرضوان ـ أنه كان يدرس علم التفسير ، وعنه أخذ الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه وعن أجداده ـ علوم التفسير واقتدى به فى افتتاح درسه ، إذ كان الشيخ المطيعى يفتتح درسه بهاتين الآيتين الشريفتين : « سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا [٢٢] » الآية ، « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو [٢٣] » الآية فكان الإمام الجعفرى يفتتح درسه بافتتاح شيخه الذى حضر عليه . وقد استمر فى حضور دروس الشيخ المطيعى حتى انتقل ـ رحمه الله ـ وقد بقى علمه النافع بعد وفاته ـ شأن العلماء العارفين ـ يقول الإمام الجعفرى وهو يعدّ مناقب شيخه الشيخ المطيعى ـ عليه الرحمة والراضون ـ « وبعد وفاته ـ رحمه الله ـ ظهر أشخاص ينادون بترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية فوجد عند الشيخ ضمن كتبه رسالة سمّاها الشيخ « حجة الله على خليقته » قال فيها : ومن ترجم القرآن إلى اللغات بغير العربية فقد كفر ، لأن الله ـ تعالى يقول : « قرآناً عربياً غير ذى عوج [٢٤] » ويقول « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون [٢٥] » .

الشيخ حبيب الله الشنقيطى [٢٦] :

العالم العلامة الحافظ المجاهد فى سبيل الحق ، من بلدة شنقيط بالمغرب ، وفد إلى مصر حيث تصدر للتدريس والتأليف وهو صاحب « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم » .

ولقد كانت هناك صلة روحية قوية بين الشيخ الشنقيطى وتلميذه الشيخ صالح الجعفرى ، يحكى لنا عنها الإمام الجعفرى فيقول :ـ « شيخى حبيب الله الشنقيطى ـ رحمه الله ـ لقد شاهدت منه كرامات منها :ـ أننى ذهبت إلى بيته بجوار القلعة ناوياً بقلبى أن أستأذنه فى أن أكون مقرئاً له متن حديث البخارى ومسلم ، فلما وصلت البيت ، وجلست بغرفة الاستقبال ، وهى أول مرة أزوره بها ، جاءنى

---

(٢٢) البقرة : ٣٢ .

(٢٣) الأنعام : ٥٩ .

(٢٤) الزمر : ٢٨ .

(٢٥) يوسف : ٢ .

(٢٦) من علماء المغرب الراسخين توفى بمصر ١٣٦٣ هـ

متبسماً ، فلما سلمت عليه وقبلت يده ، قال لى : « أنت الذى ـ إن شاء الله ـ ستكون سراداً لى هذا العام » ومعنى « سراداً » : مقرئاً ، والحمد لله قد لازمته إلى الممات ، ونزلت قبره ، ولحدته بيدى » .

وواضح من كلام الإمام الجعفرى أن سعيه للقراءة أمام شيخه إنما هو للاستفادة من توجيه شيخه ، وتقويم نطقه ، وقد أذن له شيخه بقراءة الدرس ثقه به ، وقد أحفظ ذلك بعض زملائه فى درس شيخه الشنقيطى ، يقول الجعفرى :ـ

وكنت أقـرأ للإخوان الحاضرين درساً قبل حضوره بالمسجد الحسينى ، فإذا عارضنى إنسان أو شاغبنى يهمس لى فى أذنى عند جلوسه على الكرسى بقوله : « يعـاكسـونك وأنت خير منهم » كأنه كان معى ، ثم يأتى فى درسه بكل موضع حرفت فيه شيئاً ، أو ذكرته ناقصاً ، كأنه كان جالساً معى يسمع ماقلته وقد حصل ذلك منه مرات كثيرة ، وكان إذا حصل له عذر يرسل لى تلميذاً أن اقرأ الدرس نيابة عن الشيخ .

وفى يوم أرسل لى ورقة مكتوبة بخط يده فيها :ـ « قد وكلتك بقراءة الدرس » فتعجبت من ذلك : لماذا غير الشيخ عادته من المشافهة إلى المكاتبة ؟ وما أشعر إلا ومـدير المساجد قد حضر وأنا اقرأ الدرس ، فسألنى : وهل وكلك الشيخ ؟ قلت : نعم ، قال : وأين التوكيل ؟ فقدمت له الورقة المرسلة من الشيخ ، ففرح بها ، ودعا لى بخير ، فكانت هذه كرامة منه ـ رحمه الله تعالى ـ وغفر له وأسكنه فسيح الجنان ، فإنه كان يحبنى كثيراً ويقول لى . أنت بركة الدرس ، قد أجزتك بجميع إجازاتى ومؤلفاتى [٢٧] .

ولقد كان الشيخ حبيب الله الشنقيطى متنوع المعارف ، غزير العلم ، طالت صحبة الإمام الجعفرى له ، وأكثر الأخذ عنه ، والإشارة إليه فى كتبه ودروسه ، يقول وهو يصف طريقته فى التدريس ، ويشير إلى آثاره العلمية :ـ

« . . . وقد لازمته خمس عشرة سنة ، وكان يبدأ الحديث ، فيغوص فى بحر

---

(٢٧) المنتقى النفيس . . ١٧٧ ـ ١٧٨ .

التراجم وشرح الحديث ، ويأتى بتفسير آيات قرآنية ومسائل فقهية وأصولية ، وغير ذلك .

فقد كان يحفظ القرآن الكريم بالقراءات ، ومعه بذلك إجازة من بلاده ، وألف كتابا أسماه « تيسير العسير فى علوم التفسير » وله نظم فى القرآن بالقراءات السبع حللت من رموز الشيخ الشاطبى ـ رحمه الله ـ وله منظومة فى أدلة التوسل ، وكان يقول : عليك بشرحى على زاد المسلم فإننى ما تركت فيه شاذة ولا فاذة ، وكان من أقوى أسباب محبة الإمام الجعفرى لشيخه العلامة الشنقيطى ما كان عليه من صلاح وتقوى وحب للصالحين ، يقول عنه : وكان له حب عظيم لمولانا الشريف السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ ولذريته ، ومن محبة الجعفرى لشيخه أنه حرص على نشر تراثه ، فقد قام بطبع أحد مؤلفاته فى إثبات حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قبره يقول [٢٨] :

قال ابن حجر الهيثمى ـ رحمه الله :ـ

تواترت الأدلة والنقول * فما يحصى المصنف ما يقول
بأن المصطفى حيّ طرى * كبدر التم ليس له أفول
ولم تأكل له الغبراء جسماً * ولا لحماً وأثبت ما أقول

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة شرحها شيخنا المحدث الشيخ حبيب الله الشنقيطى رحمه الله ، وقد طبعتها مع شرحها فى رسالة مخصوصة سميتها « دافعة الشقاق » وقد أكرمه الله تعالى بالاتصال برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، روى ذلك عنه تلميذه الإمام الجعفرى ـ فى ختام ما رواه عنه يقول :

« لقد سمعت منه رحمة الله أعجوبة ذكرها فى أثناء درسه بالمسجد الحسينى فى شهر رمضان قال : « كنت معتكفاً بالمسجد النبوى فى العشر الأواخر من رمضان فخطر بقلبى مامنّ الله تعالى به على سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه من تسليمه ومصافحته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فدنوت من المقصورة النبوية وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنشدته البيتين الذين

---

(٢٨) المنتقى النفيس ص ١٨٢ .

أنشدهما سيدى أحمد الرفاعى فمدّ لى صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة فقبلتها » . أ هـ وهذه القصة ماسمعتها منه إلا فى العام الذى قبض فيه [٢٩] . ويروحه الشفافة الراقية كان يتصل بالسلف الصالح رضى الله تعالى عنهم ، فقد حكى عنه تلميذه الإمام الجعفرى رضى الله تعالى عنه أنه قال :-

« رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى النوم فقلت له يا أمير المؤمنين ، أنت موجود والحال هكذا فقال لى بصوت عال فيه أثر الغضب دعك من أصحاب هذا الزمن فإن الله تعالى لا يعبأ بهم ، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ، ماذا أفعل » [٣٠] .

ومن لطائف استنباطه من المعارف ما نقله عنه الإمام الجعفرى بقوله : إن لله تعالى مكراً يمكر به بإبليس فيسلطه فيجعله مسلطاً على الصالحين ، فإذا استجابوا له ثم تابوا وندموا ندماً شديداً رفعهم الله بذلك درجة فيغضب إبليس ويتحسر على ذلك [٣١] .

وقد توفى العلامة حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى شهر صفر ١٣٦٣ هـ . وقد شهد الإمام الجعفرى رضى الله عنه وفاته ، ودخل قبره ، ولحده بيده الشريفة .

العلامة يوسف الدجوى :

هو العلامة المحقق المحدث المفسر يوسف بن أحمد بن نصر الدجوى ، عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف العالم العارف الصالح ، يروى لنا تلميذه الإمام الجعفرى رضى الله تعالى عنه قصته معه فيقول :

« وقد لازمت درسه بعد صلاة الصبح بالجامع الأزهر الشريف بالرواق العباسى سبع سنين ، وكان السيد الحسن الإدريسى إذا جاء من السودان يلقانى فى درسه ، وبعد الدرس يسلم على الشيخ فيفرح فرحاً عظيماً ، ويقول السيد أحمد بن إدريس قطب لا كالأقطاب ، وكان الشيخ الدجوى قد أخذ الطريقة الإدريسية عن شيخى

---

(٢٩) المنتقى النفيس من ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣٠) درس الجمعة ٢/ ٥٢ .

(٣١) درس الجمعة ٢/ ١٨٠ .

السيد محمد الشريف رضى الله عنه ، والشيخ الدجوى من هيئة كبار علماء الأزهر ، وله مؤلفات نافعة ، ومقالات قيمة فى مجلة الأزهر الشريف ، ولما نظمت المنظومة المسماة : البردة الحسنية الحسينية ، أهديت إليه نسخه » .

وقد حضرت عليه التفسير من سورة « محمد » صلى الله عليه وآله وسلم . إلى آخر سورة « الناس » . ثم ابتدأ شرح البخارى بعده ، وكان يحفظ القرآن العظيم بالتجويد والقراءات ، ويذكر أقوال المفسرين . ويعرب الآية إعراباً دقيقاً ، ويبين الألفاظ اللغوية فيها ، ويتعرض للأحكام الفقهية على المذاهب ، وكان يقرأ الحديث بالسند ، ويترجم لرجاله ترجمة طريفة ، ويذكر أقوالاً كثيرة عن شراح الحديث . وكان له الباع الطويل فى مسائل التصوف ، والانتصار للصوفية وله أبحاث كثيرة قيمه فى أدلة التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكر أكثرها فى مجلة الأزهر المسماه فى ذلك الوقت « نور الإسلام » فعليك بهذه المجلة لأجل أقوال هذا الشيخ فإنها نافعه . وكان رحمه الله مرة يقرأ حديث سؤال القبر فى البخارى ، وكنت قد ذاكرت شرح الكرمانى على البخارى ، ورأيت فيه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ يظهر للمسئول عند قول الملك له : « ما تقول فى هذا الرجل » ؟ وبعد انتهاء الدرس قبلت يده ، وقلت له : يقول الشيخ الكرمانى : إنه صلى الله عليه وآله وسلم يظهر للمسئول ، فوكزنى فى صدرى وقال لى : أنا ذاكرت شرح الكرمانى ، واطلعت فيه على هذه المسئله ، لما لم تذكرنى فى الدرس حتى يسمعها منى الناس ؟ .

وكان مرة يتكلم عن رؤية النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ مناماً فقال : إن الشيطان لايتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا جاء فى صورته الأصليه والمعتمد أنه ـ أيضاً ـ لايتمثل به فى غير صورته الأصلية ، فقلت له : روى شيخنا السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه فى كتابه المسمى « روح السنه » أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : من رآنى فقد رآنى فإنى أظهر فى كل صورة ففرح فرحاً عظيماً ، وقال لى :ـ هذا الحديث هو الدليل على أن الشيطان لايتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم . ولو جاء فى غير صورته الأصليه ، أنت مبارك ياشيخ صالح ، نفع الله بك المسلمين » [٣٢] .

---

(٣٢) الذخيرة المعجلة ص ٢٧ ـ ٢٩ .

وقد أنشدنا الشيخ الدجوى بدرس التفسير بالجامع الأزهر عام ١٣٦٠ هـ :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى * وأبحث جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس * وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى (٣٣)

وقد توفى العلامة الشيخ يوسف الدجوى ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة ـ فى ٥ صفر سنة ١٣٦٥ هـ عن ثمان وسبعين سنة ، أى بعد وفاة الشيخ حبيب الله الشنقيطى بسنتين .

الشيخ على الشائب :

يقول الإمام الجعفرى فى بيان أحوال شيخه معه : فى أول عام حضرت فيه الشيخ على الشائب ـ رحمه الله ـ وكان يدرسها [أى منظومة الشيخ اللقانى المسماة : جوهرة المريد فى علم التوحيد] فقد كان هذا الكلام فى سياق الحديث عن حفظ الشيخ لها غيباً ، متناً وشرحاً ، وكان من العلماء الصالحين .

وكان إذا دخل قبة سيدنا الحسين ـ رضى الله عنه ـ لايتكلم مع أحد أبداً ، ويحصل له حال خشوع عجيب ، كأنه يشاهده وينزل عليه عرق كثير ، وكنت أدرس عليه أيضاً شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك ، وفى ليلة من الليالى رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النوم وكان يحدثنى فى مسألة علمية أخطأت فيها ، فغضب صلى الله عليه وآله وسلم وقال لى : « ياولد » وذلك من ضمن كلام يطول ، فلما أصبحت وحضرت فى الدرس قلت فى نفسى وأنا جالس : يقول لى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياولد فهل أنا صغير ؟ فالتفت الى الشيخ وهو يدرس وقال : إنما قلنا لك ياولد كعادة العرب لا لأنك صغير .

ومرة رأيت وجهه صار فى صورة عجيبة ، وبلحية طويلة ، ثم تحوّل إلى وجه آخر ، فقلت فى نفسى ، ماهذا ؟ رد الشيخ علىّ وهو يدرس : هذا الوجه الذى رأيته هو وجه سيدنا الحسين ـ رضى الله عنه ـ والثانى وجه الإمام الليث ـ رضى الله

---

(٣٣) المنتقى النفيس ص ١٢٥ .

عنه ـ ثم رجع إلى درسه ، إلى المكان الذى كان يقرأ فيه ، وأمثال هذا الشيخ عند الصوفية يسمّون أرباب القلوب ، ولعلهم يكونون المحدَّثين الذين منهم سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ كما فى حديث البخارى [٣٥] .

الشـــيخ عبد الرحمن عليش :

وكان من أوائل العلماء الذين لقيهم الإمام الجعفرى عند دخوله ساحة الأزهر الشريف قادماً من السودان ، يقول عنه :ـ

« أول ما حضرت من بلادى وجدت الشيخ عليش يدرس فى الأزهر وقد علمنى فوائد لأخبر بها الناس ، جزاه الله خير الجزاء » .

ويقول عنه أيضـــا :ـ

« شيخنـا الشيخ عليش كان يقـول لى : ياصـالح إياك والغيب ، الغيب من صفات الله ، لا تتهجم على الغيب ؛ لأن الله تعالى ـ يغار على غيبه » .

الشـــيخ محمود الغنيمـــى :

قال الإمام الجعفرى عنه :ـ « كنت أحضر درس الشيخ الغنيمى ، وكنت أسأله كثيراً ، فكان إخوانى الطلاب يدفعوننى من ظهرى ، فكان الشيخ الغنيمى يقول لى : عليك أن تتحمـل الضـرب ، وتسـأل ، وعلينا أن نجيب » . وكان الشيخ الغنيمى ـ رحمه الله ـ يدرس الحديث ، ويشرح صحيح البخارى للطلاب وكان يتخـذ مجلسـه فى الـدرس فى الجـامـع الأزهر الشريف ، وقد نقل عنه الإمام الجعفرى فى معرض حديثه عن « وصول ثواب قراءة القرآن إلى الميت » فقال : « وقد ألهمنى الله تعالى ـ منذ ثلاثين سنة وأنا أقرأ فى البخارى حينما درسته على الشيخ محمـود الغنيمى ـ رحمه الله ـ بعد صلاة الصبح بالقبلة القديمة بالجامع الأزهـر ، ترجم البخارى بقوله (باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة) ، وقال الحسن : يقرأ على الطفل فاتحة الكتاب . . إلى آخر ما ذكره الشيخ .

---

(٣٥) فتح وفيض ص ٢٢ .

الشـــيخ حســـن مدكور :

وفـد كان الإمـام الجعفـرى يجلس فى حلقتـه التى كان يدرس فيهـا الفقـه المالكى ، يقول : بعد أن ذكر قول الشاعر :

كل يوم تبـدى صروف الـليالى * خلقـاً من أبـى سعـيد غريبـاً

قال الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ هذا البيت كان يتمثل به كثيراً شيخنا الشيخ حسن مدكور المالكى ـ رحمه الله ـ درسنا عليه كتاب : (الشرح الصغير) للشيخ الدردير ـ رضى الله عنه ـ ثلاث سنين بالجامع الأزهر الشريف [٣٩] .

وبعـــد : فإن هؤلاء الأعلام الذين ذكرنا جانباً من سيرتهم ، وأشرنا إلى علاقة الإمام الجعفرى بهم ، لم يكونوا وحدهم الذين جلس الشيخ صالح فى حلقات دروسهم ، بل كانوا أشهر من اتصل بهم ونقل عنهم .

وقد ذكر الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ أسماء مشايخه جملة واحدة فى أحد كتبه [٤٠] ، فذكر فيما يلى أسماءهم :ـ

قال رضى الله عنـه :ـ « ومن مشايخى الذين أدركتهم ممن جمعوا بين العلم والتصوف : شيخى العارف بالله تعالى :ـ

السيد محمد الشريف بن السيد عبد العالى بن السيد أحمد بن إدريس ، رضى الله تعالى عنهم ـ والشيخ محمد ابراهيم السمالوطى ، والشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ على الشـائب ، والشيخ حسن مدكـور ، والشيخ عبد الرحمن عليش ، والشيخ محمـد أبو القاسم الحجازى ، والسيد عبد الحى الكتانى ، والشيخ أبو الخير المدنى شيخ علماء سوريا ، والسيد أحمد الشريف الغمارى ، والسيد عبد الله الشـريف الغمارى ، والشيخ على أدهم المالكى السودانى ، والشيخ حسن مشـاط من علمـاء مكة المكرمة ، والشيخ محمد الحلبى ، والسيد عبد الخالق الشبـراوى ، والشيخ محمـد عطية البقلى ، والشيخ مصطفى صفوت ، والشيخ

---

(٣٩) فتح وفيض ص ١٢٤ .

(٤٠) المعانى الرقيقة ص ١١١ ـ ١١٢ .

محمد حسنين مخلوف العدوى ، والشيخ محمد العنانى شيخ السادة المالكية . والشيخ عبد الحليم إبراهيم ، والشيخ أبو يوسف ، والشيخ أحمد وديدى من بلدة رومى بالسودان ، والشيخ على محمد جوى إمام وخطيب مسجد دنقلا ، والشيخ سيد حسن أفندى ، والشيخ على بن عوف ، والشيخ أحمد النجار المدرسان بمسجد دنقلا ـ رحمهم الله تعالى أجمعين ـ وغيرهم من مشايخ الأزهر الشريف .

ومن مشايخى الصالحين الشيخ عبد الله عثمان التنبكتى ـ رحمه الله تعالى ـ .

صلة الجعفرى بعلماء الأزهر فى البرازخ :

من محبة الإمام الجعفرى للأزهر وتقديره لكل من انتسب إليه ، كان متتبعاً لأخبار العلماء السابقين عليه ، بل إنه كان متصلاً اتصالاً روحياً بواحد من كبار أعلام الأزهر المنتقلين قبله ، وهو الشيخ / سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر :

فقد كان يتمثل بمقالته كثيراً : « أنا شيخ الأزهر حياً وميتاً » وقد تسامى الاتصال الروحىّ بينهما فنتج عنه هذا اللقاء :ـ

قال الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه [٤١] :ـ وقد سمعت فى عالم البرزخ عن الشيخ سليم البشرى ـ رحمه الله ـ هذا الحديث :ـ

« إن لله ملائكة يبلغونى عن أمتى الصلاة والسلام » .

قلت : وهذا الحديث فى الجامع الصغير .

ولقد كان مولانا الإمام الجعفرى كثير الإشارة إلى مناقب أعلام الأزهر السابقين ، وتذكير الناس بمكارم أخلاقهم ، فقد روى عن الشيخ سليم البشرى أنه اشترى يوماً قفطاناً جديداً ، فجاءه عالم ليزوره ، فأدرك الشيخ أن ذلك الرجل ليس عنده ثياب جديدة يرتديها فى العيد ، فأعطاه قفطانه الجديد ، ومعه جبة وعمامة ، فتمنع الرجل ، وقال له : هذا قفطانك يامولانا ، كيف آخذه منك وأنت لم تلبسه ؟ فأبى الشيخ سليم البشرى إلا أن يعطيه له ، وقال لأولاده : لو كان هذا القفطان من نصيبى أنا ماحضر هذا الرجل فى مثل هذه الساعة ، إنما هو له !

---

(٤١) المنتقى النفيس ص ١٦٦ .

وكانت عند الشيخ سليم البشرى طلمبة مياه فى بيته ، فجاء رجل ليشرب منها ، فنادى الشيخ وأمر له بطعام ولحم ، فقال الرجل : لا أريد طعاماً ، بل أريد مالاً ، وكان يجلس عند الشيخ سليم : الشيخ السمالوطى ـ وكان عديله ـ فغضب من رفض الرجل للطعام ، ولكن الشيخ سليم ـ رضى الله عنه ـ قال له :ـ يامحمد أترضى أن يقال : إن سائلاً وقف بباب شيخ الأزهر فطرده ؟ ثم أعطى الرجل مالاً ، وأطعمه الطعام ، وهو يقول له : كل ، فهذا بيت شيخ الأزهر !

ثم جاء له جماعة من أهل السودان ، فرحب بهم قائلا :ـ أهلاً وسهلاً يا أهل السودان الطيبين ! ثم أفطروا معه بعد المغرب ، وسمعوا القرآن ، إلى أن تسحروا قبيل الفجر .

ويروى الإمام الجعفرى للحاضرين فى درسه قصة الشيخ :ـ حسن العدوى الحمزاوى ، وارتحاله من بلده إلى الأزهر ، فيقول عنه : « بعد أن حفظ القرآن الكريم ، صحبه طلبة العلم معهم من بلده إلى الأزهر ، ولم يكن معه شىء من المال ، فأصابه جوع شديد واشتد به الهم ، فسمع رجلاً ينادى : ياأهل الكرم ، فقال له : أين هم أهل الكرم الذين تناديهم ؟ فأخذه الرجل من يده ، وذهب به إلى قبة مولانا الحسين ليلاً ، فوجد من يقدم له خبزاً وطعاماً ، واستمر على هذا الحال ، إلى أن أتم دراسته وحصل على الشهادة من الأزهر .

وفجأة حدثت فتنة بين علماء الأزهر بعضهم قال : إن رأس مولانا الحسين هنا فى مصر ، وبعضهم قال : لا ، وكان الشيخ الحمزاوى من القائلين بوجود الرأس فى مصر ، فرأى مولانا الحسين فى الرؤيا يقول له : كيف تقول : إن الموجود هنا رأسى ؟ هل كنت تأخذ نصيبك من الخبز واللحم من الرأس بدون الجسد ؟ فلما أصبح الصباح ذهب الشيخ الحمزاوى ووقف بين علماء الأزهر فى المسجد الحسينى وقال : والله ، والله ، والله : إن سيدنا الحسين هنا برأسه وجسده وروحه ، ومن يومها صار الشيخ الحمزاوى يكتب عن نفسه : خادم الأعتاب الحسينية ، ثم تفجرت العلوم اللدنية فى قلبه حتى صار شيخ السادة المالكية ، وكان الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى من أقرب تلاميذه إليه . ثم يلفت الإمام

الجعفرى الأنظار إلى ما كان عليه علماء الأزهر فى ذلك العصر الزاهر فيقول [٤٢] :

ولقد كان مشايخ الأزهر أصحاب محبة وعقيدة ، وكانت زيارة الإمام الشافعىّ يوم الجمعة عادة حميدة كانوا حريصين عليها .

مع الشيخ على الصعيدى العدوى :

يروى أن الشيخ على الصعيدى كان يقول لتلميذه الدردير ـ رضى الله عنه ـ يقولون : إنك ترى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيراً ، فإذا رأيته فاسأله عن حالى ، ففعل فرأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : إنه رجل صالح ، غير أنه به جفوة ، فلما سمع الشيخ الصعيدى ذلك الكلام بكى كثيراً ، فسأله تلميذه الدردير : ما يبكيك ؟ قال : يعاتبنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على تقصيرى فى زيارته ، وقد تقدمت بى السنّ ولا أستطيع تحمل مشقة السفر ، فإذا رأيته مرة أخرى فأخبره بذلك ، ففعل ، فرأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : قل له ـ أى للشيخ الصعيدى « أنا عند الإمام الشافعى كل يوم جمعة من بعد صلاة العصر إلى الفجر ، فليأتنى هناك » فذهب الشيخ على الصعيدى العدوى إلى علماء الأزهر ، وأخبرهم بذلك ، وأصبحت عادة عندهم أن يزوروا الإمام الشافعى كل يوم جمعة فوج يتبعه فوج ، من العصر إلى الفجر فى ذلك العصر الزاهر وقت أن كان العلماء علماء ، والطلبة طلبة حقاً .

مع الشيخ محمد عبده :

اهتم كذلك الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ بأخبار الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله تعالى ـ وكان ينقل فى دروسه كثيراً من نوادره ويناقش بعض المواقف التى كان للشيخ محمد عبده رأيه الذى لم يوافق فيه أهل التصوف ـ كالزيارة وغيرها ـ ومع ذلك الاختلاف فى الرأى ، فإن الإمام الجعفرى كان يحترم عقلية الشيخ محمد عبده ، ويعجب بإجتهاده فى الدفاع عن مبادىء الإسلام أمام غزوات بعض المستشرقين ومجادلات بعض الفرنجة الذين لقيهم فى أثناء إقامته بباريس فى فرنسا [٤٣] .

---

(٤٢) درس الجمعة جـ ٢ ص ٥٢ .

(٤٣) انظر درس الجمعة جـ ١ ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

مع الشـــيخ محمـــد عليـش :

ومن علماء الأزهر السابقين الذين كان للإمام الجعفرى حال معهم :

الشيخ محمـد عليش شيخ السـادة المالكية ـ فى وقته ـ وقد اتصل به الإمام الجعفرى اتصالاً روحياً ، وقام بنقل رسالته التى صنفها فى علم التوحيد ، وقد ذكر الإمام الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ بعض ما كان بينه وبين الشيخ محمد عليش من أسرار فقال (٤٤) :

« وقد استخرت الله ـ تعالى ـ فى نقل الرسالة التى تسمى : « تقريب العقائد السنيه بالأدلة القرآنية » لفضيلة الشيخ محمد عليش شيخ السادة المالكية بالجامع الأزهر الشريف ـ رحمه الله تعالى ـ لكونها رسالة مختصرة فى علم التوحيد ، وقد أقام الأدلة على كل ما ذكره من الآيات القرآنية .

وحينما جئت الأزهر استقبلنى مناماً وأرشدنى إلى ما فيه الفتوح ـ والحمد لله ـ وقد حصل لى من فتح الله تعالى ما أشكر الله تعالى عليه على الدوام ، فلذلك أحبه كثيراً وأشكره بصالح الدعاء له .

وإن بعض الإخوان يقولون : قد حصل بينه وبين الشيخ ابن السنوسى ـ رضى الله عنه ـ شىء بسبب وشاية الواشين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وكان فى نفسى شىء من ذلك الذى حصل ، وكنت محتاراً فى الأمر ، حتى قابلنى رجل بليبيا بمدينة طرابلس ، وأخبرنى بأن عنده الرسالة التى أرسلها الشيخ محمد عليش ـ رحمه الله ـ إلى الشيخ سيدى ابن السنوسى ـ رضى الله عنه ـ يعتذر له فيها ، ويخبره بأنه بلغه شىء فغضب من أجله ، ولما تبين له الحق استسمح الأستاذ الشيخ سيدى ابن السنوسى ـ رضى الله عنه ـ وعندما سمعت ذلك فرح قلبى كثيراً ، لأن هذا الخبر وافق ما فى قلبى ، لأنَّ بينى وبين الشيخ محمد عليش سراً لا يعلمه إلا الله ـ وأنا اكتب هذه الكلمات حضر بجوارى رجل ليبى أهل علم وقرآن وقال لى : بلغنى أن الشيخ عليش ـ رحمه الله ـ ألف رسالة يثنى على سيدى الشيخ ابن السنوسى ـ رضى الله عنه ـ وأقر فيها بعلمه وفضله ، وفى عزمى ـ إن شاء الله ـ

---

(٤٤) فتح وفيض ص ٣٤ ـ ٣٥ .

البحث عنها حتى تطبع ويقرؤها الناس جميعاً ، وهذه الرسالة التوحيدية التى جمعها الشيخ عليش - رحمه الله .

ثم نقلها الإمام الجعفرى كاملة ، وأتبعها منظومة نظمها الإمام الجعفرى فى علم التوحيد (٤٥) .

وكذلك كان الإمام الجعفرى يحكى لتلاميذه ومريديه أخبار الشيخ محمد عليش مع الخديوى توفيق عندما طلب منه أن يصدر فتوى لا توافق الشرع ، فأبى الشيخ عليش أن يفعل ذلك ، مما أدى إلى سجنه ثم وفاته فى السجن - رحمه الله - شهيداً فى سبيل الحق والعلم .

مع الشـــيخ الدرديـــر :

أما عن محبته للعلامة العالم العارف بالله - تعالى - سيدى أحمد الدردير رضى الله تعالى عنه - فقد فاقت وزادت ، فما أكثر ما نقل عنه الإمام الجعفرى من علومه ومعارفه ، وكم من مرة استشهد فيها بمنظوماته (٤٦) فى التوحيد والتوسل بأسماء الله الحسنى (٤٧) وكان يثنى عليه وعلى علومه ويرشد تلاميذه إلى مناقبه وأثاره ، وكان يصفه بقوله :

« أبو البركات الدردير : من سلاطين علماء الأزهر وأساطينه ، كوكب من كواكب العلماء ، ونجم زاهر ، قال فى الخريدة :

واعـــلم بأن الـتـــأثير ليس إلا * للواحـــد الـمختـــار جلّ وعـــلا (٤٨)

وكان الامام الجعفرى يزور الإمام العارف سيدى أحمد الدردير كثيراً ، وكان يوصى أبناءه من محبين ومريدين بزيارته ، وقد مدحه فى احدى قصائده فقال : (٤٩) .

---

(٤٥) انظر فتح وفيض من ص ٣٦ - ٦٢ .
(٤٦) درس الجمعة ٢/ ١٤٥ .
(٤٧) درس الجمعة ٢/ ١٠١ .
(٤٨) درس الجمعة ٢/ ٤١ .
(٤٩) الديوان . ٩/ ٦٢ .

يا أحمد الدردير جئتك قاصداً * أرجو رضاك وربنا لك أحمد
مستشفعاً متوسلاً بك سيدى * لله فى أمر أريد وأقصد
فبجاه أحمد لا أرَدُّ بخيبة * لما أتيتك زائراً يا أحمد
أرجو الكريم كرامة وصيانة * ومودة ترضى وعلماً يرشد
والنصر والتوفيق والنور الذى * يهدى الفؤاد بنوره ويودد

« البـــــاب الثانى »

« مَنْهج الإمام الجعفـــرىّ العلمىّ »

تمهيـــد فى فَضْل العِلْم ومنزلة العلماء :ـ

إنّ غاية التصوف وثمرته معرفة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ولا تتحقق المعرفة بغير العلم ، وإذا كان التصوف يُسمَّى طريقاً فإن السالك فيه لايستطيع أن يصل إلى غايته ، ولا يأمن من الضلال فى دروبه ومسالكه بغير دليل ومرشد ، وبغير الأنوار التى تُبدِّد الظلمات من أمامه ، وتلك السبل كلها يتوصل إليها بالعلم .

وإذا كان العلم ـ كاصطلاح ـ هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل . فإنه عند أهل التصوف : النور الذى يخرجهم من ظلمات المعاصى ، ويحررهم من أغلال المادة ، فهو سفينتهم التى يجتازون بها بحار المعرفة ، حتى يصلوا إلى شاطىء الحقيقة .

ولقد عرفنا ـ مما سبق ـ أن الإمام الجعفرىّ قد ارتاد رياض العلم مُذْ كان صَبِيًّا يَلْهُو أقرانه ويلعبون ، فقد نشأ ـ رضى الله عنه ـ فى بيئة علم ودين ـ ولمَّا كان التصوف هو طريقه ومنهج حياته نظر الإمام الجعفرى إلى طلب العلم نظرة صوفية خالصة ، فقد طلبه فى صغره ليكون وسيلته وطريقته إلى حضرة ربه ومولاه ، واتخذه زاداً ليعينه على استواء غرس شريعته ، لتطيب ثمار حقيقته ، ومن أجل ذلك يقول فى قصيدته المُسمَّاة « الوصيَّة الجعفريَّة » :ـ

طَلَبْتُ ٱلْعِلْمَ فِى صِغَرِى لِرَبِّى * فَسِرْتُ بِهِ فَأَدْرَكَنِى النَّبِىُّ [1]

فالعلم عند القوم : عبادة ومنهج وسلوك .

ولقد قرأنا معاً ـ فيما سبق تلك النصيحة الغالية التى أسداها سيدى عبد العالى ابن السيد أحمد بن إدريس إلى تلميذه الإمام الجعفرىّ رضى الله عنهم أجمعين ـ عندما رآه فى النوم يقول له :

---

(١) ديوان الجعفرىّ : ٧/ ١٤٣ .

« العلم يؤخذ من صدور الرجال لامن الكُتُب » فصحَّ العزم من الشيخ صالح على العمل بتلك النصيحة ، فشدَّ الرحال إلى مصر بلد الأزهر الشريف ، ليأخذ العلم غَضًّا طَرِيًّا من صدور الرجال ، وقد وعى توجيه شيخه « سيدى عبد العالى » ، وصار يرشد به طُلَّابه فى كلّ وقت ، يقول :-

« والعلم لا يُدْرَكُ إلَّا بالتلقِّى عن المشايخ زمناً طويلاً ، كما قال الإمام الشافعىّ رضى الله عنه :-

أَخِى لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إلَّا بِسِتَّةٍ * سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيانِ
ذِكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ و بُلْغَةٌ * وصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وطُولُ زَمَانِ [٢]

وقد دخل الإمام الجعفرىّ الطريق من باب العلم ، وسار فيه بالعلم ، فقد جذبه العلم إلى الطريق الأحمدىّ الذى مهَّده وسوَّاه السيد أحمد بن إدريس ، وأرْسَى قواعده على العلم ، يحدثنا عن ذلك الإمام الجعفرىّ - رضى الله عنه - فيقول :-

« وقد كان شيخنا السيد أحمد بن إدريس - رضى الله عنه - طالباً للعلم من صغره بعد أن حفظ القرآن ، وكان يسافر إلى العلماء ، ويتغرَّب من أجل طلب العلم ، فلمَّا أراد الله أن يظهره أظهره بالعلم فى عهد العلماء الأكابر » [٣] .

ومن الثابت لدى علماء التصوُّف أن التصوُّف - عِلْمًا وطريقة - له ركنان : الشريعة والحقيقة ، وهما متلازمان تلازم الروح والجسد ، لاتتحقق الحياة إلا بهما معاً ، ومرتبطان ارتباط الظلّ بأصله ، لايتصور وجود أحدهما بغير وجود الآخر ، فلا يعقل أن يَدَّعِى أحدٌ الوصول إلى الحقيقة بدون أن يعلم ويفقه أسرار الشريعة ، وأيضاً فإنَّ مَنْ يظنّ أنه ليس فى حاجة إلى علوم الحقيقة مادام قد تفقَّه وتشرَّع - فإن وقوفه عند حدّ الشريعة وحدها يحرمه من جنى ثمارها ، ويكون كمَنْ سار فى طريق ليس له نهاية أو أطلق سَهْمًا من كنانته لم يحدِّد له غاية ، وقد أشار الإمام الجعفرىّ رضى الله عنه - إلى ذلك بقوله :-

« بحر شريعتك لولاه ماكانت حقيقتك ، وبحر حقيقتك لولاه ما تَمَّتْ

---

(٢) فتح وفيض : ص ١١ وما بعدها .
(٣) فتح وفيض : ص ١٢ - ١٣ .

شريعتك ، قال أبو عبد الله الإمام مالك بن أنس ـ رضى الله عنه :
« مَنْ تصوَّف ولم يتفقَّهْ فقد تزندق ، ومَنْ تفقَّه ولم يتصوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّق ، ومَنْ جمع بينهما فقد تحقَّق »[٤] .

وليس النـاس سواء فى طلب العلم ، فمنهم مَنْ يطلب العلم لغرض أو نَفْع دنيوىّ ، ومنهم مَنْ يطلبه ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وقصدًا لنَفْع المسلمين وتعليمهم مع العمل بمقتضى العلم ، وانتفاع العالم به فى نفسه قبل تعليمه لغيره ، وذلك الصِّنْف من العلمـاء ينال رضا الله سبحانه وتعالى ، ويفيض العلم اللَّدنىّ على قلبه ، قال الله تعالى : (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)[٥] .

وقد قال المصطفى ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ
« مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مالم يَعْلَمْ »[٦] .

وقد استنبط الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ من الآية والحديث هذه الفائدة :ـ
« والعلم عِلْمَان : كَسْبِىٌّ ، ووراثىّ قال عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ عَمِل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » . . . فالكسبىُّ يؤخذ من صدور الرجال كما قال لى سيدى عبد العالى ـ رضى عنه ـ قبل مجيىء إلى الأزهر « العلم يؤخذ من صدور الرجال لامن الكُتُب » ، والْوَهْبِىُّ : هو ما يفيض على قلب العالم العارف ، وهو درجات . . وبحسب الدَّرجَات تتنزل الفيوضات . . »[٧] .

وإن صحبـة الشيخ العالم العارف والنظر إليه ، والأخذ عنه مشافهة فيه فوائد جليلة لاينالها قارىء الكتب ، فإن الأول ينظر أحوال شيخه ، ويقتدى بما يراه فيه من مكارم الأخلاق ، وينقل عنه العلم بالسَّنَد والرواية ، ويتعلم منه قواعد التجويد وأحكام التلاوة ، ويستفيد منه كيفية إلقاء الدروس ، ومخاطبة الناس .

كما أن الشيخ يقوم بتقويم سلوك تلميذه ، وإرشاده إلى الصَّوَاب ، وإبعاده عن

---

(٤) الإلهام النافع : ص ٤٣ ـ ٤٤ .
(٥) الكهف : الآية ٦٥ .
(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية
(٧) ينظر الإلهام النافع : ص ٥٢ ـ ٥٣ .

الانحراف والضلال ، ولقد كانت الصُّحْبة هى أهم قواعد مدرسة الجعفرىّ العلمية ، سار عليها فى حياته ، وجعلها من علامات طريقه ـ يقول فى إحدى منظوماته :ـ

يَصْحَبُ شَيْخَ الْعِلْم والكِتَاب * لِيَهْتَدِى به إِلَى الصَّوَاب
فَلَيْسَ بَعْدَ الْعِلْم مِنْ هِدَايَهْ * وَعَمَلٌ بِهِ هُوَ الْوِلاَيَهْ (٨)

وقد هيأ الله تعالى لشيخنا الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ شيوخاً علماء عارفين عاملين ، تقدَّمَ الحديث عنهم وعن أحوالهم وصفاتهم ، وقد لزمهم ـ رضى الله عنه ـ واقتدى بهم فى أقوالهم وأفعالهم ، واستفاد من عُلُومهم ومعارفهم ، وسار فى طريق العلم حتى وصل إلى درجة التأليف والتحقيق ، والتدريس والإفتاء ، فظهرت للناس أنوار العلم بنوعيْه ـ الكسبىّ ، والوهبىّ ـ متمثلة فى دروسه العامرة ، ومؤلفاته المكسوَّة بالجلال ، المتوجة بالقبول ؛ لكونها صادرة عن عالم عامل ، وولىّ عارف . ومن أبرز معالم مدرسة الجعفرىّ العلمية : تمكنه من مختلف العلوم ، وتبحره فى سائر الفنون ، فلم يقف عند علم دون آخر ، ولكنه طوَّف فى رياض العلوم العربية والإسلامية ، وسار يقطف من أزاهيرها ، ويجتنى من ثمارها .

وسنعرض فيما يأتى لسائر فصول المدرسة الجعفرية ، مُشِيرين إلى أهم معالمها حتى يقف القارىء على شىء من ملامح مدرسة الجعفرىّ العلمية :

---

(٨) نفس المصدر : ص ٦٥ .

الفصـــــل الأول

« منزلة الإمام الجعفرىّ فى علم التفســـير »

إنَّ علم التفسير كان ـ ولايزال ـ من أجمع علوم العرب ، وأعمها نفعاً وأشرفها مقصداً ؛ لأنه العلم الذى يُعْرَفُ به تأويل القرآن ، ومعرفة أحكامه ، وأسباب نزوله ومقاصده ، وغريبه ، وناسخه ومنسوخه ، وغير ذلك .

وقـد نال الإمـام الجعفرىّ حَظّاً وَافِرًا من أسرار علم التفسير ـ دراسة وتدريساً وتأليفاً ـ فقد أكرمه الله تعالى بنخبة من أعلام الأزهر فى مجال التفسير ، ومن هؤلاء :ـ

الشيخ يوسف الـدجـوى ، والشيخ الشبراوى ، والشيخ على الشائب ، . . . وغيرهم ، كما أنه طالع فى كثير من كتب التفسير ، ونقل عنها ، وأشار إليها فى كثير من مؤلفاته ، ومن هذه التفاسير :

تفسير الإمـام القـرطبى [٩] ، والعـلامـة فخـر الـدين الـرَّازى [١٠] ، وتفسير الخازن [١١] ، والبيضاوى [١٢] ، وحاشية الصَّاوى على الجلالين [١٣] ، وتفسير الألوسى [١٤] .

ولم يكن يكتفى بالنقل فقط ، ولكنه كان يشرح ويستنبط ، ويُنَاقِش ، ويُصَنِّف من علومـه ، ومعـارفه الشىء الكثير مع ابتعاده عن الإغراب ، وميله إلى سهولة الألفاظ ، ومخاطبة العقول قبل الأسماع ، نأخذ مثالاً على ذلك :

---

(٩) المعانى الرقيقة : ص ٢٢ .
(١٠) المعانى الرقيقة : ص ١٠٤ .
(١١) فتح وفيض : ص ٢١٩ .
(١٢) المنتقى النفيس : ص ١٦١ .
(١٣) درس الجمعة ٢/ ٥٨
(١٤) المعانى الرقيقة : ص ٧ .

قول الإمام الجعفرىّ رضى الله عنه :ـ

« قال القرطبى ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (١٥) .

الغيب : ماغاب عنا ، قال الشاعر :

وبـالغيب آمنـا وقـد كانـا قومنـا * يُصَلُّون لِلأَوْثَـانِ قَبْـل مُحَمَّـدِ . أ هـ

نعم الغيب : هو ما غاب عنا ، وينقسم إلى قسمين :ـ

غَيْب حقيقى ، وهو الذى لا يعلمه إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويدخل فيه الحقّ سبحانه وتعالى .

والثانى : غيبٌ إضافىٌ وهو الذى يكون لبعض الخلق شهادة ، وللبعض الآخر غيباً ، فما وراء السماء الدنيا غيب بالنسبة لنا ، شهادة بالنسبة لِسُكَّانها ، والكعبة غيب لمن كان بالهند ـ مثلاً ـ شهادة بالنسبة للطائفين بها .

وإذا دخل عليك إنسان وفى جيبه مائة دينار ، وأنت لاتعلم فهى بالنسبة إليك غيب ، وبالنسبة إليه شهادة .

وهذا الغيب الإضافىّ ينقسم إلى قسمين :ـ

إلى ممكن الوصول إليه ، كالكعبة ، والدنانير ، . . . . وغير ذلك .

وإلى غير ممكن : كالوصول إلى السماء وسكانها ، والجنة والنار ، . . . وغير ذلك . والقسم الممكن الوصول إليه قد يدرك بالأسباب العادية المتعارفة ، كأن يسافر إلى الكعبة ، أو يُدْخِل يده إلى جَيْب صاحب الدنانير ثم يخرجها ، فيعدها ، ويعرفها ، أو يُكْشَف له وهو فى بلده فيرى الكعبة ، أو يكشف له عن عدد الدنانير ، أو يكشف له أيضاً عن الغيب الذى لاوصول إليه بطريق العادة . . . . » أ هـ (١٦) .

ويبدو من هذا المثل من تفسير الإمام الجعفرىّ للقرآن الكريم اهتمامه بمخاطبة العقل ، وإيضاح المعنى عن طريق استعمال التصوير والتعبير بالمحسَّات عن المعقولات ، فوضّح معنى « الغيب » بصورة تريح العقل وتقنعه عن طريق ضَرْب المثل ، واستخدام التنظير .

---

(١٥) البقرة : ٣ .

(١٦) المعانى الرقيقة : ص ٢٢ ـ ٢٣ .

وبدهيّ أن من يتصدى لتفسير القرآن لابدّ له من الإلمام بعلوم العربية ومعرفة دقائقها من نحو وصرف ، وفقه باللغة ، ومعرفة القراءات وأسرارها . وقد تحقق ذلك كله للإمام الجعفريّ ـ رضى الله عنه ـ فنراه فى تفسيره لآيات القرآن الكريم يستعين بكل علومه ومعارفه ، فيشرح معانى المفردات ، ويُبيِّن وجوه القراءات ، فنراه مثلاً يقول عند تفسير قوله تعالى :ـ

« وَاتَّخِذُواْ مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » [١٧] :ـ

« وقرىء بفتح الخاء ـ فى قراءة ـ ومعناها : أن الأمم السابقة كانت تصلى فيه ، وشَرْع ماقبلنا شَرْعٌ لنا ، ما لم يرد ناسخ ، ومعنى قراءة الكسر : أى صَلُّواْ فيه . . . . » [١٨] .

كما كان يلفت القارىء إلى الحروف المقطعة فى أوائل السور : ومن ذلك قوله فى تفسير أول سورة « طه » :ـ

« اختلف العلماء فى معنى « طٰه » فقال السيوطى : الله أعلم بمراده منها ، وكذلك قال فى جميع الأحرف المقطعة الأخرى التى بدئت بها سور من القرآن الكريم .

وجماعة قالواْ : « طه » منادى محذوف منه ياء النداء ، والمعنى : ياطٰه ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشْقَى ، وكذلك « يسٓ » معناه : يايسٓ إنك لمن المرسلين ، وهذه من أسماء النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم . وجماعة قالواْ : « طٰه » طاء ، وهاء ، من الأحرف المقطعة .

وجماعة قالواْ : كل حرف يدلّ على اسم من أسمائه ـ تعالى ـ فمعنى : « طاء » : طاهر ، ومعنى « هاء » : هادى .

وجماعة قالواْ : « طٰه » اسم للسورة فالمعنى : هذه سورة « طٰه » . وجماعة قالواْ : هذا فعل أمر معناه : طأها ، أى : دُسِ الأرض بقدمك ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يقوم الليل كله ، وإذا أدركه التعب كان يرفع قدمه عن

---

(١٧) البقرة : من الآية ١٢٥ .

(١٨) درس الجمعة ٢/ ١٢

الأرض حتى يريحهـا . وبعضهم قال « طٰه » : جاءت فى أول السـورة تنبيهاً للمستمعين أى : انتبهـوا جاءكم كلام غريب ؛ لأن العرب لم تكن تعرف كلمة « طٰه » فلم يوجد رجل اسمه « طٰه » قبل بعثة النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والعرب لم تعرف مثل هذه الأسماء أى « طٰه » و « يٰسٓ » فمعنى هذا القول : أن « طٰه » و « يٰسٓ » ونحـوهمـا : آيات وَأدلـة على أن القـرآن ليس مخلوقاً من المخلوقات ، وإنما هو كلام الله تعالى ، وأيضاً فإن معناه : القرآن منّى ، وليس من محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والنبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يأت فى بداية أى حديث من الأحاديث بمثل « قٓ » أو « نٓ » أو « طٰه » أو « يٰسٓ » . . . وهكذا . فهذه خلاصة الأقوال فى تفسيره قوله تعالى « طٰه » والله ـ تعالى ـ أعلم بالصواب منها » . انتهى كلام الجعفرىّ رضى الله عنه .

وهـو دليل واضـح على فيض علمـه ، وقوة حفظه ، وحُسْن عرضه ، وبلاغة أسلوبه ، فلو قرأت عدداً كبيراً من كتب التفسير فى بيان معنى « طٰـه » لما استطعت أن تخـرج بهذه الحصيلة الوافرة من الآراء والتفسيرات ، وقد أضاف إليها الإمام الجعفرىّ رضى الله عنه من شَرْحه وتعليله ، واستنبط هو من فهمه الدقيق ، وفكره المتّقد ما جعل القارىء يخرج شبعان رَيَّان من هذه المائدة الحافلة بأطايب الثمار .

وإذا عرفت أيها القارىء الكريم أن هذا التفسير السابق للأحرف المقطعة ، وأكثـر تفسير الجعفـرىّ للقرآن الكريم كان يلقيه مشافهة فى درسه العامر بالأزهر الشـريف ، ولم يكتبـه بنفسـه فى كتـاب مستقـلّ ، ولكنه فيض الخاطر ووحى القـريحـة ، وإلهـام الله تعالى لسيدى صالح التقيّ من فيض « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً » [٢٠] ـ لو عرفت ذلك فانظر أيّ عالم قد تشرَّف به هذا العصر ، وأىّ كنز ثمين قد انتفع به معاصروه ! ولأنه ـ رضى الله عنه ـ كان يخاطب بتفسيره الحاضرين ، كان ينتقل بهم من فنّ إلى فنّ ، ويجيب على مختلف الأسئلة فى أثناء تفسيره ، وكـان حريصـاً على إفـادة مستمعيه باستنبـاط الأحكـام الفقهية من الآيات التى يفسرها ، ومن أمثلة ذلك :ـ

---

(٢٠) الكهـف : ٦٥ .

إجابته على سؤال وُجِّه إليه حول الدليل على أن حياة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد الموت تزيد على حياة الشهداء فقال :ـ

« الدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ (٢١) فتحريم تزويج نسائه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد موته ، وإباحة تزويج نساء الشهداء دليل ظاهر على أن حياته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أرقى من حياة الشهداء ، وقد منع الشرع زواج المرأة إذا غاب عنها زوجها حيًّا حتى يتبين الأمر ، وأباح تزويج جميع مَنْ مات أزواجهنّ إذا انقضت عدتهن ، إذا علمت كلامى هذا فاعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم ـ أحياه الله بعد الموت كما كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولغيرته على نسائه حرَّم الله تزويجهنّ على الغير » (٢٢) .

ومعلوم لدى علماء التفسير أن الحديث هو من أهم مصادر تفسير القرآن الكريم ، بل إن بعض المفسِّرين اقتصر فى تفسيره على الأحاديث ، ورواياتها المختلفة كابن كثير .

وعلى أية حال فإن التفسير بالحديث هو المنهج الغالب عند كبار المفسِّرين كابن جرير الطبرى ، والسيوطى فى الدرّ المنثور وغيرهما كثير . والإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ له باع طويل فى ميدان التفسير بالحديث . بل إنه استنبط من التفسير بالحديث فوائد جليلة جديدة لم يصل إليها غيره ممن سبقه من المفسِّرين ، وإليك أيها القارىء الكريم هذا المثال من تفسير الإمام الجعفرىّ :ـ

« قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ ﴾ (٢٣) قيل : صُلْب الرجل وترائب المرأة ، وفى الحديث « ومن أين يكون الشبه ؟ » (٢٤) قال ذلك ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ حين أنكرت ماء المرأة ، ثم أثبت ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن الجنين يتخلَّق من ماء أمه وأبيه ، ولذا

---

(٢١) الأحزاب : من الآية ٥٣ .

(٢٢) المنتقى النفيس : ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢٣) الطَّارق : آية ٧ .

(٢٤) رواه البخارى ـ رحمه ـ الله .

تارة يشبه أباه ، وتارة يشبه أمه ، فيكون الحديث هذا موافقاً لتفسير الآية الذى ذكرته لك آنفاً .

وقد ذكر الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ هذا التفسير الذى سبقه إليه غيره ، ولم يُدَلِّل هو ولا غيره بالحديث الذى ذكرته ، وذلك من فَضْل الله علىّ فله الحمد ، ولـه الشكر ، وهذا الاتصال الجسمانى هو الذى يتسبب به عطف الوالدين على الذرّية ، وعطف الذرّية على الوالدين ، ولولا ذلك ماحصل عطف ، ولذلك فإن اللقيط لاعاطف عليه إلاَّ أُمّه » (٢٥) .

كما كان الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ حريصاً فى تفسيره على الابتعاد عن الإسـرائيليات المدسوسة على كتب التفسير ، وكان يدحضها ويُبيِّن أوجه الكذب والتلفيق فيها ، مع تنبيه السامعين ـ والقارئين ـ إلى وجوب مراعاة عصمة الأنبياء ، ومراعاة الأدب معهم فى ذكر قصصهم وتفسير ما ورد من القرآن فى حقهم .

نأخـذ مثالاً على هذا المنهج ما قاله فى أثناء تفسيره للآية : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ ﴾ (٢٦) وما بعدها من سورة « صٓ » قال رضى الله عنه :ـ

« قال العلماء : الأنبياء معصومون من الصغائر قبل النبوة وبعدها . وقيل : هم معصومون بعد النبوة لاقبلها ، فعلى هذا القول إذا نظرنا إلى القول بأن إخوة يوسف كانوا أنبياء ، فإنهم قبل نبوتهم كانوا غير معصومين ففعلوا ما فعلوا ، وعندما أصبحوا أنبياء تابوا إلى ربهم .

أما الرسل فإنهم معصومون قبل النبوة وبعدها ، أمَّا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمعصوم قبل النبوة وبعدها من كل شىء يشين .

ومَنْ أراد التفسير فعليه بتفسير الشيخ الصَّاوى فى أربعة أجزاء ، وتفسير الحافظ ابن كثير .

أمَّا مَا ذكر من أن داود ـ عليه السلام ـ كانت عنده تسع وتسعون زوجة ، وكانت

---

(٢٥) المنتقى النفيس : ص ١١٩ .

(٢٦) سورة صٓ : ٢١ ـ

عند جاره زوجة . . . . . إلخ القصة فإن ذلك من الإسرائيليات . . » [٢٧] .

وعندما كان يقرأ فى أحد دروسه عبارةوردت فى تفسير الجلالين عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [٢٨] أنَّ معنى ذلك : لولا أن رأى برهان ربه لجامعها ـ قال الجعفرىّ :ـ

« ليس هكذا تفسير كلام ربّ العالمين ، ولا يليق ذلك بعصمة الأنبياء ، ويوسف نبىّ ورسول . قال تعالى : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [٢٩] يعنى : يصطفيك ربك ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [٣٠] بالنبوة والرسالة ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [٣١] وإسحاق جده ، وكان نبيًّا ورسولاً ، وإبراهيم جدّه أى جدّ والده ، وكان نبياً ورسولاً ، فتمام النعمة بالقياس على تمام نعمة أجداده ، يعنى الرسالة ، والنبوة ثابتة للرسل عليهم الصلاة والسلام وهم معصومون بإجماع ، فكيف يكون معصوماً مَنْ هذه صفته ؟

هل يليق أن ننسب إلى يوسف أن يقصد الجماع ـ وهو حرام ـ لولا أن يُمَثَّل له والده فيضربه على صدره فتخرج شهوته ، وهذا متحقق فى أقلّ واحد من المؤمنين لو رأى أباه وكان قد هَمَّ بأىّ فِعْل لامتنع عنه ؟! . . . » [٣٢] .

ثم يُبَيِّن الإمامُ الجعفرىُّ ـ رضى الله عنه ـ السِّرَّ وراء هذه الإسرائيليات المدسوسة فيقول :ـ

« وكم من علم مدسوس على العلماء ، والمقصود منه التشكيك فى العلم ، وصَرْف الأذهان عن احترام الأنبياء ، ولا تخفى ماتحت ذلك من الأغراض الدنيئة وهى دعوى إلحاد وتشكيك ؛ لأن الشك فى عصمة الأنبياء يشكك فى أقدارهم وصدقهم ، والتشكك فى عصمة الرسل يشكك فى رسالاتهم وأنها من عند الله تعالى ، فلا يليق إطلاقاً أن نؤول كلام الله ونصرفه تصريفاً يخرج عن علم التوحيد

---

(٢٧) درس الجمعة : ٢/٥٨ .
(٢٨) يوسف : ٢٤ .
(٢٩ ـ ٣١) يوسف : من الآية ٦ .
(٣٢) من دروس الإمام الجعفرىّ تحت الطبع .

الذى جاء به القرآن والسنة . . . . » .

ثم شرع الإمـام الجعفرى رضى الله عنه يفسِّر الآية ، ويزيل اللبس ، ويرفع الشُّبَه عنها ـ فيقول :ـ

« وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ [٣٤] على ظاهره ؛ لأن التأويل لهذا المعنى يؤيده ما قبله بمعنى : أنَّ « زليخـا » همَّتْ به قاصدة حَمْله على مواقعتها ؛ لأن القرآن شهد لهذا المعنى بقوله تعالى ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [٣٥] يعنى : هيئتُ لك أى : تزينت لك ، وأصبحت مستعدة لنيل المراد . ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ [٣٦] .

وقوله تعالى ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [٣٧] ليس على ظاهره ؛ لأن صرف المعنى على الظاهر فى هذه المرة لايؤيده الدليل .

وفى هذه الآية تقديم وتأخير وحذف أى : هناك جملة مقدمة ، وجملة مؤخرة ، وبينهمـا كلام محذوف يُفْهَمُ بدقة النظر فى كتاب الله تعالى ، وتدبُّره على ضوء بلاغة القرآن العربى ببركة النبىّ العربى صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتفصيل ذلك أن الله تعالى يقول :ـ

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ يعنى : لولا أن رأى برهان ربه كان قد هَمَّ بها كما همَّتْ به ، ولكنه لما كان نَبِيّاً ورسولاً ، ومعصوماً بعصمة الأنبياء والرسل ، ونحن قد أوحينا إليه لتنبئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، ومِنْ بين ما أوحينا إليه كل ما سيحدث له عند « زليخا » وما بعده من باقى القصة ، لمَّا كان يوسف كذلك لم يَهُمَّ بها ، ولم تراوده نفسه لحظة واحدة فى معصية الله تعالى ـ وجواب « لولا » ليس هو « لَجَامَعَهَا » كما جاء فى تفسير الجلالين ، ولكن جواب « لولا » ظهر لنا

---

(٣٤) يوسـف : من الآية ٢٤ .
(٣٥) يوسـف : من الآية ٢٣ .
(٣٦) يوسـف : من الآية ٢٣ .
(٣٧) يوسـف : من الآية ٢٤ .

بذلك أنه « لَهَمَّ بها » وفرق كبير بين الجوابيْن :-

فالله تعالى نفى عنه الهمَّ نفسه ، ونَفْى الهمّ فيه نَفْى قَصْد الجماع ، والجماع تمام القَصْد ، وهو نتيجة له ، ونَفْى المقدمة ينفى بالضرورة نتيجة هذه المقدمة ، وهذا ما يليق بعصمة الأنبياء ، ويوافق كلام الله تعالى - فى حين أن إثبات الهمّ ، وتقدير جواب لولا « لجامعها » فيه عدم لياقة لمقام الأنبياء وهو ما يخالف علم التوحيد الذى يثبت للأنبياء والمرسلين العصمة ، والفطانة ، والأمانة ، والتبليغ ونَفْى إحدى هذه الصِّفات نقص فى حقِّ المرسلين - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام . . . » انتهى كلام الإمام الجعفرىّ .

وهو بما قدمه من علم غزير واستنباط دقيق ، وفَهْم لأسرار التعبير ودقائق اللغة ، وما وُهب من علم لدنىّ جعله يصل إلى ذلك التفسير الذى لم يُسْبَقْ إلى مثله ، مما يَضَعُهُ فى مصاف كبار المفسرين فى عصره .

والإمام الجعفرىّ صوفىّ قَلْباً وقالباً ، يحمل روح الصوفىّ فى سائر كلامه فكثيراً ما نجده يفسر بعض الآيات تفسيراً صوفياً إشارياً ، فنراه مثلاً يفسِّر كلمة « نفس » فيقول :-

« نفسٌ : أولها نون متحركة ، وآخرها نون ساكنة ، فحركتها اضطرابها قبل ذكرها ، وسكونها طمأنينتها بعد ذكر الله ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٣٩) ، وتارة تكون مع الشيطان ، فتكون نونها نفورها ، والفاء : فرارها من الحق إلى الباطل ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٤٠) والسِّين : تسويلها لصاحبها ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ (٤١) ، ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (٤٢)

وإذا كانت مع الله تعالى - فَنُونُهَا : نورٌ يلوح لها عند ذكر ربها ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ

---

(٣٩) الرعد : من الآية ٢٨ .
(٤٠) المدّثر : الآية ٥٠ - ٥١ .
(٤١) طه : من الآية ٩٦ .
(٤٢) فاطر : من الآية ٨ .

مِنْ رَبِّه ﴾ [٤٣] ، والفاء : فتح الله لها بعد نصرها على شيطانها وهواها ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [٤٤] ، والسين : سُبُل الله الموصلة إليه ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [٤٥] ، ويحتمل أن تكون النون إشارة إلى النصر ، فيكون بعد نصر الله تعالى يأتى فتحه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [٤٦] . . . . » .

ومن هذا المشرب الصوفى تفجرت ينابيع المعانى ، فكثيراً ما نجده يشرع فى تفسير آية بمعنى، ثم يشرحها بآخر ، ثم بآخر ، ثم بآخر ، . . . وهكذا . . . وهذا يدلُّ دلالة واضحة على إمداد الله تعالى وعنايته ، ومن ذلك ما قاله فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [٤٨] :ـ

« من بحر جواهر معانيها : والذى قدر لك فى الأزل أن تكون مُسْلِماً ، فهداك إلى الإسلام ، وهذه نعمة من أعظم النعم وأجلها ـ قال سيدنا علىّ كرم الله وجهه ورضى الله عنه ـ « فلك الحمد على ما جعلتنى من أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو أفضل النبيِّين دعوة ، وأفضلهم شفاعة ، وأقربهم منزلة » أى : قَدَّرْتَ لى ذلك ثم هديتنى إليه .

والذى قدَّر لك العلم ، فهداك إلى طلبه وتحصيله حتى صِرْتَ عالماً ، والذى قدَّر لك الولاية ، فهداك إلى منشورها ـ وهو الذكر ـ وهو الذى قدَّر لك شيخاً عارفاً يرشدك ، فهداك إليه ، والذى قدَّر لك التجارة ، فألْهَم قلبك حُبَّها وهداك إليها حتى صرت تاجراً ، والـذى قدَّر فلانة زوجة لك ، فهداك إليها فتزوجت بها ، فولـدت لك ماشاء الله أن تلد ، والذى قدَّر لك المصيبة وألْهَمَك الصبر وهداك إليه ، لِتَنَال صلوات من ربك ورحمة وهداية .

والذى قدَّر لك الحج ، فهداك إلى السفر فى العام الذى أجَّلَهُ لك ، والذى قدَّر

---

(٤٣) الزمر : من الآية ٢٢ .
(٤٤) الصفّ : من الآية ١٣ .
(٤٥) العنكبوت : من الآية ٦٩ .
(٤٦) النصـر : ١ .

(٤٨) الأعلـى : ٣ .

لك الصلوات فهداك إليها ، والذى قدَّر لك المكان الذى تصلِّى فيه وهداك إليه ، والذى قدَّر لك الصوم وهداك إليه ، فصمت فى الأعوام التى شاءها لك ، والأماكن التى أرادها لك ، والذى قدَّر لك المعصية ، فهداك إلى التوبة ، فَتُبْتَ لَتَنَالَ مغفرته .

والذى قدَّر لك التخلِّى ، فهداك إلى البُعْد عن الشهوات والضلالات ، والذى قدَّر لك الإحسان ، فهداك إلى الإنفاق مما أعطاك الله من العلم والمال ، والذى قدَّر لك المرض فهداك إلى الدواء فتداويت وشفيت ، لتعالج ما أنزل من داء بما أنزل من دواء .

والذى قدَّر لك الوصل ، فهداك إلى الآداب اللازمة . والذى أشعل فى قلبك سُرُج الحب الإلهى والحبّ المحمدىّ ، فهداك إلى زيْت تسريجها ، والذى قدَّر وجود النور فهدى روحك إليه ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤٩) .

والذى قدَّر فتح مسامع القلوب بمفاتيح أسرار الغيوب ، فهداك إليها . والذى قدَّر لروحك إلْهَام مَعْرِفَة « كان الله ولا شىء معهُ وهو الآن على ما عليه كان » (٥٠) ، فهداك إلى معرفة ذلك بالوقوف على ساحل بحر ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٥١) . ليدرك الموصوف لاحق وصفه سابقه . والذى قدَّر لك غاية المشاهدة ، فهداك إلى الغَيْبة فيها عن مشاهدة ماسوى المشهود ، والذى قدَّر لك شراب كؤوس حلاوة مناجاته ، فهداك إلى القيام بالأسحار ، والذى قدَّر لك تنزُّلَات غيوث أسرار معارف جواهر آياته ، فقدَّر لك التدبير فيها ؛ لتتعرض إلى وابل غيثها . والذى قدَّر لك التغذِّى من معانى موائد بركات سور كتابه ، فهداك إلى الدخول فى سور موائد سوره وكلماته ، والذى قدَّر للمعانى أن تكون مختلفة الأذواق والمرامى ، فهداك إلى تمييز غرائب بدائع أسرارها . والذى وعدك بالدخول فى حضرة سلطان حضراته ، فهداك إلى كثرة الصلاة والسلام عليه ؛ لتكون من أهل بركاته ونفحاته .

---

(٤٩) النـور : من الآية ٣٥ .

(٥٠) أثر شطره الأول من حديث فى البخارى وشطره الثانى من رواية الصوفية .

(٥١) الرحمن : ٢٦ .

والذى قدَّر لك الفيض من جلال قهر جبروته ، فهداك إلى الابتهال لتنزل ألطافه وبَسْطه وعناياته .

والذى قدَّر لك الدخول فيما لاعَيْنٌ رأت ، ولا أُذُن سمعت ، ولا خطر على قَلْب بَشَر ، فهداك إلى معرفة مالم تكن تعرف ، وعلم مالم تكن تعلم وسماع مالم تكن تسمع على بساط قربه وأُنسه فى حظيرة مناجاته وقدسه .

والذى فتح باب الخيرات والبركات ، فهداك إلى آغتنامها ، والذى قدَّر للأرواح الشوق حتى كَادَتْ أن تطير من عالم أجسادها ، فهداها إلى الصبر ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٥٢) .

والـذى قدَّر لهم الغرق فى بحر الحبّ الإلهى ، فهداهم إلى التمسك بأنوار الشرع المحمدىّ ، فحملهم على سفينة النجاة ، وهى تجرى بهم فى بحر حقائق دقائق « إذا تقرَّب إلىَّ العبدُ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً (٥٣) .

انتهى هذا الفيض الجعفرىّ من مدد معانى الآية ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ . وهذا النفس الطويل الطاهر ، والعلم الربانى الموهوب كان امتداداً لشعاع أنوار إشراقات تجليات علوم شيخه السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله تعالى عنه ـ فقد كان كما يروى عنه الإمام الجعفرىّ (٥٤) :ـ

يُفَسِّر الآية الواحدة ويطيل ويبدع ويجدد فى تفسيرها السَّاعات بل الأيام ! نعم يروى عنه أنه جعل يُفَسِّر قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (٥٥) . فظلَّ يفسرها طيلة ثلاثة أيام كل يوم يضيف ويُجدِّد ويبدع ـ والله سبحانه وتعالى ـ يقول فى كتابه العزيز :ـ

﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٦) .

---

(٥٢) الكهـف : من الآية ٢٨ .

(٥٣) المنتقى النفيس ١٤٠ ـ ١٤٢

(٥٤) المنتقى النفيس ١٣٩ ، ١٤٠

(٥٥) الفرقان : الآية ٦١ .

(٥٦) آل عمران : الآية ٧٣ .

درس الجمعـــــــة :ـ

ذكرنا فيما سبق أن أكثر ماتركه الإمام الجعفرىّ من التفسير كان يبثُّه فى دَرْسه العامر الذى كان يلقيه كل يوم جمعة بالأزهر الشريف ، وقد يسَّر الله تعالى الطريق إلى نَشْر هذه الدروس بعد جَمْعها مما سجّل من دروس الشيخ ، ومما دوَّنه أبناؤه الـذين سعدواْ بالحضور فى درسه المبارك ، وقد قُدِّم له بمقدمة وافية عن درس الجمعة وأهم ملامح مَنْهج الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ فيه (٥٧) .

ولقد كان الإمام الجعفرىّ ـ فى مُعْظم دروسه ـ يبدأ بالآيات التى يريد تفسيرها ثم يبدأ فى شَرْح المراد منها ، مستفيداً من علومه ومعارفه ومواهبه ، فكان يقف بالسَّامعين على دلالة الحرف وأسرار التركيب اللفظى والجُمَلِى فى الآية ، ويلفت الأنظار إلى بلاغة القرآن ، مع التعريج على سائر العلوم التى تخدم تفسير القرآن الكـريم مثـل المنـطق والفلسفـة وعلم الحـديث وعلم التوحيد والسيرة والتاريخ الإسلامى ، كما كان كثير الوقوف عند مسائل علم التوحيد المُتَعلِّقة بالتفسير نحو عصمة الأنبياء ، أو الكلام على صفات الله تعالى وأسمائه وغير ذلك .

فكـانت علوم اللغـة ، وعلوم الإسلام تتلاقى جميعها لتصب فى بحر العلوم الجامع فى درس الإمام الجعفرىّ .

وهكذا كانت حلقات درس الشيخ ـ رضى الله عنه ـ حافلة بالأسرار والأنوار ، جامعة لسائر أنواع المعارف والعلوم ، كما كان الشيخ يُرَبِّى أرواح مريديه ، ويتفقد أحوالهم ، فكان يُشِيرُ إلى أهم المشكلات الاجتماعية التى تحدث فى المجتمع ، فكان يرشد تلاميذه إلى العِلاج الشافى والدواء الناجع ، وكان من يحضر درسه يجد فى كلامه حَلاً لمشكلته إمَّا بالتلميح ، وإما بالتصريح ، وكان يجيب على مختلف الأسئلة بصبرٍ وأناة ، وسعة صدر لايعنف سائلاً ، ولا يسفه رأى أحد مهما كان . كما كان الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ يخاطب السامعين بما يناسب فَهْمَهُمْ ومستوى إدراكهم ، ويوصل العلم إلى عقولهم وقلوبهم بأسلوب سَهْل بسيط مُحبَّب

---

(٥٧) يُرَاجع مقدمة الجزء الأول من درس الجمعة .

إلى القلوب ، ممتزج بالطرائف والنوادر التى تجذبهم وتروِّح عنهم ، وتدفع عن عقولهم الكآبة والملل .

وقد شهد دروسه كثير من العلماء الذين شهدوا له بالعلم والفقه ، وحسبنا ما ذكره أحد هؤلاء العلماء المحققين وهو الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى أستاذ الأدب والبلاغة بجامعة الأزهر وَمِمَّا قاله :ـ

« نعم ! كان الناس مع الشيخ فى تواجد وانجذاب ، فقد أوسع لهم من نفسه مالم يجدوه لدى سواه ، ويجيئه المصاب فى ولده باكياً متفجعاً ويظن أن السمٰوات قد انطبقت على الأرض لِفَقْد حبيبه ، فيبتسم الشيخ فى هدوء ، ويقول له : أَبْشِرْ يابُنَىَّ فإن الله قد اختارك لابتلائه ، والكرام مُرْزءون ، إن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو أحبّ خَلْق الله إليه جميعاً قد أُبتلى بِفَقْد أولاده فى حياته ماعدا فاطمة وما كان الله ليبتليه بذلك إلا وهو يدّخر له أعظم المثوبة فى جنّات الرضوان ، ويجيئه المحزون لمعصية ارتكبها ، فيُسِرّ إليه بخطئه ، فيقول له الشيخ : قُمْ واغتسل ، وقصّ شعرك وأظافرك ، وعُدْ وسأخبرك . فإذا أتمَّ المذنب ما أشار به عليه ، خفَّ إلى الشيخ فتهلَّل للقائه ، وقال له : أَبْشِرْ هذه توبة لن تكون مقبولة لدى الله إذا عدت إلى فعلتك السابقة ، هاأنت ذا قد نزعت كل أثر فى جسمك للمعصية ، حين تطهرت وحلقت ونظفت ، لقد ولدت من جديد ، وسيعفو الله عمَّا سلف ، وإياك ثم إياك ، ثم يقرأ قول الله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغفَرُوا لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٥٨) .

فيستمع المذنب مستبشراً ، ويخرج عازماً على الطاعة ، نادماً على الزلَّة ، وخيال الشيخ الكبير فى خاطره ، يراوحه ويغاديه ، فهو يعتقد أن الشيخ مَوْضع سِرِّه ، وأنه سنده فى النائبات . . . (٥٩) .

---

(٥٨) آل عمران : الآيتان ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٥٩) رسالة المسجد ١٢٧ .

ثم يصف الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى الأستاذ بجامعة الأزهر منهجه فى الدرس فيقول :ـ

« . . . . فكم من مسائل شائكة تتعلق بالسياسة المتربصة ، سئل عنها الشيخ صالح فى حلقات الدرس ، حين عُذِّب المجاهدون فى سبيل الله ، وتقاذفتهم المنافى السحيقة لالشىء إلا أن يقولوا : ربّنا الله ، كم سُئِل الشيخ عن هؤلاء المجاهدين ، ومنهم تلاميذه وأصدقاؤه ، فصدع بكلمة الحق ، وخلع عمامته ، وتوجَّه إلى السماء رافعاً كفَّيْه أن ينصر حماة دينه ، وقد انتقل بالدروس ذات عشية لهذه المناسبة من موضوعه الأصلى ـ وكان فى الزكاة ـ إلى تفسير قول الله عز وجل :ـ

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٦٠) .

حيث أفاض الله على لسانه من روائع المعانى ، ونفائس الحكم ، كأن مددًا روحيًّا قد تدفَّق على لسانه ، مرتفعاً من زواخر قلبه المتلاطمة وكم للشيخ فى ساحات درسه من وثبات وجدانية لاندرى مِنْ أين جاءت فقد قرأنا ما يقرأ الناس من كتب التفسير وصحائف الحديث ، ولكننا لم نر هذا الشَّرْح المتدفق النابض لأحد من سابقيه فى هذه الآية الكبرى ، وقد رزق الشيخ حلاوة فى الصوت تجعل سامعه يتخيل أنه أمام موسيقى تصدح ، لا أمام إنسان يتكلم ، والصوت الندىّ إذا استلهم القلب العاطفى المتقد جاء ببدع من فنون البيان ، يبحث عن تأثيرها أساتذة فنّ الإلقاء ، فلا يهتدون إلى أصولها الحقيقية ذات الولوج الناشب فى مطاوى الأفئدة ، ولفائف الأحشاء والكبود . . . . »(٦١) .

انتهى كلام الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى عن سبحات الإمام الجعفرىّ المحلقة فى دروسه ، وقد صوَّرها بأبلغ عبارة ، وأفادنا عنها أعظم إفادة بحيث تستحق أن تكون مِسْك الختام عن الإمام الجعفرىّ ـ المُفَسِّر .

---

(٦٠) البقرة : الآية ٢١٤ .

(٦١) رسالة المسجد ١٢٤ ، ١٢٥

« الفصـــــل الثانى »

« منزلة الإمام الجعفرىّ فى علم الحديث »

لقد كانت صلة الإمام الجعفرىّ بالحديث ـ رواية ودراية ـ صلة قوية عميقة الأثر لم تقتصر على مجرد تحصيل علم الحديث على يد نخبة من أكابر علماء الأزهر وقتهم كالشيخ حبيب الله الشنقيطىّ ، والعـلامـة محمـد إبـراهيم السمـالـوطى وغيرهم ، وإنما كان الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ ينظر إلى الحديث النبوىّ الشريف نظرة صوفية خاصة خالصة ، فهو كان يراه ويفهمه على أنه كلام النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكانت محبته له من محبته لقائله حبيب الله ، وحبيب الملائكة ، وحب الأنبياء والمرسلين ، وحبيب الأولياء والصَّالحين ، وحبيب جميع المسلمين سيدنا ومولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم .

ويحكى لنا الإمام الجعفرىّ بدايته الأولى مع علم الحديث وروايته فيقول :ـ

« قال ـ عليه الصلاة والسلام :ـ « إذا مررتم برياض الجنَّة فارتعوا » قالواْ : وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال : « حلق الذكر » »[٦٢] .

هذا الحـديث أول ماسمعته عن شيخى العارف بالله ـ تعالى ـ السيد محمد الشريف ابن العارف بالله ـ تعالى ـ السيد عبد العالى ابن العارف بالله ـ تعالى ـ سيدى ومولاى الشريف السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله تعالى عنهم أجمعين ـ قال السيد محمـد الشـريف ـ رضى الله تعالى عنه :ـ يؤخذ من هذا الحديث استحباب الاجتماع على مجالس الذكر ، وأن العارفين يتلذذون بذكر الله ـ تعالى ـ كما يتلذذ أهل الجنة بنعيمها[٦٣] أ هـ وممن أجاز شيخنا الجعفرىّ برواية الحديث بالسَّنَد السيد محمد إدريس السنوسىّ ـ قال فى كتابه المنتقى النفيس :ـ

---

(٦٢) رواه البيهقى .

(٦٣) المعانى الرقيقة : ص ١٢ .

« يقول صالح بن محمد بن العارف بالله ـ تعالى ـ الشيخ صالح الجعفرىّ :ـ أروى بالإجازة المباركة بالسند المتصل عن السيد محمد إدريس السنوسىّ عن شيخه العارف بالله ـ تعالى ـ السيد أحمد بن الشريف السنوسىّ ، عن شيخه العارف بالله ـ تعالى ـ السيد أحمد الرينى عن شيخه العالم العلاّمة والبحر الفهّامة الحافظ المحدِّث السيد محمد بن على السنوسىّ ، عن شيخه العارف بالله ـ تعالى ـ سيدنا الإمام المحدّث ، الحافظ المفسِّر ، الصوفىّ النحرير ، والمرشد لطريق الحق بالحقّ ، القطب النفيس ، صاحب البيان والتدريس ، سيدنا ومولانا السيد أحمد بن إدريس الشريف الحسنىّ ـ رضى الله عنه ـ بسنده المتصل قال : وعنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم . أنه قال [٦٤] :ـ

« إنما يسلّط على ابن آدم ما يخافه ابن آدم ، ولو أن ابن آدم لم يخف غير الله لم يتسلّط عليه أحد ، وإنما وكل ابن آدم لمن رجا ابن آدم ، ولو أن ابن آدم لم يَرْج إلا الله لم يكله الله إلى غيره » أ هـ [٦٥] .

والإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ كما تشهد بذلك مؤلفاته قد طالع فى كثير من كتب الحديث وقرأها ، وحفظ منها ، وفهم واستنبط ، ففى كتبه نجد إشارات كثيرة إلى كتب الصحاح والسُّنَن ، ومن ذلك :ـ صحيح البخارى [٦٦] ، وصحيح مسلم [٦٧] ، وسُنَن أبى داود [٦٨] ، والترمذى [٦٩] والموطأ [٧٠] ، ومُسْند عبد الرَّزاق اليمنى [٧١] ، والمستدرك للحاكم [٧٢] ، وشرح الكرمانى على صحيح البخارى [٧٣] ، وشرح العلامة الزرقانى على موطأ الإمام مالك [٧٤] ، وشرح القسطلانى ـ رحمه الله ـ المُسَمَّى : المواهب اللدنية [٧٥] ، وشرح سنن الترمذى

---

(٦٤) المنتقى النفيس ١٠٣

(٦٥) المنتقى النفيس : ص ١٠٣ .

(٦٦) فتح وفيض : ١٩٩ .

(٦٧) فتح وفيض : ٢٧٠ ـ ٢٧١ ـ ٣٠١ .

(٦٨) فتح وفيض : ٢٩٣ .

(٦٩) فتح وفيض ١٩٨

(٧٠) فتح وفيض : ٣٠١ .

(٧١) فتح وفيض : ٢١٩ ـ ٢٧٣ ـ ٢٧٨ .

(٧٢) فتح وفيض ٣١٢

(٧٣) الذخيرة المعجلة : ٢٩ .

(٧٤) المعانى الرقيقة : ١١٧ .

(٧٥) فتح وفيض : ٢٠٨

لابن العربى [٧٦] ، والنهاية لابن الأثير [٧٧] ، مسند ابن أبى شيبة [٧٨] ، وحاشية السندى على سنن النسائى [٧٩] ، وتخريج الحافظ العراقى لأحاديث إحياء علوم الدين للغزالى [٨٠] ، وشرح عبد الله بن أبى جمرة الأزدى الأندلسى على صحيح البخارى [٨١] ، ومسلسل السمبلى المدنى [٨٢] ، وروح السنة للسيد أحمد بن إدريس [٨٣] ، ومجمع الزوائد للهيثمى [٨٤] .

وكان تعامل الإمام الجعفرىّ مع الحديث النبوىّ الشريف يدلّ على فهم عميق واضح فقد كان يستفيد من معارفه فى الحديث وعلومه فى تفسير القرآن الكريم ، وفى آستنباط الأحكام :

نأخذ مثالاً على ذلك ما ذكره وهو يناقش رأى الشيخ ابن تيمية فى التوسل ويردّ على عدم اعتداده بدليل نقلى من الحديث النبوى الشريف يقول رضى الله عنه :ـ « اللهم ارزقنا التمسك بالكتاب والسنة وبما ورد عن نبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجنبنا التعصب والجدل » .

وقد بلغنى عن الإمام أحمد ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : العمل بالحديث الضعيف أحبُّ إلىَّ من آراء الرجال ، وإنى على هذا المذهب : مذهب أهل السنة ـ رضى الله عنهم ـ أبحث عن الأحاديث النبوية ، وأعمل بها فى الأمور التى لم ترد عن إمامنا مالك ـ رضى الله عنه :ـ

مثلاً : جماعة من الناس قالواْ : إن التوسل بالنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لايجوز ، ولم يأتواْ بحديث على ذلك ، وقد وجدتُ أحاديث كثيرة تدل على التوسل بالنبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فعندى : الأحبّ إلىّ أن أتبع الحديث ولو كان ضعيفاً ، وأترك قَوْل مَنْ منع ، ولو أقام الحجة بالعقل [٨٥] .

---

(٧٦) فتح وفيض : ٢٦٣ .
(٧٧) فتح وفيض : ٢٩٥ .
(٧٨) فتح وفيض : ٢٢٦ .
(٧٩) فتح وفيض : ٢٦٧ .
(٨٠) فتح وفيض : ٢٢٩ ـ ٢٣٢
(٨١) فتح وفيض : ٢١٧ .
(٨٢) فتح وفيض : ١٢٢ .
(٨٣) فتح وفيض : ١١٦ ، والذخيرة المعجلة ٢٩ .
(٨٤) فتح وفيض : ٢٤٠ ـ ٢٤٤ .
(٨٥) فتح وفيض : ص ٢١٢ .

ولأن الحديث علم له قواعده وأحكامه فقد كان الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ يهتم بها ، وهو يحاور المجادلين فى قضية التوسُّل وغيرها ، فكان يُخَرِّج الحديث ويهتم بإسناده إلى مصادره ، ولاسيما إذا كان الموضوع مثار خلاف ونقاش ، عند ذلك كان الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ يستخرج من كنوز معارفه لآلىء العلم ودرره ، نقرأ معاً ما ذكره من مصادر لرواية حديث جابر بن عبد الله حين سأل النبىَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أول شىء خلقه الله تعالى فقال :ـ

« أوّل ما خلق الله نور نَبيِّك يا جابر »(٨٦) .

قال الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ وهو يشرح كلام السيد أحمد بن إدريس عن نور النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ

« أشار ـ رضى الله تعالى عنه ـ بذلك إلى الحديث الذى أخرجه الحافظ عبد الرزاق فى مسنده ، ونقله عنه العلامة الشيخ أحمد القسطلانى ـ رحمه الله ـ ونقله العلامة الشيخ النبهانى فى كتابه (الأنور المحمدية) ، ونقله كثير من المحدِّثين وأرباب السير ، ونقله الفقيه العلامة الصوفى الشيخ أحمد الدردير ـ رضى الله تعالى عنه ـ فى مولده الذى شرحه العلامة الشيخ إبراهيم الباجورى ـ رضى الله تعالى عنه ـ وكذلك العلامة المحدِّث الشيخ ابن حجر الهيثمىّ ـ رحمه الله تعالى . . . . » (٨٧) .

ويتجلَّى علمه بفقه الحديث وقدرته على الاستفادة منه فى إثبات صحة ما استدل به الصوفية على مشروعية « الخلوة » فقد قال :ـ

« الصوفية حينما استدلوا على الخلوة بحديث الغار ، وأنه سنة عنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قالوا لهم : إن حديث الغار كان قبل الرسالة ، والسنة لا تثبت إلا بعدها .

أجاب بعض شراح البخارى بأن الخلوة حصلت منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الرؤيا الصالحة التى جعلتها السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ من الوحى وترجم

---

(٨٦) أخرجه الحافظ عبد الرّزاق فى مسنده .

(٨٧) المعانى الرقيقة : ٣٨ ـ ٣٩ .

لها البخارى على أنها من الوحى ، واستدلواْ بقولها :-

« فكـان لايرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبـح ، ثم حبّب إليه الخـلاء » (٨٨) فالخلوة جاءتـه بعـد الـرؤيا الصـالحة ، فهى ناشئة عنها ، والرؤيا الصالحة من الوحى ، وفِعْل النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد الوحى يسمَّى سنَّة فالخلوة سنَّة » (٨٩) .

ويشير رضى الله عنه ـ إلى بعض أحكام الحديث كالناسخ والمنسوخ ، وذلك عندما يناقش قضية ـ فرعية ـ وهى زيارة القبور ، وكان ينقل بعض الأحاديث مخرَّجة موثقة من مسند عبد الرزاق الصنعانى اليمنى ، قال :-

باب زيارة القبور فى الحديث ٧٦٠٤ حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة مولى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

« لعن الله زوَّارات القبـــور » (٩٠) .

قال الإمـام الجعفرىّ : هذا الحديث تقدم ذكره وشرحه ، وإنى أُرجِّح كلام الحـافظ أبى بكر العربى فى شرحه المسمَّى : العارضة على سنن الحافظ أبى عيسى الترمذىّ حيث قال : هذه الجملة وهى « لعن الله زوَّارات القبور » منسوخة بقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

« كُنْتُ نهيتكم عن زيارة القبور ألَا فزوروها » (٩١) .

وهذا الكلام أعجبنى كثيراً ، ومما يؤيده أن الحافظ عبد الرزاق أخرج بعد هذا الحديث حديثاً منسوخاً ، وهو الآتى :-

(الحديث ٦٧٠٥) حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال :-

---

(٨٨) صحيح البخارى

(٨٩) الذخيرة المعجلة : ص ٤٥ .

(٩٠) رواه الترمذىّ .

(٩١) أخرجه عبد الرزاق .

« مَنْ زار القبور فليس مِنَّـا » (٩٢) .

قال الجعفريّ :ـ هذا الحديث منسوخ كما علمت كالسابق قبله ، وما رأيته إلا فى هذا الكتاب ، عن التابعى وهو قتادة ، وأما الحديث الأول فقد روى مرفوعاً فى سنن الترمذيّ (٩٣) . أ هـ كلام الجعفريّ ويبدو من خلال عرض منهج الإمام الجعفريّ فى الاستشهاد بالحديث النبويّ الشريف أنه يسير على طريقته العامة فى سائر حياته وهى : أنه يجتهد فى تحرير المسائل والاستدلال عليها ، ثم يُبيِّن أن لكل صاحب رأى وعلم اجتهاده ، ولا يحاول إلزام مخالفه رأيهُ ـ مادامت القضية تتعلق بالفروع التى لايضرّ الاختلاف فيها بأصول العقيدة وجذورها . يقول ـ رضى الله عنه :ـ

« وأمَّا حديث توسُّل سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم . فقـد أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه ، ورأى الحاكم أنه صحيح ، ومَنْ تكلم فى هذا الحديث أو طعن فيه فله رأيه ، واعلم أن الصحة ظنية ، وأن الطعن ظنىّ ، كلٌّ بنى رأيه على اجتهاد ظهر له ، فاختر لنفسك ما يحلو ، وإنى أختار رأى الحاكم واجتهاده اتباعاً وتقليداً لمشايخى ـ رضى الله عنهم ـ » (٩٤) .

وفى موضوع آخر ـ وهو أولية نبوة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول الجعفريّ ـ رضى الله عنه :ـ

« وذكر الشيخ الخازن فى تفسيره أن ابن تيمية يقول : ـ إن حديث : « كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد» (٩٥) فيه ضعف ، وكان على ابن تيمية أن يقول : ضعيف إسناده من هذه الرواية ، وصحيح معناه لأجل رواية الترمذى ، والحديث إذا جاء بسند صحيح ، ثم جاء بسند ضعيف عملنا به ؛ استناداً إلى الرواية الصَّحيحة ، وهذه الأحاديث الثلاثة لم يُرَدْ لفظها ، وإنما المراد معناها ، وهو أنه ـ عليه الصلاة

---

(٩٢) أخرجه الحافظ عبد الرزاق .

(٩٣) فتح وفيض : ص ٢٧٣ .

(٩٤) فتح وفيض : ص ١٢٠ .

(٩٥) رواه أحمد والحاكم

والسلام ـ جعله الله ـ تعالى ـ نبيًّا قبل آدم عليه السلام » [٩٦] فالأصل عند الإمام الجعفريّ أن الإنسان مَهْمَا اطلع وتبَّحر فى سائر العلوم فإنه لن يستوعبها كلها ، وإن ما غاب عنك ربما يكون عند غيرك ، كما أنه يُقِرُّ بالفَضْل للسَّابقين ، ويعرف للحافظين من العلماء قدرهم ، هذه هى القاعدة التى كان الإمام الجعفريّ يسير عليها فى كتبه ودروسه ومناقشاته ، نستمع إليه وهو يحدثنا عن شيخه العلامة محمد بخيت المطيعىّ ـ لنعرف على أىّ نَهْج كان ـ رضى الله عنه ـ يسير :ـ

« رأيتُ سؤالاً وُجِّه إليه فى إحدى المجلات الإسلامية عن الحيوانات التى تدخل الجنة وهى : ناقة سيدنا صالح ـ عليه السلام ـ وكبش سيدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ ونملة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ وهدهد سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ وبقرة بنى إسرائيل ، وحمار العزير ـ عليه السلام ـ وكلب أهل الكهف ـ رضى الله عنهم ـ وحُوت سيدنا يونس ـ عليه السلام ـ وبُرَاق سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأجاب رضى الله عنه :ـ

لم أَرَ ذلك فى كتاب أبداً إلا فى شرح الشيخ أبى البركات الدردير رضى الله عنه فى شرحه لمعراج الحافظ نجم الدين الغيطى ـ رحمه الله .

يقول الإمام الجعفرىّ :ـ إنَّ إطلاع الشيخ محمد بخيت ليس كاطّلاع الشيخ الدردير ـ رضى الله عنه ـ ولا يصح أن يقول الشيخ الدردير ذلك من نفسه .

وقال العلماء : مَنْ حفظ حجة على مَنْ لم يحفظ .

وقد قال الحافظ العراقى ـ رحمه الله ـ حينما اطلع على كتاب الإحياء للغزالى : رحم الله أبا محمد لقد اطلعت له على أحاديث ما وجدتها فى الموضوعات .

قُلْتُ : لعلَّ ذلك من سعة اطلاع الشيخ الغزالى رحمه أ هـ [٩٧] ومع أن الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ لم يصنف كتاباً مستقلاً فى الحديث فإن القارىء فى كتبه يجد فيها زاداً وفيراً فى الحديث رواية ودراية لو جمع فى كتاب مستقل لأغنى وأفاد ، ولعل مرجع ذلك أن الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ لم يكن يُولى

---

(٩٦) فتح وفيض : ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(٩٧) فتح وفيض : ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

التصنيف والتأليف عناية كعنايته بالتدريس ، وتربية أرواح مريديه .

ومما يدل على صحة ما نذهب إليه أن الدروس التى كان يلقيها رضى الله عنه فى الأزهر الشريف كانت كتباً حيَّة مسموعة تزخر بشتَّى العلوم ، وقد دوّن بعض هذه الدروس ، وسجّل البعض الآخر على أشرطة ، وطبع منها جزآن يشهدان بعلم الإمام الجعفرىّ رضى الله عنه ـ وفضله ، وبعض هذه الدروس كان يشرح فيه الإمام الجعفرىّ الأحاديث النبوية الشريفة ، كشرحه لحديث : سورة الإخلاص ، وأنها تعدل ثلث القرآن (٩٨) .

وفى كتابه : « فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله » كثير من روايات الأحاديث وتخريجها ومناقشتها والاستشهاد بها ، وفيه أيضاً كثير من علوم الحديث ودقائقه ، ونأخذ منها هذا المثال :ـ قال الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه :ـ

« قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « مَنْ وجد سعة ولم يفد إلىَّ مرَّة فقد جفانى » .

قال الحافظ العراقى مخرج أحاديث الإحياء :ـ هذا الحديث رواه ابن عدى ـ والدارقطنى فى غرائب مالك ، وابن حبَّان فى الضعفاء ، والخطيب فى الرواة عن مالك ، ومن حديث ابن عمر ـ رضى الله عنهما :ـ بلفظ : « مَنْ حجَّ فلم يزرنى فقد جفانى » ، ورواه البخارى فى تاريخ المدينة عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ بلفظ :

« مَامِنْ أحد من أمتى له سعة ثم لم يزرنى فليس له عذر » .

قال السيد المرتضى فى شرح الإحياء : قلتُ : وحديث ابن عمر المذكور رواه الديلمى ، والحافظ عبد الواحد التميمى فى كتابه « جواهر الكلام فى الحكم والأحكام من كلام سيد الأنام » .

وقد ارتضاه الحافظ السيوطىّ ، وأما حديث أنس بن مالك المذكور فقد أخرجه

---

(٩٨) درس الجمعة ٢/ ١٥٠ والحديث رواه البخارى

ابن عساكر فى فضائل المدينة ، وقال العلامة ملاَّ على قارى : إنَّ حديث ابن عمر المذكور سنده حسن » (٩٩) .

وفى موضع آخر يقول الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ مخرجاً ومعلّقا على حديث آخر رُوى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « مَنْ جاءنى زائراً لا تُعْمله إلاَّ زيارتى كان حقاً علىّ أن أكون له شفيعاً » :ـ

« قال الحافظ العراقى ـ رحمه الله :ـ هذا الحديث رواه الطبرانى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ وصححه الحافظ ابن السكن ـ رحمه الله ـ أى : فى باب زيارة قبر النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى كتابه المسمَّى (بالسُّنَن الصحاح) وهو حافظ ثقة ، مات بمصر سنة ٣٥٣ هـ ، وكتابه هذا محذوف الأسانيد ، ومقتضى ماشرط فى خطبته أنَّ هذا الحديث قد أجمع على صحته .

وقال السيد مرتضى ـ رحمه الله ـ رواه الدارقطنى والخلعى فى فوائده بلفظ : (لم ينزعه حاجة إلاَّ زيارتى) .

وتصحيح ابن السكن إياه ، وإيراده له فى أثناء الصحاح ، وذكره التقىّ السبكىّ ـ رحمه الله ـ فى « شفاء السقام » ، وصححه باعتبار مجموع الطرق ، ورواه البزَّار فى مسنده ، وابن خزيمة فى صحيحه ، ورواه أيضاً أبو داود الطيالسى فى مسنده عن عمر ـ رضى الله عنه ـ بلفظ : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم . يقول :ـ

« مَنْ زارنى لاتهمه إلاَّ زيارتى كنت له شفيعاً أو شهيداً ، ومَنْ مات بأحد الحرمَيْن بعثه الله ـ تعالى ـ من الآمنين » . أ هـ (١٠٠) .

هذا ولقد نَهَجَ شيخنا ـ رضى الله عنه ـ نَهْج سلفه المبارك من العلماء الرَّاسخين فى نظم المسائل العلمية فى أبيات كى يسهل جمعها وحفظها ، وهذا المنهج يدل على سعة اطلاع الشيخ ، ورسوخ قدمه فى الْعِلْم والنَّظْم على حدّ سواء .

---

(٩٩) فتح وفيض : ص ٢٩٩ .

(١٠٠) فتح وفيض : ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

نأخذ على ذلك مثلاً من كلام الشيخ فى تخريج الأحاديث التى تدلّ على حياة الأنبياء بعد الموت ، فنراه يقول فى الفَصْل السَّابع والعشرين :ـ

« قال عليه الصلاة والسلام :ـ « إنَّ اللَّهَ حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

مروى عن أوس بن أوس من حديث طويل أخرجه أبو داود ، والإمام أحمد ، والنسائى ، وابن ماجة ، والدارمى ، والبيهقى فى كتاب الدعوات الكبير ، وابن خزيمة ، وابن حبَّان فى صحيحه ، والطبرانى فى الكبير ، وسعيد بن منصور فى سننه ، وابن أبى شيبة والحاكم وصححه ، وأيضاً صححه النووى ـ رحمهم الله أجمعين .

وقد نَظَمْتُ بفَضْل ربىِّ المخرجين لهذا الحديث لكثرتهم ليسهل حفظهم :ـ

تحريم أَكْل الأَرْض جِسْمًا للنَّبى * قد قاله المختارُ خيرُ الْعَرَب
أخْرَجه عَشْرٌ كذَاكَ اثْنَان * من سادة الحديث والإتقانِ
وَهُمْ إمَامنا أحمد وَالنَّسَائِى * كَذَاكَ ابن حبان بلَا افْتِرَاءِ
كَذَا أَبُو دَاوُد نِعْمَ المرتقى * والحاكم المشْهُور ثُمَّ الْبَيْهَقِى
وَالطَّبَرانى لَدَى الْكَبِير * ثم ابن ماجه عالم نحرير
وَابْن خزيمة كَذَا سَعِيدُ * فِى سُنَن أَقْوَالها تفيد
وابن أبى شيبة ثمَّ الدارمى * فَاحْفَظْ حَدِيث الفَضْل لِلأَكَارِمِ (١٠١)

هذه لمحات موجزة عن منهج الإمام الجعفرىّ رضى الله عنه فى دراسة الحديث وعلومه ، وهى على وجازتها تَنُمُّ عن علم غزير ومعارف موهوبة ، وقدرة فائقة على الشرح والتحليل والاستنباط ومَنْ أراد المزيد فعليه بشرح الإمام ـ رضى الله عنه ـ للأحاديث النبوية التى فى درس الجمعة ، وفى كتبه الأخرى مثل كتاب : المنتقى النفيس ، وكتاب فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله .

---

(١٠١) المنتقى النفيس : ١٧٢ ـ ١٧٣ .

« الفصـــــل الثالث »

« منزلة الإمام الجعفرىّ فى علم التوحيـــد »

علم التوحيد هو جوهرة العلوم الإسلامية ؛ لاتصاله بالعقيدة وأصول الدين ، ولأن معرفته واجبة على كل مسلم ومسلمة ، لما يترتب على العلم والعمل به من صحة العقيدة وسلامة الإيمان ، وما ينتج عن الجهل به من الوقوع فى الانحراف والضلال .

يقول الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ فى بيان أهميته وفضله [١٠٢] :ـ

« لمَّا كان أول واجب على المكلف هو علم التوحيد ذكرته هنا فى شرح كلمة التوحيد ؛ ليكون القارىء له خارجاً عن ربقة التقليد الذى قال العلماء فيه : إنه لايخلو إيمانه من الترديد ، ولكنه إذا قرأ علم التوحيد ، وعرف الله ـ تبارك وتعالى ـ وصفاته الواجبة له ، فإنه يكون ثابت الإيمان ، وأجمع العلماء على أنه يكون مؤمناً حقاً ، ولا يسمَّى مقلداً .

ولمَّا كان طريق شيخنا العالم الشيخ أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ على الكتاب والسنة كما قال هو ذلك ، وقال : إن الآخذين طريقته الأحمدية لاشيخ لهم إلا النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذى يتولى تربيتهم ، أردت بفضل الله ـ تعـالى ـ أن يكون الآخذون لهذا الطريق موحّدين عالمين وليسواْ مقلدين ؛ لأن الأوراد توصل إلى مقام العارفين ، ولايصح أن يدخل هذا المقام من كان مختلفاً فى إيمـانـه ممن لم يقـرأواْ علم التوحيد ، ولم يعرفوه . أردت بفضل الله تعالى بقراءتهم لهذا الكتاب [١٠٣] الذى ذكر فيه علم التوحيد الذى به يكون المريد عالماً عارفاً بربه ـ سبحانه وتعالى ـ فيذكر الله تعالى على علم .

---

(١٠٢) فتح وفيض : ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(١٠٣) يعنى كتابه فتح وفيض .

ولمَّا كان الشيطان يوسوس بأشياء لايقبلها الشرع لمن كَمُل إيمانه أردت بقراءة علم التوحيد أن يستطيع المريد أن يدفع شبه الشيطان ووساوسه ، فهو علم نافع ، وسيف للوساوس قاطع ، وبه يكون الثبات فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ (١٠٤) .

وقال العلماء : إن علم التوحيد واجب عينى على كل فرد رجل وآمرأة ويكون الإنسان بتركه عاصياً ، وقد وفقنى الله تعالى إلى منظومة صغيرة جامعة لمسائل التوحيد ، فعلى كل مريد أن يجتهد فى حفظها حتى يوفقنى الله تعالى إلى شرح لها ، يبين جملها باختصار إن شاء الله تعالى ، وقد طبعت وحدها مستقلة ، وطبعت فى هذا الكتاب واسمها : « مفيدة العوام » .

« مُفِيدَة الْعَوَام »

نظم مولانا الشيخ صالح الجعفرىّ رضى الله عنه :ـ

يقول راجى رحمة الرب العلى * الجعفرىُّ صالح نسلُ الولى
الجعفرىّ (١٠٥) ساكن الجنان * معلّم للعلم والقرآن
الحمد لله على التوحيد * ننجو به من ربقة التردد
ثم الصلاة بالسلام السرمدى * على النبى المصطفى محمد
وآله أهل التقى والطهر * ألقى بها النجاة يوم الحشر
وبعد فالعلم بذا التوحيد * فرض محتم على العبيد
وهذه أرجوزة صغيرة * لكنها فى علمها كبيرة
سميتها مفيدة العوام * أرجو بها موائد الإكرام
وأسألُ الله الكريم البارى * قبولها فى البدو والأمصار
ونَفْع حافظ لها وقارى * وافتح لهم خزائن الأسرار
أرجو بها القبول والسعادة * والـيُسْر والتوفيق والإفادة
ودفع حاسد وما يريد * ياحىُّ ياقيوم يامريد

---

(١٠٤) إبراهيم : من الآية ٢٧ .

(١٠٥) يقصد جده الشيخ صالح الجعفرى الكبير الولى العالم العارف بحفظ القرآن بدنقلا .

قد أوجب الله على الإنسان * معرفة المهيمن الديَّان
فواجب معرفة لما يجب * فى حقه والمستحيل فاحتسب
وما يجوز إن عرفت فالزم * ومثل ذا لرسله محتم
فواجب فى حقه تعالى * كل كمال قد أتى إجمالا
ويستحيل ضده عليه * من المصير راجع إليه
فواجب فى حقه الوجود * جلّ الإله الواحد المعبود
والقدم البقاء للقدير * مخالف لِخَلْقه الكثير
قيامه بنفسه العلية * أوجب له كذاك وحدانيهْ
وقدرة إرادة والعلمُ * كذا الحياة قد أتانا العلم
سَمْع له وبصر كلام * سبحانه مقدّس علَّامُ
وهذه الصفات سبعٌ قد أتت * وبالمعانى عندهم قد علمت
ومعنوية له تعالى * سبع صفات فاحذر الجدالا
ككونه جلَّ عن التشبيه * أى قادراً فى غاية التنزيه

جلَّ المريدُ عالم الأشياء * حيٌّ سميع خالق الأفياء
وهو البصير فى دجى الظلماء * متكلم وصادق الأنباء
ويستحيل ضدُّ ذى الصفات * على الجليل مُنزل الآيات
العدم الحدوث والفناء * مماثل للخلق لا يجاءُ
كذا احتياجه إلى سواه * كذا تعدد له يأباه
فى الذات والصفات والأفعال * جلَّ إله العرش عن مثال
عجز كراهة كذاك الجهل * وموته وصمم ذا نقل
كذا العمى وبكم منفى * عن الإله وهو العلىُّ
وفِعْلُ ممكن عليه جازا * أو تركه ومن دراه فازا

فواجب فى حق رُسل البارى * الصدق فى الأقوال والأخبار
أمانة تبليغهم فطانة * والكلّ معصوم له صيانه
ويستحيل كذب خيانة * كذاك كتمان فخذ بيانه
كتمانهم شيئا من الأحكام * كذا بَلاَدَة لدى الأحلام
وجائز فى حقّهم كالنوم * والأكل والشراب عند القوم

وهـذه الخمسـون واجب علـى * كل الأنـام فَهْـمـهـا على الـولا
تنبيك عنهـا كلمـة التـوحيـد * فلا تكـن فى الأمـر ذا ترديد
ياسـعـد من بذكـرهـا يوالـى * يحـى بهـا الأيام والـلياليـى
فذا موفـق كذا سـعـيد * قد جاءه الـفـتـوح والـتـأييد
لاسـيمـا بالـذكـر بالإثـنـين * فلازم الـذكـر بكـل أيْن
تقـول لا إلـه إلا الـلـه * محـمـد أرسـله الإلـه
فالـمـصـطفى وسـيلة الـقبـول * أكـرم به من صادق رسـول
بغـيره إيمـانـنـا لايقـبـل * ومَـنْ قلاه كافـر مجـنـدل
والـحـمـد لله على الـتـمـام * ثم صلاة الله بالـسـلام
على نبـىّ جـاء بالأحكـام * ورسـل أفـاضـل كـرام
ما الـجـعـفـرى سأل الـمجيبـا * فتـح الـهـدى ميسراً قريباً
كذاك للأصـحـاب والأحـبـاب * من خالـق مُدبِّـر وهـاب
فإن أردت حفـظهـا توسّـل * بأحـمـد نبـينـا الـمـفـضّـل
عسـاك أن تحـفظ ما نظمـتـه * من درر الـتـوحـيد قد بينـتـه
بنـوره تهـدى إلـى الـرشـاد * فإنـه وسـيلة الـعـبـاد
وبـالـصـلاة دائـمـا عليـه * إن شاء ربـى واصـلاً لديه
وتـم نظمـهـا ببـعض ليلـهْ * بالأزهـر الـشـريف يوم الـجـمعـهْ
سـألـت مولاى لكـل قارى * لنـظمـهـا سعـادة الأخـيـار
كذاك ختـم الـخـير للجـمـيع * من غير تفـريق ولا تضـيـيـع
أبياتـهـا خمسـون مع ثمـانيهْ * من فَضْـل ربـى نظمـهـا أتى لِيهْ

انتهت هذه المنظومة التى جمعت أهم مسائل علم التوحيد ، وهى ما يجب لله تعالى ، وما يستحيل ، وما يجوز ، وما يجب للرسل وما يستحيل وما يجوز .

ويتضح فيها تمكن الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ من هذا الفنّ وهو نظم العلوم ، ويظهر فيها تأثره بما سبقه من منظومات ولاسيما نظم « جوهرة المريد فى علم التوحيد » للعلامة إبراهيم اللقانى ولاسيما عن قوله :ـ

وهـذه الخمسـون واجب على * كلّ الأنـام فهـمـهـا على الـولا

تنبيك عنها كلمة التوحيد * فلا تكن فى الأمر ذا ترديد

فقد أصاف ، ووضح الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ إلى ما نظمه العلامة اللقانى بقوله :ـ

وجامع معنى الذى تقررا * شهادتا الإسلام فاطرح المِرَا

ولقد كان رضى الله عنه ـ كثير الاستشهاد بنظم الجوهرة (١٠٦) ، مع الاستعانة بشرح العلامة البيجورى عليها (١٠٧) ، ومن المصادر التى رجع إليها الإمام الجعفرىّ كثيراً : منظومة سيدى أحمد الدردير فى التوحيد المُسمَّاة : الخريدة (١٠٨) ، والعلامة الشيبانى الأزهرى فى منظومته المُسمَّاة : الشيبانيه (١٠٩) أو المنظومة الأزهرية (١١٠) ، وجامع كرامات الأولياء للنبهانى (١١١) ، وأيضاً فإنه نشر رسالة الشيخ محمد عليش شيخ السادة المالكية بالجامع الأزهر الشريف فى وقته ، وهى رسالة مختصرة فى علم التوحيد اسمها : « تقريب العقائد السنية بالأدلة القرآنية » (١١٢) .

ومسائل علم التوحيد التى تعرض لها رضى الله عنه بالشرح والتعليق كثيرة ، وهو عندما يناقشها يستدل عليها بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة المجتهدين ، وهو يتناول المسائل برؤية ممحصة ، وفهم ثاقب فلا ينقل أقوال العلماء السابقين وفقط . بل يناقشها ويختار الراجح منها .

كما أنه ـ رضى الله عنه ـ كان يخاطب أبناءه ومريديه فيعلمهم كيف يكون التعرض لمسائل التوحيد والعقيدة ، فمنهج التربية عنده يساير مَنْهج التعليم .

---

(١٠٦) المعانى الرقيقة : ٨ .
(١٠٧) فتح وفيض : ٢١ ـ ٢٣ .
(١٠٨) منبر الأزهر ٤٢
(١٠٩) المعانى الرقيقة : ٨٨ .
(١١٠) فتح وفيض : ١٣٦ .
(١١١) المعانى الرقيقة : ٢٣ .
(١١٢) فتح وفيض : ٣٦ ـ ٥٩ .

اسْتَمِعْ معَنا أيها القارىء الكريم إلى حديثه عن مسألة « عصمة الأنبياء والمرسلين » . يقول رضى الله عنه : (١١٣) .

« مسألة : واعلم يا أخانا فى الله يامَنْ وفَّقه الله : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معصوم قبل النبوة وبعدها عن الصغائر والكبائر ، وكيف لايكون كذلك وقد قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

« أدَّبنى ربىّ فأحسن تأديبى » (١١٤) .

فهذا الحديث أعظم دليل على العصمة قبل النبوة وبعدها ، إنَّ المُربِّى يغفل عن مربيه ، فيقع فى الخطأ ، والله تعالى ليس كذلك ، ومن أدبه له وتربيته أن شرح صدره عند الطفولة ؛ ليتلقى عهد الطفولة بعزة وكرامة واستعداد ، فكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من أكمل الرجال حتى لُقِّب بالأمين ، وعند تمام الأربعين شقَّ صدره الشريف ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليستقبل الوحى وعهد النبوة والرسالة ، وليلة المعراج شقَّ صدره الشريف ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأجل الإسراء والمعراج ، فهو ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ معصوم مدة حياته كلها ، محوط بعناية ربه وحفظه ، ومستعد للخيرات والبركات والكمالات .

فإذا أخلصت لله ، وشرعت فى عبادته فلا تفكر فى معصيته ، فإنه لاحَظَّ لك فيها ؛ لأنه سبحانه يغار على عباده ، وأهل حضرة ذكره ، ويحقق فيهم هذه الأوصاف التى يحبها ويرضاها لهم . قال تعالى :ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (١١٥) .

الحسنى : الإيمان والإسلام والتوفيق للقيام بالواجبات ، وتَرْك المنْهيات ، مُبْعَدُون فى الدنيا عمَّا يغضب الله تعالى من تَرْك واجب ، أو ارتكاب محرم قولاً أو فعلاً ، ظاهراً أو باطناً ، وفى الآخرة مبعدون عن النار وعذابها .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ هم سادات مَنْ سبقت لهم

---

(١١٣) انظر : المنتقى النفيس : ص ١٥٠ ـ ١٥٣ .

(١١٤) رواه ابن السمعانى فى أدبه الإملاء

(١١٥) الأنبياء : ١٠١ .

الحسنى ، وسادات مَنْ وعدهم الله تعالى بالحياة الطيبة . ويقول الله ـ تعالى ـ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١١٦) .

يعنى : قبل أنْ يرسل رسولاً يعلم سبحانه به ، ويُهَيِّئه لتلك الرسالة بالعصمة والاستعداد الروحى والخلقى .

وعلى ذلك فالذى أعتقده أن نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ معصوم قبل النبوة وبعدها من كل صغيرة وكبيرة وعادة مذمومة ، قد تولاه الله ولاية تَسْمُو على كل ولاية . قال تعالى :ـ

﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ﴾ (١١٧) أى : تولى الله أمرى كله فى جميع أحوالى وتطوراتى ، وفى هذا المعنى يقال : « تولَّى الله ـ سبحانه ـ نبيَّه وأدبه فأحسن تأديبه ، وربَّاه فأحسن تربيته » .

ومن المسائل التى بحثها رضى الله عنه فى كتبه ودروسه : مسألة الكرامة (١١٨) ، ورؤية المولى ـ عزّ وجلّ ـ فى الدنيا يقظة (١١٩) ، وحكم المقلِّد فى التوحيد (١٢٠) ، . . . . وغيرها .

وقد سار ـ رضى الله عنه ـ فى سائر مسائل التوحيد على مذهب أهل السنة وكان يسير على منهج الإمام أبى الحسن الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ يقول فى إحدى منظوماته :ـ

---

(١١٦) الأنعام : من الآية ١٢٤ .
(١١٧) الأعراف : ١٩٦ .
(١١٨) فتح وفيض ٢٨٠
(١١٩) المنتقى النفيس : ٨٧ ـ ٨٨ .
(١٢٠) فتح وفيض ٦٣

ومـالـك إمـامنـا فى المـذهب * وعقـدنـا كالأشعـرىّ الطَّيِّب [١٢١]

يقول رضى الله عنـــه :ـ

« واعلم أن طريقنا هذا مبنى على الكتاب والسنة ، وفقه المذاهب الأربعة ، وعقيدة الأشعرىّ فى التوحيد ، وأبى القاسم الجنيد فى التصوف ـ رضى الله عنهم أجمعين » [١٢٢] .

---

(١٢١) الإلهام النافع ٦٦

(١٢٢) مفاتح كنوز السموات والأرض : ص ١٣ .

« الفصـــــل الرابع »

« منزلة الإمام الجعفرىّ فى علـــم »

« الفقـــه والتشـــريع الإســـلامى »

أسلفنا أن الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ قد درس الفقه على يد كبار علماء عصره ، ومنهم الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية فى وقته ، وأنه كان مالكى المذهب ، ولكنه كان لايقتصر فى دروسه وفتاويه على مذهب الإمام مالك . بل يختار الراجح من أقوال المذاهب الأربعة ، وكان حريصاً على تنبيه السامعين فى دروسه والقارئين فى كتبه إلى مكانة الأئمة الأربعة وفضلهم ، وأنهم اجتهـدواْ فى فَهْم القرآن الكريم وتفسيره ، واستنبطواْ الأحكام من الأحاديث مع سَبْقهم وقُرْبهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

يقول ـ رضى الله عنه ـ مرشداً ومعلّما ومقوماً لاعوجاج بعض مدعى العلم الذين يعترضون على المذاهب :ـ

« وملأ العلماء كتبهم بالأحاديث الصحيحة المنقحة للعمل ، وأوّل مَنْ ألّف : الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس اليمنى المدنى مَسْكنًا ـ رضى الله عنه ـ فجمع كتاباً سمّاه « الموطأ » وجعله أبواباً ميسرة للفهم .

ومن العجب فى هذا الزمن ومما يؤسف : أن بعض الناس يقول : لامالك ، ولا شافعى ، ولا أبا حنيفة ، ولا ابن حنبل » لماذا ؟ يقول لك : أنا مجتهد ، أنا على الكتاب والسنة .

جاءنى رجـل أعجبتنى هيئتـه ، وقـال لى : أنا لاأعرف الأئمة . بل أنا على الكتاب والسنة ، ففرحتُ وقلتُ له : هل تحفظ القرآن ؟ قال : لا ليس بواجب ، فهذا الرجل مجادل ، مجادل . قلتُ له : هل تحفظ السنة ؟ قال : لا .

قلتُ له : أبْشِرْ فإنك قد دخلت فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١٢٣) . فقد افتريت على الله ـ تعالى ـ وادعيت أنك تحفظ لكتابه ، وأنت جاهل بكتابه ، وافتريت على النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وادّعيت أنك تعمل بالسنة وأنت جاهل بالسنّة .

السيوطى : جمع مائة ألف حديث صحيحة ، ومات قبل أن يستكمل الأحاديث ، وأنت لم تحفظ حديثاً واحداً من مائة ألف حديث . هذه عجائب الزمان .

الإمام أحمد : نقلواْ عن صدره ثلاثين ألفاً من الأحاديث الصحيحة بأسانيدها . سبحان الله !

قال علماء الحديث من السلف الصالح : إذا روى الإمام مالك الحديث فقد جاوز القنطرة . يعنى : لايُسْأل عنه بعد ذلك ، فهو حديث صحيح . رحم الله الأزهر وعلماء الأزهر ، حينما جمعواْ كتب المذاهب الأربعة وقرروها فى هذا المسجد ، ومنعواْ أىَّ مذهب آخر أن يدرس فى هذا الأزهر ، واستمرَّ الحال إلى يومنا هذا . أسأل الله تعالى أن يديمه ؛ لأن الدين هو الفقه ، والفقه هو المذاهب الأربعة . وما معنى المذاهب الأربعة ؟ .

الفَهْم الذى فهمه مالك من الكتاب والسنة ، والفهم الذى فهمه أستاذنا الشافعىّ من الكتاب والسنة ، والفَهْم الذى فهمه أبو حنيفة من الكتاب والسنّة ، والفَهْم الذى فهمه ابن حنبل من الكتاب والسنة ، ولم يأتواْ بشىء من عند أنفسهم .

مَذْهب : يعنى الشىء الذى ذهب إليه الإمام من التفسير ، ومن شرح الأحاديث النبـوية .

وبالعقل : بالله عليك : لو وجدت عالماً فى زماننا هذا ملأ طباق الأرض علماً ـ هل تسلِّم أنه أعلم من مالك ؟ .

الأئمة الأربعة من السَّلف الصالح ، روى البخارى عن عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال :ـ « خير القرون

---

(١٢٣) الأنعـام : من الآية ١٩٣ .

قرنى » أى : مائة سنة « ثم الذين يلونهم » مائة سنة « ثم الذين يلونهم » مائة سنة « ثم يأتى أناس كغثاء السَّيْل » أى : كالأوساخ التى تكون فى السَّيْل .

فالأئمة الأربعة من خير القرون ـ والحمد لله ـ وهذه معجزة للنبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يسبق لها مثال » (١٢٤) .

ويبسط الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ معنى الفقه والتفقه ـ فيقول :ـ « الفقه فى اللغة : هو الفَهْم ، وعرَّفه العلماء بأنه الأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية « القرآن والسنة النبوية » فالقرآن والسنة : دليل إجمالى ، وقوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ (١٢٥) . دليل تفصيلىّ ، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم :ـ « إنما الأعمال بالنيَّات » (١٢٦) . دليل تفصيلى يؤخذ منه وجوب النية فى الأعمال كلها .

ومن لم يعلم الأحكام وجب عليه تقليد إمام من المجتهدين الذين استنبطوا الأحكام التفصيليه من أدلتها الإجمالية ، وأمَّا مَنْ يقول : لا أتبع الأئمة ، فهو أجْهَل من حمار أم عمرو :

إذا ذهب الحمار بأم عمرٍو * فلا رَجَعَتْ ولا رَجَعَ الحمارُ

وقد قال الإمام إبراهيم اللقانى فى منظومته جوهرة التوحيد :ـ

فَمَالِكٌ وسائر الأئمةْ * كذا أبو القاسم هداة الأُمَّةْ
فواجبٌ تقليد حَبْرٍ منهمُ * كذا حكى القومُ بلفظٍ يُفْهَمُ (١٢٧)

ويحدِّد ـ رضى الله عنه ـ مصادر التشريع الإسلامى ـ التى يقوم عليها الفقه على اختلاف مذاهبه فيحصرها فى :ـ

« الكتاب ، والسنة ، والإجماع والقياس ، وهذه الأربعة متفق عليها » (١٢٨) .

---

(١٢٤) انظر : منبر الأزهر : ص ٤٧ ـ ٥٠ .
(١٢٥) النـور : ٥٦ .
(١٢٦) رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .
(١٢٧) درس الجمعة : ٢/ ١٢٦ .
(١٢٨) درس الجمعة ٢/ ١٧٥

وأمَّا عن تراثه ـ رضى الله عنه ـ الذى تركه فى علم الفقه ، فهو يتمثل فى الكثير من الأحكـام والفتـاوى الفقهية التى ملأت دروسـه من إجـابـات على أسئلة الحاضرين ، أو شرح لأحكام العبادات التى ترتبط بالمناسبات كالصيام والحج ، وله أيضاً كتاب « أسرار الصيام » أفرد فى آخره فصلاً لبيان أحكام الصيام ـ على مذهب الإمام مالك ـ فى وجازة وإفادة ، وله أيضاً رسالة فى أحكام الحج وبيان مناسكه .

وقد كان رضى الله عنه ـ يميل فى فتاويه إلى الشرح والتبسيط لأنه يريد أن يفقه الجميع الحكم الفقهىّ على اختـلاف مداركهم ، وأيضـاً فإنـه كان يناقش كثيراً المسائل التى يدور حولها خلاف بين الأئمة ـ وهى فى الفروع ـ فيعرض كل رأى ، ويبين وجهته ، كما تحدث عن القنوت وأحكامه فى المذاهب الأربعة ، فعرضها هذا العَرْض الشافى الوافى ـ فقال :ـ

« الإمـام أبـو حنيفة لايقنت فى الصبح ، ويقنت فى الوتر قبل الركوع سِرًّا ، والإمام الشافعىّ : يقنت جَهْراً فى الصبح بعد الرفع من الركوع ، والإمام مالك : يقنت سِرًّا بعـد قراءة الفـاتحـة والسـورة قبـل الركوع . وإذا صلَّى مالكى خلف شافعى ، فعليه أن يتبعه فى التأمين أى : يقول آمين ، وإذا صلَّى شافعى خلف مالكى فإنه يقنت سرًّا خلف المالكى .

ومَنْ ترك القنوت فصلاته صحيحة ، ولا يسجد سجود السهو لتركه فإذا صلى المصلِّى ونسى القنوت ، وسجد سجدتين للسهو قبل السلام فصلاته باطلة ولو كان جاهلاً بالحكم ؛ لأن القنوت مستحب ، أما لو سلَّم وسجد سجدتَيْن للسهو فلا تبطل صلاته ؛ لأنه يكون قد أتمَّ صلاته قبل ذلك .

وكلمة « قنوت » أى : دعاء . قال تعالى « وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ » (١٢٩) . أى : من الدَّاعين .

ثم بيَّن ـ رضى الله عنه ـ أدلة الأئمة التى بَنَوْا عليها اجتهادهم فقال :ـ

« ورد أنَّ النبىَّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ صلَّى الصبح ، فقنت قبل الركوع

---

(١٢٩) التحريم/ ١٢ .

كما روى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ وبهذا أخذ الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ وورد أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ صلَّى الصبح وقنت بعد الركوع جَهْرًا وبهذا أخذ الإمام الشافعى .

وورد أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ صلَّى ركعتى الصبح ولم يقنت بينهما ، وورد أيضاً أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قَنَتَ فى الوتر قبل الركوع وبهذا أخذ الإمام أبو حنيفة ، وبعض الشافعية يقنت فى رمضان فى الوتر تقليدًا للإمام أبى حنيفة » أ هـ (١٣٠) .

بهذا الأسلوب السَّهْل الواضح كان رضى الله عنه يناقش مسائل الفقه ويستخرج الأحكام ، ويعلمها للناس بعيداً عن التكلُّف والتعقيد .

هذا وإن للإمام الجعفرىّ رضى الله عنه ـ كثيراً من الفتاوى فى مسائل الطهارة والصلاة على المذاهب الأربعة تملأ ـ لو جمعت ـ كتاباً مستقلاً يفيد النَّاس عامتهم وخاصتهم .

كما أنه كان رضى الله عنه ـ يتعرَّض باستفاضة لبعض الأحكام التى يجادل فيها بعض الناس بدعوى السلفية ، وغيرها .

ومن هذه الأحكام : صلاة التراويح فى رمضان وعدد ركعاتها (١٣١) ، وختام الصلاة جَهْرًا (١٣٢) ، . . . . وغير ذلك .

يقول رضى الله عنه . فى مَدْح أئمة المذاهب الأربعة رضوان الله عليهم :ـ

ولمـالـك فَضْـلٌ كبحـرٍ زاخـرٍ * جمـع الـعلوم وسـائـر الأخْبَـارِ
للشـافـعـىّ مكـارم أَكْـرِمْ بِهِ * نَشَـرَ الْـعُـلُومَ بِسَـائِـرِ الأَقْـطَارِ
وأبـو حنيفـة ذُو آجْتهـادٍ وَاسعٍ * وَعَـنْ الغوامِض كَاشِفُ الأَسْتَـارِ
ولأحـمـد فَضْـل تَورَّعَ دَائِـمًـا * جَمَـعَ الْـحـدِيثَ بِمُسْـنَـدٍ مِدْرَارِ

---

(١٣٠) درس الجمعة ١/ ١٣٩ ، ١٤٠
(١٣١) درس الجمعة ١/ ١٤٣ .
(١٣٢) درس الجمعة ١/ ٢٨

يَارَبّ فَارْضَ عَلَيْهِمُ عَدَدَ الْأُلَى * قَرأُوْا لِفِقْهِهِمُ مدَى الْأَعْصَارِ
عَصَرُواْ العُلُومَ تَشَرَّفَتْ أَعْصَارهُمْ * بِبَدائِعِ الْأَحْكَامِ بِالْمِعْيَارِ
يَارَبّ فَانْفَعْنِى بِمَا قَدَّرْتَه * مِنْ فَيْضِ عِلْمٍ صَابَ كَالْأَمْطَارِ
وَاجْعَلْ لَهُمْ فِى العالمينَ أَئِمَّةً * يحيون فقههمُ كشَمْسِ نَهَارِ
يتلون للفقه البديع قراءة * تُحْيِي التراث بسائر الْأَمْصَارِ
وَالْأَزْهَرِ الْمَعْمُورِ يَبْقَى دَائِماً * يَمْحُوُ لِأَهْلِ الْحِقْدِ وَالْإِنْكَارِ
مَنْ مثل مالك إنْ سَمِعْتَ حَدِيثَهُ * والشافعى مُوضِّح الأَخْبَارِ
وأبى حنيفة من غدا متقلدًا * سَيْفَ الذَّكَاءِ يقومُ فِى الْأَسْحَارِ
مَنْ مثل أحمد إنْ غَدَا مُتَحَدِّثاً * يَرْوِى الْحَدِيثَ بِهَيْبَةٍ وَوَقَارِ(١٣٣)

---

(١٣٣) الديوان : ٢/ ٣١١ - ٣١٢ .

« الفصـــــــل الخامس »

« منزلة الإمام الجعفرىّ فى الســـيرة والشـــمائل »

كان اتصـال الإمام الجعفرى بالسيرة والشمائل اتصالاً مبكراً قد سبق اتصاله بكثير من العلوم الإسلامية الأخرى . .

فمنذ أن طرق اسم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سَمْعَهُ تشوقت روحه إلى المعـارف الأولية عن رسـول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتاريخ حياته وصفاته ومعجزاته إلى آخر أبواب السيرة .

وفى جميع مباحث السيرة والشمائل التى تناولها شيخنا الإمام الجعفرىّ تلحظ روح المحبة والمودة ، وإظهار رفعة قدر النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتعريف المسلمين بحقوقه الواجبة عليهم .

وقد ألَّف ـ رضى الله عنه ـ فى السيرة رسالة مختصرة أسماها ـ « السيرة النبوية المحمدية » . سار فيها الشيخ على نَهْج كثير من أئمة الحديث والسيرة الذين ألَّفوا رسـالة عن « المولد » اختصرواْ فيها السيرة النبوية كابن تيمية ، وابن الجوزى ، والمناوى والبرزنجى ، وسيدى أحمد الدردير ، وسيدى محمد عثمان الميرغنى ، والشيخ محمود خطاب السبكى ، . . . . وكثير غيرهم قديماً وحديثاً .

وقد جاء هذا (المولد) فى ست وعشرين فصلاً طرق فيها الشيخ كثيراً من أبواب السيرة : من أفضلية النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكونه نورا حسيًّا ومعنوياً ، ثم حمله وولادته ورضاعته ، . . . . إلخ .

وفى هذا المؤلف القيّم تجـد روح الجعفرىّ الصوفية الولهى بحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتشـوُّق إليه ، كمـا تجـد عقـل الجعفرى المستقصى لأحداث السيرة المستنبط للأحكام والآداب ، كل هذا فى نظم رائع ، وأسلوب بديع . . وإليك أيها القارىء فصلاً مما كتبه الإمام الجعفرى فى (أنه صلى الله

عليه وآله وسلم ـ نور ﴾ [1] :ـ

قال ـ رضى الله تعالى عنـــه :ـ

(واعلم أنـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نورٌ لاكالأنوار ، بل يفوق جميع الأنوار الدنيويّة والأخروية * وفى ليلة المعراج قال جبريل ـ عليه السلام : لو تقدَّمت خطوة لاحترقت من الأنوار فتقدَّم ـ صلى الله عليه وسلم وحده فى تلك الأنوار فما أجلَّه وما أقواه * .

ولمَّا كان صلى الله عليه وسلم ـ نُورًا أقوى من الأنوار الجبرائيلية * كُشِف له الحجاب فرأى ربه تعالى وما رآه أحد سواه * فهو صلى الله عليه وسلم السراج المنير الـذى أضاء قلوب المؤمنين إنْسًا وجنًّا بأنواره الباقية الحسيَّة والمعنوية * السميع الذى سمع كلام ربه القديم بلا حَرْفٍ ولا صوتٍ ولا بالكلمات التى تُقْرأ بالأفواه * البصير الذى أبصر ربه بلا كَيْفٍ ولا انحصار سبحانه وتعالى من إله * ولو كانت الدنيا بحذافيرها فى المكان الذى كان فيه صلى الله عليه وسلم عند التجلِّى لصارت كالهبـاءات الذرّية * فسبحان مَنْ ثبَّت نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقوَّاه وأيَّده وأعطاه * وأما أنواره الحسيَّة فقد رآها كثير من الصحابة رضى الله عنهم بالرّواية الجليَّة * وكان يغلبهم وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتارة يقولون كالشمس وتارة يقولون كالقمر عند تمامه فى حُسْنِهِ ومرآه * وقالواْ : إنه لاظلّ له لِلَطافةِ ذاته النورانية * .

فإن قيل : كيف صار صلى الله عليه وسلم رجلاً وهو نور ؟ يُجَابُ : بأنّ جبريل كان يأتى فى صورة الصحـابىِّ دِحْية وهو نور بلا شكٍ ولا اشتباه * فالذى جعل جبريل عليه السلام النور رجلاً فى صورة إنسانية * قادرٌ على أن يجعل حبيبه صلى الله عليه وسلم النور إنساناً ظاهراً كى نكلمه ونراه * وكان عرقه صلى الله عليه وسلم كالمسـك طيباً وريحاً ، وكاللؤلؤ لوناً ، ولو كان جسده كالأجساد ما ظهرت تلك الروائح الطيبة الزكية * وكانواْ يُصْلِحُون بعرقه طيبهم ويتبركون به ويمسحون به على أطفالهم تبرُّكا كما أخرج ذلك البخارىُّ رحمه الله ورواه * .

---

(١) السيرة النبوية المحمدية : ص ٧ ـ ١٢ . ط ثانية ، مطبعة نوبار .

قد ورد فى الحديث أنَّ أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت تخيط ثوبًا بليلٍ فسقطت الإبرة من يدها فلم تهتد إليها لظلمة الليل الظلمانية فدخل النبىُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأضاء المكان ورأت الإبرة فتمثلت ببيتٍ من الشِّعْر ثناءً على رسول الله * فسُرَّ النبىُّ ـ صلى الله عليه وسلم بثنائها وقبَّل رأسها من أجل مدحها لذاته المكملة النورانية * أخرج هذا الحديث الحافظ السيوطىّ رحمه الله فى الخصائص الكبرى وحسَّن إسناده وارتضاه * فعليك يا أخانا فى الله تعالى بالإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سيمّا بالصَّلاة العظيمية تَنَلْ ما ناله الواصلون من مشاهدة ذاته ومُحيَّاه * وكان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ إذا ساروا فى طريق مظلم صحبهمُ النور يضىء لهم فإذا تفرَّقوا انقسم النور وصار مع كلِّ واحدٍ نور يُوصِّله إلى داره المعنية * وذلك من نوره ـ صلى الله عليه وسلم . أخرج ذلك البخارىُّ رحمه الله وحكاه * ولا تزال رؤيته صلى الله عليه وسلم يقظة مستمرة لأصحاب الطريقة المحمدية الأحمدية * وقد رَأَوْهُ يقظة كما حصل لشيخنا السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه وأرضاه * .

وقدنقل ذلك السيد السنوسى ـ رضى الله عنه ـ فى كتبه الظاهرة الجليَّة * وقد حصل له ذلك أيضاً ، ولا يزال مستمراً ذلك الفضل لمن سلك طريقه وذكر وِرْدَهُ وتلاه * .

(اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد خير البرية وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ماوسعه علم الله) .

وقد تعرَّض شيخنا الإمام رضى الله عنه إلى مباحث من مسائل السيرة فى كتابه (فتح وفيض وفضل من الله) ناقش فيها بعض قضايا السيرة التى تحتاج إلى بسط واستدلال ومنها :

فصل فى حكمة دفنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الأرض [٢] .

وبعضها يبدو منها إشراقات الفهم الصوفىّ مثل « فيض من الله فى الأحرف

---

(٢) فتح وفيض : ٦٩ ـ ٧٨ .

الخمسة لكلمة « محمد » صلى الله عليه وآله وسلم [٣] .

وبعضها متصل بحديث القرآن عن النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [٤] . [٥]

وبعضها يكشف عن مدى مكانة النبى صلى الله عليه وسلم لدى أصحابه كفصل (التبرُّك بآثاره صلى الله عليه وسلم [٦] ، وتقبيل يده صلى الله عليه وسلم [٧] .

وفى ديوان الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ تجد حديثاً فيَّاضاً عن النبى وشمائله وأخلاقه ومعجزاته وحقوقه ، نرجى الحديث عنه إلى الباب الخاص بديوان الجعفرى فى الجزء الثانى إن شاء الله .

---

(٣) فتح وفيض : ٧٩ ـ ١١٠ .
(٤) الكهف : من الآية (١١٠) .
(٥) فتح وفيض : ٢١٩ ـ ٢٢٩ .
(٦) فتح وفيض : ٢٩٩ .
(٧) فتح وفيض : ٢٩٣ .

« الفصـــــــل السادس »

« منزلة الإمام الجعفرىّ فى علم العربيـــــة

يعد علم العربية ـ بأقسامه المتعددة ـ أساساً فى تكوين ثقافة الْعَالِمْ ، وبدون هذه العلوم لايستقيم اللسان ، ولا يتضح للعالم بيان .

ولقد اهتم الإمامُ الجعفرىُّ ـ رضى الله عنه ـ بعلوم اللغة جميعها ، وتلقى دروسها على يد نخبة من علمائها منهم الشيخ على الشائب ـ رحمه الله ـ وامتدَّ اهتمامه باللغة وعلومها ليصل إلى درجة التأليف ، فألَّفَ « نظم الآجرومية فى علم العربية » ـ يقول فى مطلعها ـ رضى الله عنه :ـ

يَقُـولُ رَاجِـى رَحْـمَـةِ الـعـلىّ * أى صالـح الـمشهـور بالمـدنىّ
الـحـمـدُ للّهِ وصـلَّى الـبـارى * على نبـىٍّ خافض الـكـفَّـار
وبـعـد فالـنحـو هو الـسـنـانُ * لكـل عالـم له بيـانُ
وهـذه أرجـوزة مبـاركـةْ * قد وضـحت لنحـونا مسـالـكـهْ
سميتـهـا مفـيـدة الإخـوان * جامعـة لأوضـح المعـانى (١٣٤)

ويقول فى باب « الفاعـــل » :ـ

اسْمٌ أتى مِنْ بَعْـد فِعْـل وَارْتَفَـعْ * قُلْ فاعـلٌ نحـو ترقَّـى الـمُتَّبِـعْ
وظـاهـراً ومـضـمـرًا يكُـونُ * كقـام زيـد ويحـوم نـون
وقـال قام العـارفـان فى سـحـر * كذا يقـول الأفـضـلون للدُّرَرْ
وقيل : نام الـمـفـلسـون الـليلاَ * ولا يمـيلُ الـمُـتَّـقُـونَ مَيْلاَ
صام أخـوك فى الـنـهـار صومًـا * وهـل يجىءُ لِيَقُـودَ القَـوْمَـا (١٣٥)

---

(١٣٤) نَظْم الآجرومية : ص ٢ .
(١٣٥) نظم الأجرومية : ص ٧ .

ومن ثنايا ماعرضت لك من نماذج تشرق علينا روح الجعفرىّ الذى عشق التوجيه والإرشاد ، فَبَثَّهُ فى مؤلفاته كلها ، حتى وهو يؤلف فى علم العربية ، ويمثل لقواعدها . .

ولن نجد كلاماً أصدق ، ولا أبلغ من كلام أحد العلماء الذين عاصروا الإمام - رضى الله عنه - وهو الشيخ محمد محى الدين محمد حاج السودانى تلميذ الإمام الجعفرىّ ، وزميله فى سنوات الدراسة ، وقد أهدى إليه مولانا الجعفرىّ كتابيه « البردة الحسنية الحسينية » و « نظم الآجرومية » ، وقد أرَّخ لهذا الخطاب بتاريخ : ٢٨ جمادى الثانى سنة ١٣٧٣ هـ ، وفيما يلى نص الخطاب :-

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« إلى مولاى صاحب الفضيلة تذكرة سرى ، وسحبان عارف هذا الزمان ، العالم العامل الموفق الذائق ، الذى وهبه الله العلم والعمل ، وحبّ رسول الله وآل بيته - صلى الله عليه وسلم - ووهبه التوفيق لخدمة الشرع الشريف ، والدفاع عن الدين بالحجة الباهرة ، والنفع لمصر والسودان . زادك الله نوراً ، وزادك مددًا وفتوحًا ياسيدى وحبيبى ، العلامة المحقق ، بل الولىّ النَّاصح لعباد الله فى عصر الفتن ، وضرائب العقائد . . . .

تناولتُ هديتك ، بل حُسْن عنايتك بى ، كتابيْن عظيميْن عندى ، من تأليفك النافع « البردة الحسنية الحسينية » و « نظم الآجرومية » تتبعتُ جُلَّهما ، ثم عدت للنظم ، أتذوق حلاوة الأمثلة نحو قولكم فى علامات الخفض :-

ونحو سكران الذى لاينصرف * اخْفِضْهُ بالفتحة فيما قَدْ عُرِفْ
تَقُولُ صَلَّيْتُ على أَحْمَدِ فِى * لَيْلَتِنَا أَلْفاً بِلاَ تَكَلُّفِ

فعزمتُ أن أعمل فى تحفيظه لطلبة المعهد الوطنى هنا ، وكنتُ أتتبع تلك الأمثلة التى تعطينا من كل فنّ نصيباً موفوراً ، إلى أن وصلت لآخر هذه الحديقة النديَّة فى براعة الكمال .

قلتم : ـ حفظكم الله ـ بعد الصلاة والسلام على خاتم الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « من الرجال الصالحين الخيرة » ، وأنت منهم ، والعلماء العاملين « وأنت منهم بل من خيرتهم » .

أعجبت جداً بقـــــولك :ـ

وَاخْـتِـمْ بِخَـيْرٍ لِلَّذِى رَآنِـى * يَعـيِشُ مَحْـفُـوظًـا مِنَ الـفَـتَّـانِ

آمين ـ آمين ـ آمين . هكذا العالم الموفق ، يعرف الدَّاء ويصف الدواء فى درسه وتواليفه ، وعهدناك هكذا منذ برز للناس آثار قلمك البارع ، وكلامك اللابس ثوب قلبك الطاهر . . . . وفى الختام ـ أرجو أن تجعلونى موصولاً فى خاطركم ، وتذكرونى على ما فىَّ من عوج ، واطلبواْ لى من الله حُسْن الختام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

البـــــــاب الثالث

منهج الإمـام الجعفـــــــرى الصوفى

الفصـــــــل الأول

سلوك الإمام الجعفرى الطريقـــة الأحمـــدية

سلك الإمام الجعفرىّ رضى الله عنه ـ طريق السيد الشريف أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنـه ـ وهى تقوم على أسس التصوُّف الإسلامى الحقّ : على تجرُّد القلب فى إخلاص العبادة لله تعالى ، والالتزام بالقرآن والسنة . يحدثنا عنها أحد تلاميذ السيد أحمد بن إدريس ، وهو القاضى الحسن بن أحمد عاكش :ـ

« واعلم أن طريقته هى اتباع الكتاب والسنة ، وكان يقول : التصوُّف هو تجريد القلب لله تعالى ، وهو فى الحقيقة : علم الوراثة الذى نتيجته : العمل المشار إليه فى حديث :ـ

« مَنْ عَمِلَ بما عَلِم أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْم ما لَمْ يَعْلَمْ »[1] .

ويزيدنـا تلميذه السيد عبـدَ الرحمن بن سلمان الأهدل غناء وفائدة فيقول :ـ « وهذا السيد الجليل طريقته السالك لها ، والداعى إليها : الإقبال بالكلية على تدبُّر معانى كتاب الله تعالى ، ولقد ذكر لى ـ عافاه الله ـ أنه مكث عدة سنين لا شغل له إلا تلاوة كتاب الله ، والتعرُّض لنفحات أسرار علومه ، ولطائف رقائقه وفهومه ، حتى منح الله به مامنح ، وفتح بما فتح »[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس .

(٢) المنتقى النفيس : ١٣ .

وطريقته ـ رضى الله عنه ـ قائمة على ارتباط سالكها بآخرته وهى دار المتقين ، ورجاء العابدين ، ومنتهى أمل المؤمنين .

ومن أبرز سمات هذه الطريقة : كثرة الصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهى أعظم ما يترقىّ به المريد بعد أن يُصَحِّح بدايته ويقوّم سلوكه على طريق الكتاب والسنة ، فيزداد قرباً واتصالاً من جميع الوجوه برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم إنَّ الغاية العظمى من هذا الطريق هى الاستقامة على نهج النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ واتباع طريقته ، وقد كان السيد أحمد بن إدريس يؤكد هذه القاعدة بقوله : (الاستقامة عندنا هى غاية الكرامة) .

وكان يقول : جلّ قصدنا اتباع النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وخطوة القدم بالقدم ، فإنه كثيراً ما رآنى أمشى خلفه ، واضعاً قدمى حيث يضع قدمه ، فيقول لى : امش فى طريقى حتى يوصلك إلينا ، وإذا وصلت إلينا وصلت إلى حضرة « كان الله ولا شىء معه » [٣] .

سـند الطريق الأحمـدىّ وسلسـلته :ـ

تلقى السيد أحمد بن إدريس هذا الطريق عن سيدى عبد الوهاب التازى ، عن سيدى عبد العزيز الدباغ ، عن الخضر ـ عليه السلام ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم [٤] .

أعـلام الطريق الأحمـدىّ ورجالـه البـارزون :ـ

أخـذ عن السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ الطريق أعلام نابهون ، وعلماء عاملون ، ورجال متحققون متشرّعُون :

فقد تلقى الطريق عنه السيد محمد بن على السنوسى ، فصار إماماً فى المعارف والعلوم ، وتلقاها عنه السيد محمد عثمان الميرغنى ، فشرب من بحر الحقيقة سرّ الشريعة السائغ الهنىّ ، وتلقاها عنه السيد إبراهيم الرشيد ، فشرب من بحر العلم

---

(٣) المنتقى النفيس : ص ١٥ .

(٤) المرجع نفسه : ص ١٧ .

المفيد ، وتلقاها عنه السيد ابن الأهدل ، فشرب من بحر العلوم كل علم عليه المعوّل ، وبحبه السيد أحمد من مكة إلى زبيد تحول ، وتلقاها عنه الشيخ المدنى ظافر ، فنال تطهير الباطن والظاهر ، وتلقاها عنه السيد السواكنى المجذوب ، فنال السرّ الموهوب ، وتلقاها عنه البليابى ، فدخل فى زمرة الأحباب وتلقاها عنه الشيخ أحمد الصاوى ، فبها هو للفضل حَاوِى ، وتلقاها عنه الشيخ الحسن السودانى ، فنال غاية الأمانى ، وتلقاها عنه الشيخ عبد الله أبو المعالى ، فنال بها الرُّتب العوالى ، وتلقاها عنه الشيخ التوم السودانى ، فدخل حضرة القُرْب والمعانى ، وتلقاها عنه الشيخ المكى ، فصار عن مآثر شيخه يقول ويحكى ، وتلقاها عنه الشيخ عبد الله السنّى ، فغرف من كلّ فنّ ، وتلقاها عنه خلق كثيرون فنالواْ السرّ المصون ، وتلاميذهم أخذواْ عنهم ، فصاروا أقمار الدياجى ، كلٌّ يرشد الناس ، ولربّه يُنَاجِى » [٥] .

بهذه الكوكبة اللامعة من الأعلام انتشرت طريقة السيد أحمد ابن إدريس ـ رضى الله تعالى عنه ـ فى اليمن والحجاز ومصر والشام وبلاد الترك والهند وحضرموت والسودان وجاوة والمغرب وليبيا والصومال والحبشة ، وأقبلت الناس على أسانيده وعلومه وأوراده .

جُذُور الطريقة الجعفريـــة :ـ

أخذ شيخنا الجعفرىّ ـ رضى الله تعالى عنه وعن أجداده ـ الطريق الإدريسية عن شيخه السيد محمد الشريف سبط السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ يقول ـ رضى الله عنه :ـ

« وقد أجازنى بهذا الطريق شيخى وأستاذى ، مربى المريدين الشريف السيد محمد عبد العالى ، عن والده سيدى عبد العالى عن شيخه العلامة السيد محمد بن على السنوسى ، عن شيخه العارف بالله السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنهم أجمعين » [٦] .

---

(٥) شهد مشاهدة الأرواح التقيّة : ص ٥ ـ ٦

(٦) المنتقى النفيس ; ص ٢٠٧ .

ولقد كان ـ رضى الله عنه ـ على اتصال وثيق وارتباط روحى عميق بمشايخ الطريق الأحمدىّ ، وكان لهم أثر فى تربيته ـ صوفياً ـ يقظة ومناماً وكان لشيخه الذى تلقّى عنه الطريق ـ السيد محمد الشريف ـ الأثر الأكبر فى نفسه ، فكم صاحبه ولازمه ، وراقب حاله ، واقتدى بأقواله وأفعاله ، وكان يثنى عليه كثيراً فى كتبه ، وفى دروسه وفى قصائده ، ومما قاله عنه :ـ

« ولشيخى هذا أسرار وكرامات ونفحات وعجائب وغرائب ، سرُّه مكتوم ، وأمره معلوم ، ظاهره باطن ، وباطنه ظاهر ، له سيف قاطع ، ونور ساطع ، وقد ورث عن جده ووالده أحوالاً ، ونال من بركتهما منالاً ، كان مرَّة يمشى خلف والده ببلدة « دنقلا » بالسودان والناس يزدحمون بالإقبال والإجلال ، وحدثته نفسه : هل أنا إذا بلغت عُمْر والدى هذا يكون لى من الاحترام والإكرام ما حصل له ؟ فالتفت إليه والده سيدى عبد العالى ـ رضى الله عنه ـ وقال له : وأكثر من هذا يامحمد . فكان ما قال » (٧) .

ومن كثرة ملازمة الجعفرىّ لشيخه وحبه له ، وحبّ شيخه له حدث بينهما اتصال قلبىّ وروحى ، وكان السيد محمد الشريف ينظر إلى تلميذه الجعفرىّ نظرة خاصة ، ويجعله دائما موضع نظره وعنايته ورعايته فكان بينهما حوار واتصال ، ولو لم تنطق الشَّفَاه بالكلمات ، وهذا ما ترويه لنا هذه القصة التى يحكيها الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ يقول :ـ « كنتُ مرة جالساً عنده بسفينة فى مصر عند زيارته الأخيرة لها ـ وكان مريضاً ـ فقلت فى نفسى : ماهذا المرض ؟ سبحان الله ! فرفع رأسه وقال بصوت مرتفع : ابتلاء ياابنى . . وهكذا كان نداؤه لى حتى فى البلد (أى دنقلا) إمَّا أن يقول : ياشيخنا ، وإما أن يقول : يا ابنى » (٨) .

وقد استفاد ـ رضى الله عنه ـ من مدرسة شيخه الصوفية ، وتربىّ على آدابها ، ونهل من معارفها وعلومها ، فحملت مدرسة الجعفرىّ الصوفية فيما بعد بين طيّاتها كثيراً من ملامح مدرسة شيخه التى كانت تعتمد على التربية من خلال الآداب والإرشادات التى وضعها الإمام الجعفرىّ فى كتبه ، ومن ذلك يعرف مشرب

---

(٧) المنتقى النفيس : ص ١١١ .

(٨) فتح وفيض : ص ٢٣ .

الطريقة الجعفرية ويعرف نسبها . يقول ـ رضى الله عنه ـ مُحدِّثاً عن شيخه السيد محمد الشريف :ـ

« سمعتُ من شيخى وأستاذى [السيد محمد الشريف] الذى كان سبباً لى فى الخير الكثير أخذتُ عنه العهد منذ خمسة وثلاثين عاماً [أى : حوالى عام ١٣٤٧ هـ وكان عمره ١٩ عاماً] (٩) ، وذكرتُ معه كثيراً ، وخدمته ولازمته ، ورأيت منه الكرامات والبركات ، وهو السيد محمد عبد العالى الملقب بالسيد الشريف ، يقول : « ثلاثة على خطر : ابن الشيخ ، وزوجته ، وتلميذه المقرّب ؛ لأن ابنه يعتمد على جاه والده ، ويتكاسل عن العمل ، أما إذا اتبع والده نال حقّين : حقّ العمل ، وحقّ القرابة . والزوجة : يخشى عليها مخالفة أمر الشيخ وغضبه ، أمّا إذا أطاعته فلها حقّان : حقّ العمل بالأوراد ، وحقّ الزوجيّة .

والمريد المقرّب لدى الشيخ ربما اطلع على عبادة الشيخ فاستقلّها فى نظره ، أو يرى شيئا لايعجبه فيظنّ سوءًا فيهلك ، أما إذا أخلص للشيخ كان له حقّان : حقّ الأوراد ، وحقّ الخدمة للشيخ (١٠) . « وسألت مرة شيخى السيد محمد عبد العالى الإدريسى ـ رضى الله عنه ـ عن الذكر فقال : العارف بالله تعالى لو حرّك عصا بيده هكذا ، لكان ذلك ذِكْرًا » (١١) .

« وقد سمعتُ عن شيخى السيد محمد الشريف ـ رضى الله عنه ـ يقول : العارف بالله تعالى تخاطبه الأشجار والجمادات ، وتقول له : أنا خُلِقت لكذا وكذا من المنافع فلا يلتفت إليها ، ويقول لها : لا أُريد إلا وجه الله تعالى ، فإن التفت إليها واشتغل بمنافعها منع وقفل دونه الباب » وحينما كان يتكلم بهذا الكلام رأيته يبكى وتتقاطر دموعه ، وبينما هو فى هذا الحال إذْ أقبل عليه رجل يسمَّى الشيخ عثمان عوض الله من « كابتوت » فقال السيد : مرحبًا يا أبا هاشم ، فقال له للسيد : دعنى من كلامك هذا » (١٢) .

---

(٩) الإلهام النافع : ٥٨ ـ ٥٩ .

(١٠) نفس المرجع والصفحات . .

(١١) فتح وفيض : ص ١٦٠ .

(١٢) المعانى الرقيقة : ص ١١٦ .

وكـان السيد محمد الشريف يحب تلميذه حُبًّا جَمًّا ، ولا يطيق أن يراه بعيداً عنه ، أو يلتمس ورداً غير ورده ، شأنه فى ذلك شأن أرباب الطريق الذين يغارون على طريقتهم وأورادها ـ يقول الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه :ـ

« لمَّا توفى السيد عبد الله النابلسى ـ وذلك بعد وفاة السيد محمد الشريف رضى الله عنه ـ قال لى بعض الإخوان من السودان : إنَّ السيد عبد الله النابلسى يأتيك فى النوم ، فتحدث معه بما تريد ، واطلب منه فائدة لقضاء الحوائج ، وبعد العشاء قرأت له وسورة الفـاتحة ، وزسورة « يسٓ » ونمت ناوياً مقابلته ، ففى أول منامى رأيت أننى أدخـل باب غرفة ، ورأيت السيد محمد الشريف عبد العالى شيخى جالسـاً على سرير ، فقـال بغضب وقد رفع يديه : ماذا تريد من السيد عبد الله النـابلسى ؟ ألم نأذن لك بالأحـزاب والأوراد ؟ مثـل هذا كثير عنـد والـدى ، فاستيقظت من منامى وأنا فى تعجُّب من أمرى هذا ! » (١٣) .

تلك كانت بعض إشارات لأحوال الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ مع شيخه فى الـطريق والعلم السيد محمـد الشريف ـ رضى الله عنه ـ وقد أخذ عنه أوراد الطريق الأحمدى ، ونقل إليه أسرارها ، وقد نقلنا فى الفصل الأول ما حدث من شيخه معه من بشارته له بإقبال الناس عليه وازدحامهم حوله ، وذكرنا أن بشارته قد تحققت بتحلُّق النـاس حول الإمام الجعفرىّ بالأزهر الشريف ، وقد شاهد ذلك السيد محمد الشريف عند زيارته لمصر ، ووقوفه على حلقة درس تلميذه الجعفرىّ وفرحه واستبشاره بذلك ، ولقد كانت فرحة الجعفرىّ أشدّ من فرحة أستاذه ، فقد قام له ورحَّب به ، وعرَّف الناس الحاضرين بشيخه وسبب نعمته ، وغارس نَبْت علومه ومعارفه (١٤) .

وما أكثر ما جاء من مدحه ـ رضى الله عنه ـ لشيخه السيد محمد الشريف ـ رضى الله عنه ـ ومن ذلك قوله فى إحدى قصائده :ـ

وعُـمَّ بفَـضْـلك النَّجْـل المفـدّى * محـمـدًا الـذى أحـيا الـسـنـيـنـا

---

(١٣) الإلهام النافع : ٩٩ .

(١٤) يراجع الفصل الأول : ص ١٠

وكـان الـقـطـب لايدرى لفـرد * فضـائـله علت فى الـعـالـمينا
وكـم خرق الـعـوائـد فى أمـور * وكـم أهـدى الـطريق الـعـارفـينا
تبـسُّـمـهُ كمـال فى كمـال * وغـضـبـتـه كمـن سكـن الـعـرينا
له فضـل علىَّ فكـم هـدانـى * وعـلَّمـنـى علوم الـعـارفـينا
ولـو كشـف الحجـاب لنـاظـريه * لَولَّـوْا من جلالٍ هائـمـينا
عليه الله يرضـى كل حيـن * وبـالـحسنى لنـا ياسـامعينا (١٥)

وهكـذا سار ـ رضى الله عنه ـ فى الطريق الأحمدى من بدايته مروراً بمرحلة الـطلب والتعلُّم والسُّلُوك ، ثم انتقـل إلى مرحلة الاستواء والنضج ، فأخذ يُرَبِّى المريدين ويعلمهم ويرشدهم إلى الطريق الأحمدىّ حتى وصل إلى النهاية ، وصار شيخاً للطريق ، أعطى الإذن بإعطاء الطريق الأحمدى الذى أخذ ورده عن شيخه السيد محمد الشريف ، وقد أجازه السيد أحمد بن إدريس بأوراده . يقول رضى الله عنه ـ مبيناً سند طريقه الجعفرىّ :ـ

أنَـا الشَّيْخُ عَنْ شَيْخِى تَلَقَّيْتُ وِرْدَهَـا * وَشَيْخِى هُوَ ابْنُ ادْرِيسَ بَحْر الحقِيقةِ (١٦)

والطريقة الجعفرية طريقة لها منهجها وأورادها ، وقواعدها وآدابها وهى منبعثة عن الـطريق الأحمـدىّ ، الـذى هو الأصـل الـذى تفَّـرعت منـه سائـر الفـروع كالرشيدية ، والأحمدية ، والختمية ، . . . وغيرها من الطرق المتفرعة من طريق السيد أحمـد بن إدريس رضى الله عنـه ـ وفيمـا يلى عَرْض لأبرز ملامح مدرسة الجعفـرىّ الصوفيَّة ، نَرْجُوْاْ أن تعطى القارىء صورة وافية عن مكانة الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ ورُسُوخ قدمه فى التصـوُّف :ـ

---

(١٥) روضة القلوب والأرواح : ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(١٦) الديـوان : ٨/ ٩٢ .

الفصـــــل الثانى

تأسيس الطريقـــة الجعفـــرية

معالم الطريق الجعفـــرىّ :-

سار الإمـام الجعفـرىّ - رضى الله عنـه - فى طريقته على نهج شيخ الطريق الأحمدى السيد أحمد بن إدريس وعمادها : الكتاب ، والسنة : قولاً وفعلاً ، معرفة وسلوكاً .

فمنهجـه - رضى الله عنـه - فى التـربية منهـج القـرآن ، فهو يربى المريدين ويوجههم ويرشدهم إلى مكارم الأخلاق التى أمر الله تعالى بها فى القرآن الكريم وهو يقفهم على مقامات التصوُّف ، ومدارج الترقىّ فى الكمالات مستشهداً على ذلك بآيات القرآن الكريم وهو يعلمهم ويُرَبِّيهم على الإخلاص والمجاهدة والمراقبة والمحـاسبـة ، . . . وغير ذلـك من ألوان التربية الصُّوفية على ضوء منهج القرآن الكريم ، وموضحاً ومفسراً للمنهج القرآنى بأحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقتدياً به وبأخلاقه وشمائله ومترسماً طريقه فى أقواله وأفعاله - كما صنع السيد أحمد بن إدريس - رضى الله عنه .

وفيما يلى نوجز للقارىء بعض أقوال الإمام الجعفرىّ التى تشرح مَنْهجه وتكشف عن معالم طريقـــه :

- يقول - رضى الله تعالى عنـــه :-

« وقد رضينا فيها بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبسيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - نبياً ورسولاً ، وبالقرآن إماماً ، وبالكعبة قِبْلَة ، وبالمؤمنين إخوة .

طريقنا هذا هو طريق الله - تعالى - المجرد عن شوائب الدنيا وكدوراتها ، ليس لنـا رغبـة إلاَّ التوجُّه إلى الحقّ سبحانه وتعالى - قاطعين جميع العلائق والعوائق والأغيار النفسية ، مُتخلّقين بالكتاب والسنَّة فى جميع أحوالنا وتطوراتنا وحركاتنا

وسكناتنا ، راضين به عن غيره عاكفين على بساط أُنس محبته فى الدنيا قبل الآخرة » (١٧) .

« واعلم أنَّ طريقنا هذا مبنى على الكتاب والسنة وفقه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعرىّ فى التوحيد ، وأبى القاسم الجنيد فى التصوُّف ـ رضى الله عنهم أجمعين » (١٨) .

« ما هذا الطريق إلا متابعة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى الأقوال والأفعال ، ظاهراً وباطناً » (١٩) .

« واعلم ياأخانا أن طريقنا هذا كله حساب ومحاسبة واقتراب ومراقبة » (٢٠)

« طريقنا هذا طريق شرعى ، على قدم محمدىّ . طريقنا هذا من سلكه يوسع له فى رزقه ، ويبارك له فيه ؛ لأنه وقف على باب : يا دنيا مَنْ خدمنى فاخدميه » (٢١)

« وإنَّ المتابع لطريقة الإمام الجعفرىّ وإرشاداته لمريديه فى دروسه وحضراته وكتبه ليلتفت إلى الارتباط الوثيق بين منهجه ، ومنهج السيد أحمد بن إدريس فى تربية المريد ، وفى مزايا الطريقتين . ولاعجب فى ذلك التشابه ، فقد سار الجعفرىّ على قدم السيد أحمد ابن إدريس ، وجاهد مثلما جاهد ، كما أنَّ كليهما كان يتصل برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اتصالاً خاصاً ، كما أن إخلاص الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ للطريق الأحمدى ، ومحافظته على أوراده ودعوة الناس إليها أكسبه حبّ شيخ الطريق ، وثقته به ، فورث حاله ، وشرب من منهله الصِّوفى العَذْب .

يقول الجعفرىّ ـ رضى الله عنه :ـ

« وقد أجاد شيخنا « الشفا » القطب النفيس مولانا السيد أحمد بن إدريس ـ

---

(١٧) الإلهام النافع : ٢٢ .
(١٨) مفاتح الكنوز : ١٣ .
(١٩) لوامع البروق النورانية : ص ٢ .
(٢٠) الإلهام النافع : ص ٨٤ .
(٢١) انظر : المنتقى النفيس : ص ١٣٨ .

رضى الله عنه ـ حينما وكلنا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتولَّى ترتبيتنا ، وقد شاهد كثير من إخواننا ذلك إلى يومنا هذا ، فاختصَّ الله الآخذين لطريقه المحمدى بالتربية المحمدية ، وكأن السيد لاحظ حين تلقيه الذكر الخاصّ به ، وأنه منه الجمع بين الحضرتيْن وهو « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكذلك فى قوله : « واجْمَعْ بينى وبينه . . . . الخ » مما يزيد على التربية ؛ لأن الجمع والملازمة يزيدان على التربية ، فامتاز هذا الطريق فى أوراده بهذه الميزات المميزات له ، وأن صاحبه كانت له القدم الراسخة فى المتابعة المحمدية الظاهرة فى جميع أحواله ، فكانت الرابطة بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رابطة قوية متينة وقالوا : إنَّ كل مريد يرث من مقام شيخه وحاله على قدر اجتهاده واستعداده ، ووثوق الشيخ به »[٢٢] .

« فعليك يا أخانا فى الله تعالى أنْ تفكر ، فإن التفكير من تمام الإيمان لاتَنْس أنك بأَخْذِك للوِرْد المحمدىّ الأحمدىّ صرت فى كفالة النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والدليلَ على قَوْلى هذا لك : رؤيتك له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مناماً .

وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يرشد الناس بالدروس العلمية ، وبالقرآن العظيم ، وقد تبعه شيخنا سيدى أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ فى ذلك ، فكان يرشد الناس بالقرآن الكريم والعِلْم ، واستمرَّ على ذلك حتى لقى ربه ، وقد سألتُ الله ـ تعالى ـ أن يوفقنى إلى ما كان عليه شيخنا العالم الشيخ ابن إدريس صاحب العلم النفيس ـ رضى الله عنه .

فعلى جميع إخوانى أن يساعدونى فى حضور الدروس العلمية ، وأنْ يحفظوا شيئاً من القرآن الكريم ، وإنْ شاء الله سنجعل مكاناً مخصوصاً للإخوان لحفظ القرآن الكريم ، فما عندنا إلا الدروس ، وحفظ القرآن .

فأعينونى بعلوّ همتكم ، فما جمعتكم إلا على هذا الدرس الذى فيه تفسير القرآن ، وشرح الأحاديث النبوية ، والفقه فى الدين ، وحفظ القرآن وتلاوته ،

---

(٢٢) الإلهام النافع : ص ٧٩ .

فالعبادة لله وحده ، والعلماء هم الوارثون المرشدون ـ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ

« العلماء ورثة الأنبيـــاء »(٢٣) . (٢٤) .

وبعد هذه العجالة التى نقلنا فيها من كلام الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ على طريقته ومعالمها ومشربها نقتطف من ديوانه بعض أزاهير قصائده التى عمرت بشرح طريقته ، وبيان منهجه ، وقد حرص ـ رضى الله عنه ـ على تكرار هذه المعالم فى قصائده ليتربىَّ مريدوه على هذه المبادىء ، وهم يسمعونها تتردَّد فى القصائد التى يمدح بها المادحون فى الحضرة الجعفرية ، أو يراها مريد الطريقة ماثلة أمامه وهو يُطَالع ديوانه ـ رضى الله عنه ـ بأجزائه العشرة :

يقول ـ رضى الله عنه ـ مبيناً مَشْرب الطريق ، وأهم مبادئه :ـ

وَإنَّ طَرِيقَنَا مَا كَانَ نَهْجاً * لِشَيْخ طَرِيقنَا وَبِهِ الْمَسِيرُ
فسلِّمْ للطريق وسالكيهِ * وكلّ طريقةٍ ولها خبيرُ
وَلاَ تنكر على قَوْمٍ تراهم * لِوَجْدِ الحال يَعْلُوهُمْ هديرُ
ولا أهل التواجد إذ تراهم * بِأذكارٍ . لُهم ذِكْرٌ شهيرُ
وما قد غاب عنا ليس ندرى * له حكماً وذا أمْرٌ خطيرُ
ونتبعُ الكُـ ولنا اكتفاءٌ * بمذهبِهِ لَهُ عِلْمٌ وَنُورُ
ونتبعُ للجنيد ومَنْ نحاه * لهم عِلْمٌ تفوحُ لَهُ عُطُورُ(٢٥)

ويشير إلى أنَّ عماد الطريق الجعفرىّ يقوم على ارتباط الحقيقة بالشريعة فيقول :ـ

مَعْبُودُنَا اللَّهُ بِالْقُرْآنِ نَعْبُدُهُ * دَلِيلُنَا الْحقُّ لاَقَوْل الْخَيَالاَتِ
إمَامُنَا المُصْطفَى نُورُ الظَّلاَم لَهُ * تِلْكَ الْأَحَادِيث تروى بالرِّوَايَاتِ(٢٦)

---

(٢٣) رواه ابن النجار عن أنس ـ رضى الله عنه .
(٢٤) انظر : أعطار أزهار : ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٢٥) الديوان : ٢/ ٢٩٨ .
(٢٦) الديوان : ١/ ١٥٠ .

وكما ذكرنا أن الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ فى طريقه ودعوته قد توحَّد وامتزج بطريق السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ فصار كلامه على الطريق الجعفرىّ لاينفصل عن كلامه على الطريق الأحمدىّ فَهُمَا يخرجان من مشكاة واحدة :ـ

يقـول رضى الله عنه :ـ

السـيِّد آبـن آدريس مَنْ * نَثَـر الْـعُـلُومَ بلا زَغَـلْ
نعـم الإمـام أتـى لنـا * بالْـوِرْد أحْـلَى منَ الْـعَـسَـلْ
أحـزابـه صلـواتـه * إنَّ الـسَّـعِـيدَ بهَـا اشْـتَـغَـلْ
عن جـدّه مَرْوِيَّـة * وَلِـمَـنْ تَلاَهَـا قَدْ كَفَـلْ
وأحـالـكـم نحـو الَّذى * قَبِـلَ الـحـوالـةَ وَابْـتَـهَـلْ
أهـل الـطـريق تَفَـهَّـمُـواْ * هَذَا كلام قَدْ حَصَلْ
مَنْ شكَ فيـه فإنـه * للبـاب جَهْـلاً قَدْ قَفَـلْ
قوواْ الـعـزيمـة وادْخُـلواْ * هذا الـطريق على عَجَلْ
فإلـى الـنـبىّ محـمَّـدٍ * للدَّاخِـلِـينَ وقَـدْ كفَـلْ
ما عنـدنـا إلاَّ الـكـتـابْ * كتـابُ ربـىً لِلْعَـمَـلْ
والـسـنَّـة الـغـرَّاء لا * نَبْـغِـى الـتَّـغَـيُّر والـفَـشَـلْ
نَهْـج الـنـبـىّ طريقـنـا * وبـسَـيْره سـار الأَوَلْ
وطـريقـنـا الأوراد والْـقـرآن * والـعـمـل الأجَـلّ
مع عزلـةٍ عن كلّ مَنْ * ترك الـطريق وقـد هزَلْ (٢٧)

ولمَّا صدق الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ القول والفعل فى متابعته لشيخ الطريق السيد أحمد بن إدريس نال ما ناله من فتوح ، واتصل بالنبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اتصاله به ، كما تخبرنا بذلك هذه الأبيات النورانية التى تعدّ من بشائر ميلاد الطريق الجعفرىّ يقول فيها رضى الله عنه :ـ

إنِّى رَجَـوْتُـكَ أنْ أكُـونَ كأحمـدٍ * شَيْخ الـطَّريق مُلَبِّـيًا لِنـدَائـهِ
اسلك، بُنَىَّ طريقـنـا هذا الـنبى * منـه الـطريق وأنـت تحت لوائـهِ

---

(٢٧) الديوان : ٤/٥٥٨ ـ ٥٥٩ .

ياسعـد أولادى لقـد بلغـواْ المنى * بِنَـبِـيِّنَـا وبـآلـهِ ودُعَـائـهِ
اذكـر طريقـى لاتـكن متغـافـلاً * الـسِّـرَّ كلُّ الـسِّـرِّ فى إمـلائـهِ
أمْـلَى علىَّ الـمـصـطفى أوْرَادَهُ * أيْقِـنْ بهـذا الـنـور من أضـوائـهِ
ياداخـلاً هذا الـطريق لك الْمُنَى * دُنْيَا وأُخْـرَى فى بَدِيعِ بَهَـائـه (٢٨)

والطريق الجعفرية بُنِيَتْ على العلم ، واستوت على مدارك العلم ، وانتشرت بين النَّاس بالعلم ، حتى جعل شيخها الإمام الجعفرىّ درس العلم من بين أورادها التى يحافظ عليها أبناء الطريق فى مجالسهم . يقول ـ رضى الله عنه ـ مقرِّراً هذه الحقيقـة :ـ

وبَـارِكْ لأَوْقَـاتِى على النُّور والهُدَى * وأهْـلى وأصـحـابى أُهَـيْل المـودَّةِ
ومَنْ سلكـواْ هذا الـطريق وشـرَّفـواْ * بحـلقـة درس فى علوم الشـريعـةِ
لقـد كان ابن ادريس أحمـد أمـة * خبـيراً بنـشـر الـعـلم بين الـبـريَّة
له شهـدت أربـابُ عِلْم أئـمـةٌ * مليئـون من علمى كتـاب وسنةِ (٢٩)

فالشيخ يوضح بصورة قاطعة أن سالك هذا الطريق لاتنكشف له أسرارها ، ولا تدنو منـه ثمارها إلا إذا لازم العلم وجلس فى مجالسه ، فقد دعا لأهل درسه بالبركة والرحمة والرضوان ـ فقال ـ رضى الله عنه :ـ

كُلُّ مَنْ يَسْـمَـعُ دَرْسِـى عُمَّـهُ * وَأُهَـيْل القُـرْب أصْحَـاب الـرَّحِمْ
كُلُّ مَنْ يأخـذ وِرْد شيخـه * أحـمـد بن ادريس بحـر العلم عَمّ
تابـعَ الـسُّـنـة فى أفـعـالـه * سار سَيْر الـمـصـطفى فَوْقَ القَـدَمْ
كل مَنْ سَار وَلَـمْ يعـرفـنـا * ذاكَ فى بُعْـدٍ طريقـى كالْعَلَمْ (٣٠)

فالعلم هو المعراج الذى يرقى به السَّالك فى مدارج الطريق ، ليصل إلى نهايته ـ يقول رضى الله عنه :ـ

طريقـتـنـا بهـا عِلْـمٌ * ومَـنْ يأخُـذْ به قد طَارْ

---

(٢٨) الديوان : ٧/ ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
(٢٩) الديوان : ٨/ ٢١ ـ ٢٢ .
(٣٠) ٥/ ٧٤٢ .

علا فى الجوّ كالأملاك * وشاهد حضرة المختارْ
وصارْ فى عقدنا يمشى * ومنّا العلم والأخبارْ
نُناجيه نُرَقِّيه * ونحى قَلْبَه المحتَارْ
يُشَاهد ودّنا حتى * يُلاقينا بلا أغْيَارْ(٣١)

وهكذا وضحت السبيل ، وعرف الغرض ، ولم يترك رضى الله عنه لأحد غيره أن يُغَيِّر أو يُبدِّل فى طريقته ، فهى طريقة شرعية علمية ، تستند إلى الكتاب والسنة ، لامجال فيها للهو ولا لِطَبْلٍ أو زَمْرٍ ، ولا مكان فيها لعابث مَاجِن ، وإنما هى الاستقامة فى سبيل الله ، والاقتداء برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ يقول رضى الله عنه :ـ

مَا عِنْدَنا لَهْوٌ ولا غُرُوْر * وَلاَ خُرَافَاتٌ وَلاَ ظُهُورُ
بَلْ عندنا الله هو المقصود * الواحد الموجود والمعبودُ
فى حضرة المختار خير الخَلْق * مُسْتغرقاً مشاهداً للحقّ
فَشَهْدُنَا شَهْد عظيم المنَّة * فى سُوَر القرآنِ ثمَّ السُّنَّةْ (٣٢)

هذه طريقة الإمام الجعفرىّ كما رسمها بنفسه ، وطبقها على نفسه ، وربَّى عليها أبناءه .

والحمد لله تعالى أن حفظ لنا ديوانه الزاخر بقصائده التى ضَمَّنها منهجه وطريقته حجة واضحة ، وبرهان ساطع على استقامة طريقته واعتدال منهجه بلا غلوّ أو تهاون .

فالطريقة الجعفرية تدعو إلى العمل وإلى السَّعْى فى الأرض لاكتساب الرزق ، تؤمن بالتوكل على الله ، وتنبذ التواكل ، ولا تعرف الخمول والكسل ، أبناؤها أعضاء نافعون فى مجتمعهم ، مقتدون بصحابة النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذين كانوا فرساناً بالنهار ـ فى العمل والجهاد ـ رهباناً بالليل من كثرة العبادة ، وطول القيام والتهجد .

---

(٣١) ١٠/ ٤٩ ـ ٥٠ .
(٣٢) المعانى الرقيقة : ٦٩ .

ولـلإمـام الجعفـريّ ـ رضى الله عنـه ـ قصيدة جامعة متكاملة كلها تعلن مبادىء طريقته ، وتعرّف الناس بها ، فهى بمثابة الوثيقة الحية التى تضمّ كل ماذكرناه ، وأشرنا إليه فيما سبق عن معالم الطريق الجعفريّ . ومن أهميتها سمّاها ناظمها ـ رضى الله عنه ـ « بالذخيرة » .

فهى ذخيرة نافعة لأبناء الطريق ، تنيره لهم ، وترشدهم إليه وتمنعهم من الاختلاف والتغيير والتبديل .

وإليك أيها القارىء العزيز هذه القصيدة كاملة نختم بها هذا المبحث عن معالم الطريق الجعفريّ :ـ

يقول رضى الله عنـــه :ـ

شرعت ببسم الله نظم ذخيرتى * وأثنى بحمد اللهِ بارى الخليقةِ
صلاة على المبعوث للناس رحمة * وآلٍ وأصحاب نجوم الهدايةِ
طريقى طريق القوم أهل الحقيقة * فعجّلْ إليه وادخلنَّ بنيَّةِ
وداوم على الأوراد والذكر دائما * بحضرة إخوان أقاموا لحضرة
ففى الحضرة الأنوار والسرّ يافتى * بمدح رسول الله خير البريَّة
وأفضل ذكر الله تتلو كتابه * وتسمعُ درس العلم يأتى بحكمة
فشمِّر أخا التوفيق وادْخُل لحضرة * لتتلو مع الإخوان كنز السعادةِ
ففيه من الأسرار ماجلَّ حصرهُ * ودعواته كنزٌ لأهل الطريقة
وهذا طريقٌ جامع الخير كلّه * بدنيا وأخرى فى جنانٍ عَلِيَّةِ
هناءٌ ويُسْرٌ والغنى وصيانة * وعلمٌ وإرشادٌ وحبٌّ بهَيْبةِ
وسَتْر وتوفيق وبرّ ورحمة * وحجٌّ كثيرٌ والطواف بكعبةِ
وإن كنت ذا أرض فبورك نَبْتُهَا * وإن كنت ذا تَجْرٍ فربحُ التجارةِ
وإن كنت ذا غَزْل فغزلك نافعٌ * وإن كنت ذا صُنْعٍ نعمت بصَنْعةِ
طريقى طريق الله فيه منافعٌ * أنا الشيخ وابن ادريس شيخ العنايةِ
أنا الشيخ عن شيخى تلقيتُ وِرْدَها * وشيخى هو ابن ادريس بحر الحقيقةِ
آتانى رسول الله بالوِرْد منحة * وفى النوم أحياناً وفقى حال يقظةِ
فَبُعْدك عنَّا حيث ماكنت غفلة * مكائد للشيطان فاحْذَرْ لغفلةِ

وذِكْـرك للرحـمـن نورٌ وتـركـه * ظلامٌ فلا تركـن إلـى سُوء ظُلْمـةِ
هواتـفُ شيطان توالـتْ فرُدَّهـا * بذكـرِ لربِّ الـعـرش ذكـراً بهمَّـةِ
فمـا خاب ذو ذكـرٍ لربٍّ جلالـه * يردُّ شياطـين الـنـفـوس بسُـرْعـةِ
فلا تنس مَنْ لَوْلاهُ ماكـنـت كائنـا * ولا تَنْسَ قرب الله فى كل لمـحـةِ
فإنْ كنت مقـداماً فهـذا مجال مَنْ * تقـدَّم فى الـمـيدان بين الأحبَّـةِ
فلا تجعـل الشيطان يأتى موسوساً * إلـيك وقـد نوديت هيَّا لحـضـرةِ
أيحسن منـك السوء إن كنت عاقلاً * وقد رشحـوك القـوم أهـل الحقيقةِ
وبـايعـت شيخـاً للعلوم محققـاً * له قدم الـتـحـقـيق بين الـبـريَّةِ
عليك بحـفظٍ للكـتـاب فإنـه * أنيسٌ لأهـل الـذكـر فى كل ليلة
وتـتـلوه جوف الـليل والـليلُ مظلمٌ * لتـسـبـح فى الأنـوار حال التـلاوة
طريقـى هو القـرآن والعلم والتُّقَى * ومـدح رسـول الله ماحى الضـلالـةِ
وحـال تلامـيذى إذا ما رأيتـهـم * لدى حضـرة الـقـرآن كُلّ عَشِـيَّةِ
وبعد غروب الشمس يتلون وردهم * وبعـد صلاة الصبـح خير التـلاوة
صلاة وتـسـليمٌ من الله دائـمٌ * على خير مبـعـوث إلـى خير أمَّـةِ
تقبـل دعـاء الـجعفـرىّ ومُـدَّهُ * بأسـرار علمٍ من علوم الحقيقـةِ (٣٣)

---

(٣٣) الديوان : ٨/ ٩٠ ـ ٩١ .

الفصـــــــل الثالث

أداب الطريق فى مدرسـة الإمام الجعفــرى

الأدب فى اللغة معناه : الشىء المستحب .

وهو فى اصطلاح الصوفية : ألّا تنظر إلى مَنْ فوقك ، وألّا تحقر مَنْ دونك أى : تعرف قدر نفسك وحدودها ، فلا تتجاوزها .

وقد اشترط الصوفية للمريد آداباً يراعيها مع الله فى عبادته ، ومع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومع شيخ الطريق المربِّى والد الروح ، ومع إخوانه فى الطريق ، ومع جميع المسلمين .

وفى الطريقة الجعفرية استيفاء كامل لهذه الآداب ، وإرشادات واضحة من شيخ الطريقة سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ إلى أبناء الطريق .

ولنبدأ بأهم الآداب وأعظمها ، وهو : الأدب مع الله تعالـى :ـ

أولا : أدب المريـــد مع الله تعالى :ـ

غاية التصـوُّف : الـوصـول إلى معـرفـة الله تعالى معرفة العبودية والإخلاص والمحبة ، أو كما يُعَبَّر عنه بمقام الإحسان ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك .

ولا يستـطيع السَّـالـك فى الطريق أن يصل إلى شىء من ذلك إلا بالتمسُّك بالآداب ، والترِيُّض بألوان المجاهدات ، والتحلِّى بمكارم الأخلاق ، والمسارعة إلى الخيرات ، والإكثار من ألوان الطاعات .

وقد عنى مؤسس الطريقة الجعفرية بتربيةِ المريدين ، وتعليمهم الآداب التى يجب عليهم أن يلتزموا بها فى معاملتهم مع الله ـ تعالى ـ وأول هذه الآداب :ـ

الإخـــــلاص :ـ

وهو قاعدة أساسية فى الطريق إلى الله تعالى ، وهو غاية التصوُّف وثمرته ، وعليه مدار قبول الأعمال ، وقد أفرد له الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ فصلاً خاصّاً من كتابه « الإلهام النافع لكل قاصد » . بدأ فيه بشرح معنى الإخلاص ، وحقيقته ـ فقال :ـ

« الإخلاص لله تعالى هو : أن يقصد بعمله وقوله وَجْه الله تعالى ، فإذا قصده وجده ، وإذا وجده عبده ، وإذا عبده قرَّبه ، وإذا قرَّبه يتجلَّى عليه بتجلِّى الأفعال ، المنقـذ من الأباطيل والأوْحال ؛ لأن العمل كالراحلة الموصلة ، إذا وجهت إلى الجهـة المقصـودة وصلت ، وإذا وجهت إلى غيرهـا كلما سارت ابتعدت ، فلا تجعلنَّ عملك المقرّب مُبْعِداً ، ولا قلبك لما فيه من اليقين مُفَنِّدا ، إنما إخلاصك مِنْ يقينك ، وإنَّ يقينك عَيْن دينك »[1] .

ثم شرع ـ رضى الله عنـه ـ يُبَيِّن للمريد ثمرة الإخلاص ، وفائدته فى الترقى والوصول إلى قرب المحبوب ، وأنه درجات ومنازل ينالها العابد بقدر توجه النية ، وصدق العقيدة ـ فيقول ـ رضى الله عنه :ـ

« العمـل كالجسم ، والإخـلاص فيه كالـروح ، فعمل بغير روح ما عليه نور يلوح ، ولا منه طيب يفوح . فَاسْقِ يا أخانا أشجار وَرْدك بالإخلاص الذى فى وِرْدك كى تحيا أشجاره ، وتفوح أعطاره ، وتغرّد على أفنانه أطياره ، فتطربك نغماتها ، وتحركك إلى الملأ الأعلى غريب لغاتها ، فتهتز منك الروح طرباً ، ويدهش العقل عجبـاً ، عنـد رفـع أستـار غوامض دقـائق حقـائق خفيات أمـور عزَّ على القلم تسطيرها ، وقلبك ترجمانها وخبيرها . فَسَلْهُ عنها ، فإنه لا يَسْلُو عنها ، وسَلْه عن الإخلاص وأين مقره منه ، إذْ به قد قرَّتْ عيناه ، وعظمت جدواه ، واهتزت أرضه وربت ، وأحبت وعشقت ولبَّت ، فأنبتت ماحيَّر الأفكار الوصول إلى جنى ثماره ، والوقوف على دقائق أخباره ، والنظر إلى وامض برق أنواره ، وهل عرفت الإخلاص حتى تطلبه ؟ فإذا طلبته وجدته وإذا وجدته أعجزك حصره ، وحيَّرك سِرُّه ، فكيف

---

(١) الإلهام النافع : ص ١٠٩ .

تُخْلِصُ لِمَنْ خَلَقَ إخلاصك ، وبيده خلاصك . أم كيف تقصده بالعمل وقد خلقه وبدأه وكوَّنه وبراه ، ويعلمه ويراه قبل أن تقصده به ، وتخلص له فيه ؟ فواعجباً ثم واعجباً ممن قصد به غيره وليس لغيره فيه ذرَّة بِوَجْه من الوجوه ، ولذلك قال بعضهم : « الإخلاص ألاَّ ترى الإخلاص » .

ومعناها : من ضمن الإخلاص لله فى العمل والقول ألا ترى إخلاصك منسوباً إليك خَلْقاً وإيجاداً ، ولا أنت الذى سقته إليك حيث وجدت استعداده ، فهذا القائل يذكرك بكلامه أن المهيمن هو الله تعالى ، وأنه لاحَوْل ولا قوَّة إلاَّ بالله »[٢] .

« اعلم يامَنْ توجَّه إليه فؤادنا ، وخاطبناه بروحنا : أن المريد إذا قصد بعمله وجه الله تعالى خرجت روحه من جسده ، وهذا هو غسلها حتى تتلقى مشاهدة من تلاشت أمام معرفة كُنْه ذاته العقول ، بمصباح من أمره لامادة له ولا أفول ، فتسقى فى حضرة أنسه ما فى وَصْفِه ابن الفارض ـ رضى الله عنه ـ يقول :ـ

صفـاءٌ ، ولاماء ولُطْفٌ ولاهَوَى * ونـورٌ ولانـارٌ ورُوحٌ وَلَا جِسْـمُ

وبهذا الشراب الذى تشرفت بشاربيه البرازخ يكون المريد مريداً ويُوصَف بالثابت الراسخ .

والحذر كل الحذر من الزلل بعد الرسوخ فى طريق الله ، ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[٣] .

فما زلَّ مَنْ عرف ، ومَنْ عرف ما انحرف[٤] .

عملك إذا لم يكن مخلصاً لوجه الله تعالى ـ لايقبله الله ـ فأين إخلاصك ؟ وهل خرجت من سجن نفسك أم لاتزال فى أقفاصك ؟ وهل بلغك عنه كيف كان ؟ وكيف أحرمت خَلْفه فى الصلاة وأضَعْتَ الأركان ؟ وهل وقَفْتَ الوقفتين حتى تقفهما

---

(٢) الإلهام النافع : ص ١١٠ ـ ١١١ .
(٣) النحل : من الآية ٩٤ .
(٤) الإلهام النافع : ص ١١٥ .

الله ولغيره ، ولم يخيل إليك أن عزتك عندهم . « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ » [٥] .

وماذا عليك لو نفضت يديك منها نَفْض القَّديد ، وتهيأت للتجلى الإلهى ففى كلّ نفسٍ تجلٍّ جديد ، هذا عسلنا فيه شفاء للناس مايصلح معه الحنظل ، طوبى لعبد عرف مولاه وعليه توكّل ، وعلى وجهه الكريم أقْبَل » [٦] « كلّما خرقت العادة فى إخلاصك أطلقت من وخيم أقفاصك ، حتى تصل به إلى ماوصل المخلصون مَنْ تجلّى عليهم الحق سبحانه بنعمة الإخلاص السَّارى فى السرّ السَّارى ، وبه يفتح لشعاع شمسه ، فتضىء جوانب قلبه ، فيشاهد رئيس حزب الله مع حزبه ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٧] . [٨]

فالإخلاص كما يجليه لنا الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ بأنوار معرفته يزيل الغشاوة من على عينى المريد ، فيجعله يرى أسرار العبادة بنور الله تعالى فتنكشف له الحقائق ، ويذوق حلاوة الذكر ، ويُبْصر ماكان غائبا عنه بسبب رؤيته لنفسه ، ونظره إلى عمله ـ يقول ـ رضى الله عنه :ـ

« اعلم يامَنْ هداه الله إلى دينه ، ومَنَّ عليه بعين يقينه أنك إذا أخلصت لله تعالى فى عملك ، وأقبلت عليه بقلبك ، أقبل الحقّ سبحانه وتعالى ـ عليك وإذا أقبل عليك صارت الدنيا والآخرة كأنهما بين يديك ، وتغلبت روحك على جسمك فبرزت ، أنوار أقوالك على أقوالك فلمعت ، وآثار أفعالك على أفعالك فسطعت ، فصار جسمك عيوناً إلهية للتجلى ، وتأهبت روحك للتخلى ، ورددت قول ابن الفارض ـ رضى الله عنه :ـ

فَصِرْتُ مُوسَى زَمَانِى * مُذْ صَارَ بَعْضِيَ كُلِّى

فصرت تسمع القرآن منك لمَّا تكرَّم عليك ، ورضى عنك ، وجعل لسانك ممرًّا للوحى الإلهى ، المنزل على القَلْب المحمدىّ ، وجعل قلبك مهبط الفَهْم

---

(٥) المنافقون : ٨ .

(٦) شهد مشاهدة الأرواح التقية : ٧٨ .

(٧) المجادلة : ٢٢ .

(٨) انظر : الإلهام النافع : ص (١١٠) .

الرَّبانى ، ومحل التنزل لذلك السِّرّ الخفىّ »[٩] .

وقد كرر الكلام على الإخلاص ، ودوره فى تربية المريد ، وإعانته على نفسه الأمارة بالسُّوء ، فهو المَنْجىَ والخلاص من ظلمة النفس ، وحجاب الهوى - يقول رضى الله عنه :-

عَلَيْكَ بِالإِخْلاَصِ * تَنْجُو مِنَ الأَقْفَاصِ
فَفِيهِ لِلْخَلاَصِ * بَابٌ بِأَمْرِ اللَّهْ[١٠]

الصِّـــــدْق :

وهو صفة ملازمة لابن الطريق لاتنفك عنه ، ولايحيد عنها قيد أنملة ، وهو داخل فى باب الإخلاص لله تعالى ، فإن المريد الصادق هو الذى تطابق أقواله أفعاله ، ويصدق باطنه ظاهره .

ومعنى الصدق فى الطريق : أن يعزم المريد على الالتزام بكلّ ماعاهد به شيخه عليه ، وأن يجتهد ويسعى فى سبيل تنفيذ أوامر شيخه الذى يأمره بكل خير ، ويحذره من كل شرّ ، وأن يكون صادقاً مع الله تعالى ، فلا يظهر أمام الناس بمظهر العابد الناسك ، وقلبه مظلم ملىء بالحقد ، والضغينة ، أوْيُسِىء معاملة الناس ، ويغلظ لهم القول ، فالصدق هو مطية العابد التى يخترق بها جبال الجهالة ، والسيف الذى يقطع به رءوس الهوى والضلالة . يقول الجعفرى - رضى الله عنه :-

« الصِّدْق جواد قوىّ ، وسَيْف بتّار . فاركب جوادك ياعبد الله ، وادخل به ميدان الرجال ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[١١] واضْربْ بسيفك شيطانك ، وأهواء نفسك ، مُجَاهداً بكتاب ربك ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾[١٢] . أى : بالقرآن حتى تُكْتَب مع الذين عرفوا الحق ولا زموا

---

(٩) الإلهام النافع : ١٠٩ .
(١٠) الديوان : ٧/ ٩٦ .
(١١) الأحزاب : ٢٣ .
(١٢) الفرقان : ٥٢ .

الأوراد ، وجـاهـدواْ فى سبيل ربهم حقَّ الجهـاد ﴿ وَجَـاهِـدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١٣) . » (١٤) .

التقـــــــوى :-

وهى كلمة جامعة لكل خصال المؤمنين ، وتندرج تحتها سائر أنواع الطاعات ، فالتقوى هى الإيمان ، وهى الإحسان ، وهى عبادة الله تعالى حقَّ العبادة .

وقد تكلَّم عليها الإمام الجعفرىّ - رضى الله عنه - وبيَّن أسرارها ومقاماتها وآثارها فى نفس المريد ، بما يغنى عن كل كلام ، فإليك أيها القارىء هذه الدُّرَر السَّنِيَّة :-

« تَقْوَى : التاء : إشارة إلى التوكُّل ، والقاف : إلى القناعة ، والواو : إلى الورع ، والياء : إلى اليقين ، أو التاء : إشارة إلى التوحيد ، والقاف : إلى القيام بحقّ الخالق والعبيد ، والواو : إلى الوَجْد والشُّهُود ، والياء : إلى اليقظة لكل يوم مضى ثم لايعود ، قُلْتُ :-

تَقْـوَى الإلَـه أنْ تُرَى سَمِـيعًـا * لِقَـوْلِـه وعـامـلاً مُطِيعَـا
مؤيداً لسـنـة الـمُـخْـتـارِ * وَهَـاجِـرًا مَجَـالِسَ الأوْزَارِ
بالـجـدّ فى الأعـمـال والسَّـدَادِ * فِى الـقـول والـزهـد مع الأوْرَادِ
وأنْ تكـونَ قَارِئـاً للعِـلْم * ومـرشـداً مؤيَّدًا بالـحِـلْمِ

فالتقوى هى مطية كل خير يصل بها الإنسان إلى خيرى الدنيا والآخرة ، وسعادتيهما ، فمن لاتقوى عنده لاخير فيه ، ولا سعادة له .

بها يصل العالم إلى معرفة أسرار العلم ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمكُمْ الله ﴾ (١٥) . أى : اعملواْ بما علمتم يعلمكم ربكم أسرار العلم ، ويكشف لكم عن أسراره ، حتى تلوح لكم أنواره ، وتظهر عليكم آثاره .

---

(١٣) الحج : ٧٨ .
(١٤) المعانى الرقيقة : ٥٦ .
(١٥) البقرة : من الآية ٢٨٢ .

وبالتقوى يحصل للإنسان المكروب الفرج والمخرج ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ (١٦) .

سمعت من شيخى محمد السَّمالوطى ـ عليه الرحمة والرضوان ـ حكاية ذكرها عندما قرأ حديث ﴿ احْفَظِ اللَّه يَحْفَظْك ﴾ (١٧) . قال :ـ

« وقع رجلٌ تقيٌّ فى شدَّة ، وهى أن امرأة دعته إلى بيتها ، فلما وصل للبيت غلَّقت الأبـواب ، ودعتـه إلى نفسهـا ، فأمرها بطعام ، فذهبت لتأتيه به ، فقام وتـوضـأ ، وصلَّى ركعتين ، وقال : اللهم هذه التقوى فأين المخرج ؟ فَانْفَلَقَ له الجدار فخرج منه ، فجعل الله له مخرجاً بسبب تقواه » .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ ﴾ (١٨) أى : بأن يساعدهم ، وأن يعينهم وأن يكون لهم على مقتضى حالهم ، فالفقير يحتاج إلى قوت ، والمريض يحتاج إلى شفاء ، والخـائف إلى أَمْن ، والضعيف إلى قوة ، والمظلوم إلى إنصاف والمطلوب إلى نُصْرة ، والكسول إلى نشاط ، فالحق سبحانه وتعالى ـ يكون مع كل تقىّ على حسب مايحتاجه ، ويزيده من فضله :ـ

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١٩) .

وقد ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للتقوى موضعيْن : ظاهرى ، وباطنىّ :

(الأول) فى قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « اتَّقِ الله حيثما كنت » (٢٠) .

أى : فى أىّ مكان كنت ؛ لأن الله تعالى معك حيثما كنت ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ ﴾ (٢١) . أى : بعلمـه وقـدرتـه ، ولـطفه وبطشه ، وعفوه ومغفرته ورحمته

---

(١٦) الطلاق : من الآية ٢ .
(١٧) رواه الإمام أحمد فى مسنده .
(١٨) النحل : ١٢٨ .
(١٩) الشُّـورى : ٢٦ .
(٢٠) رواه الترمذى عن أبى ذر .
(٢١) الحديد : ٤ .

وعنايته ، واختياره وتدبيره ، وقوته وقهره ، وعظمته وكبريائه وحفظه وغيرته .

وإذا كنت تقيًّا فاذكر أن الله معك بعنايته ، وتوفيقه ورفقه ورأفته وخيره وبرّه وإحسانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (٢٢) .

قال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها * نَمْ فالمخاوف كلهنَّ أَمَانُ

وقلتُ فى تائيتى :-

بتقواك ياهذا تكون مكرَّمًا * لدى اللَّهِ ملحوظاً بعَيْنِ الْعِنَايةِ (٢٣)

« وإذا أردت تدبير أمر من الأمور فاتَّق الله الذى معك بتدبيره ، والذى قدَّر لك رزقك ودبَّره لك قبل خَلْقك . . » .

« وإذا جاء الكسل عند الطاعات فاتَّق الله القويّ الذى هو معك بِقُوَّته ، قادر على أن يقويك على فعلها ، فاسأله القوة » .

« وإذا حدثتك نفسك بقهر عبيده ، فاتَّق الله الذى معك بقهره وجبروته فإذا رأيت نفسك مقهوراً لغيرك فاعلم أن ذلك مظهر لتجليات اسم ربك القهار ، إذ كل ماسواه مقهور له ، ولا قاهر له ـ تعالى .

وإذا جاءك العلوّ والكبر فاذكر عظمة الله تعالى وكبرياءه ، واتَّق الله الذى يبغض المتكبِّر والمتعاظم ، ويحب المتذلل له ـ تعالى .

« وإذا وَسْوَس لك الشيطان بالمخاوف المفزعة ، أو أوْعدك إنسان بالمهالك ، فاتَّق الله الذى هو معك بحفظه يحفظك من كل شىء » .

« وإذا حدثتك نفسك بالسوء وبانتهاك الحرمات ، فاذكر الله تعالى ، واتّق الله الذى معك بغيرته على انتهاك حرماته ـ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ « لا أحد أغْير من الله » (٢٤) . فاحذر غيرة مَنْ لايبالى بعبده المجرم فى أىّ وَادٍ هلك ؛ لأنك

---

(٢٢) النحل : ١٢٨ .

(٢٣) الديولن ٨/ ٤٧ .

(٢٤) رواه البخارى ومسلم .

إذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فانظر إلى منزلة الله فى قلبك ، فإن كان الله عندك محترماً معظماً كنت عنده كذلك ، وإلاّ فأنت عنده كما هو عندك » .

موضع التقوى الثانى : فى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ التَّقْوى هاهنا ﴾ [٢٥] وأشار إلى صدره الشريف ـ ثلاثاً .

فالموضع الأول وهو « حيثما كنت » موضع إبرازها ، وهذا مقرها وموضع كمونها ؛ لأن القلب كالسلطان ، والتقوى هى قانونه العادل ، والجوارح رعيته ، فإذا كان الأمر كذلك فلابد من ظهور آثار هذا القانون فى رعيَّة السلطان ، وأيضاً مثل القلب كالبيت المظلم كثير الأركان ، وأنواره التقوى ، وكلما زاد العبد فى التقوى زادت فى قلبه الأنوار ، وبها يكون له سلطان على شيطانه ونفسه ﴿ إِنْ تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [٢٦] ، وبه يهتدى إلى عمل أهل الخير والصلاح ، وإلى نور الله السَّارى فى سائر الأسماء والصفات ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٢٧] . . » [٢٨]

« من لم يكن فى قلبه تقوى ، ليس فى سبيل إرادة الحقّ يقوى ، فلا تُدَارِ لخلق الله فيما يغضب الله عنك سرُّه يُوارى ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، تَنَلْ من الله نفائس الغنائم » [٢٩] .

« فاتَّق الله ما استطعت ، وافتح لنفسك بالله أبواب القرب ، فما فتحت على عبدٍ إلا حاز بها أعالى الرُّتب ، وعليك بالتمُّسك بالكتاب والسنة ، فمن تمسك بهما فقد نال غاية المِنَّة ، ونادته السعادة وأقبلت عليه ، وأناخت له ذلولها ، ودقَّتْ له فى عوالمها طبولها »[٣٠] .

« فَمَنْ أراد الآخرة فليعمل لها العمل الصالح ، الذى جعله الله طريقاً لها .

---

(٢٥) رواه مسلم .
(٢٦) الأنفال : ٢٩ .
(٢٧) النور : ٣٥ .
(٢٨) انظر : أسرار الصيام ص ٣١ ـ ٤١ .
(٢٩) الإلهام النافع : ٢٢ .
(٣٠) الإلهام النافع : ١٧٥ .

والدار الآخرة هى الجنة ، فالتقوى طريق إلى الجنة ، ووقاية من النار ، والمعاصى طريق إلى جهنم ، وحجاب عن الجنّة »[٣١] .

الرِّضـــا والتســـليم لله تعالى :ـ

وهذا أدبٌ من أعظم الآداب فى طريق الله ـ تعالى ـ وأنفعها لنفس المريد ، وأسرعها فى دخوله فى زمرة القـوم .

فالتسليم هو شعـارهم وسلوكهم ، والـرضـا بمـا قسم الله لهم هو سرّ غناهم واستغنائهم عن السّوى ـ يقول شيخ الطريق سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ مرشداً إلى هذا المقام الرفيـع :ـ

فلا حَوْل إلَّا بالـذى هو واحـدٌ * ولا قوة إلَّا بربّ الـبـريَّةِ
فسلِّم له فى الأمر تسلمْ من الردى * وكُنْ راضياً تسلكْ طريق السَّـلامـةِ
ولـولا كلام الله فى الكون ما سَلَتْ * ولا تَمَّ فَتْـح الـطالـبين لحكمـةِ
سلام على الـرَّاضين حازواْ رضاءَه * فهُمْ فى جنان الخُلْد قبل السَّلامةِ[٣٢]

فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد فتح لأمته باب الاطمئنان القلبىّ الذى هو حياة الروح وسرها ، ونور القلب ، وقائد العقل إلى فكر مع تؤدة وسكينه ، وذلك هو بركة ذكر الله الأكبر ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٣٣] وفتح لها باب الرضا ، وعلَّمها كيف ترضى بقضاء الله وقدره ، فرضيت أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب الجاه العظيم بقضاء الله وقدره ، حَسْبما علَّمها نبيها ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فنـالت من الله تعالى أن قال فى شأن رجالها ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[٣٤] رضـواْ بقضـاء الله تعـالى ، وصبرواْ على أحكامه ، فنالواْ من الله تعالى الرضا . قُلْتُ فى تائيتى بفَضْل ربىّ :ـ

---

(٣١) أسرار الصيام : ١٧ .
(٣٢) الديوان : ٨/ ٤٠ .
(٣٣) الرعـد : ٢٨ .
(٣٤) البينة : ٨ .

رَضِينَا بِحُكْمِ اللَّهِ فينَا فإنَّهُ * عليمٌ بنا يَقْضِى بحقٍّ وحكمةِ
وكلّ الذى يرضى بحكم إلهه * ينال من الرضوان أعظم روضةِ
ويلقى عليه الله فيها رضاءه * بدار خلود فى شهود ونعمةِ
فكن واثقاً بالله وارض بحكمه * ولا تلتفت يوماً لدار القطيعةِ (٣٥)

وإذا ترددت فى أمرين أو أمور فجاءك أمر غير مرادك فاعلم أن هذا باختيار الله فارْضَ به ﴿ وربُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (٣٦) وفى الحديث :-

« اللهم خِرْ لى واخْتَرْ لى » فلا تسخط ولا تحزن ، وكن راضياً بحكم ربك واصبر عليه » (٣٨) .

سلِّم إليه أموراً لَسْت تعلمها * جلَّ العليم بما يأتى وما كانَا
ولا تضق بأمور قد فتنت بها * واستغفر الله توَّاباً وديَّانَا(٣٩)

« وإذا أردت تدبير أمر من الأمور فاتق الله الذى معك بتدبيره ، والذى قدَّر لك رزقك ، ودبره لك قبل خلقك بخمسمائة ألف عام » (٤٠) .

قُلْتُ فى لاميتى :-

اترك التدبير لله الذى * دبَّر الأشيا قديما فى الأزَلْ
ليس بالتدبير شىء زائد * بقضاءٍ كلُّ شىءٍ قد حَصَلْ (٤١)

قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ (٤٢) .

سلم الأمْر له مبتهلاً * لاتكُنْ مثل أُناسٍ دَبَّرُواْ
دبَّر الأمْرَ إلهى أزلاً * يأتى أمْر اللَّهِ لا يَسْتَأْخِرُ (٤٣)

---

(٣٥) الديوان : ٨/ ٤٦ .
(٣٦) القصص : ٦٨ .
(٣٨) انظر أسرار الصيام : ٣٥ ـ ٤١ .
(٣٩) الديوان : ٦/ ٩٤٣ .
(٤٠) أسرار الصيام ٣٥
(٤١) أسرار الصيام ٣٦
(٤٢) السجدة : ٥ .
(٤٣) الديوان ٩/ ٩٨

الحرص على الطَّاعات وتجنُّب المعـــاصى :-

وهذا أول ما يعاهد المريد شيخه عليه ، وإن الحدَّ الفاصل الذى يلتقى عنده المـريد مع شيخـه هو الـطاعـة ، وبـداية الافتراق بينهما عند جنوح المريد إلى المعاصى والمخالفة .

يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنـه :-

« يا أخـانـا فى الله تعالى : تجمعنا الطاعة ، وتفرِّق بيننا المعصية ، فعليك بطاعة الله تعالى ، والحذر كل الحذر من معصية الله تعالى » (٤٤) .

« اعلم ياعبد الله : أن الطاعة حقّ ، والمعصية باطل ، واستلزام الطاعة سابق ، واختيار المعصية لاحق ، والحقّ يزهق الباطل ، فمن أقبل على الطاعات زهقت معاصيه لأحقية الطاعة ، وبطلان المعصية .

فمن اختار المعصية فقد اختار اللاحق ، وأصل الاختيار يكون للسَّابق . ولهذا يفرح الطائع بطاعته ؛ لأنه اختار السابق ، ووضع الشىء فى موضعه ﴿ فبذلك فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ (٤٥) ، ويندم فاعل المعصية لأنه اختار اللاَّحق ووضع الشىء فى غير موضعه ، ولم يكن موفياً لاستلزامه السَّابق (٤٦) . وعلامة صاحب الحبّ الإلهى أنه كلما ازدادت محبته لله تعالى ظهرت عليه موافقة الكتاب والسنة ، والمبادرة إلى إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، والصوم ، وفعل الخيرات ، وترك المنكرات ؛ لأن المعصية والحبّ ضدان لايجتمعان ، ومن ادعى اجتماعهما فقد كذب ، إذ رفيق المحبة الطاعة ، ورفيق البُغْض المعصية ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٤٧) ، قلتُ فى تائيتى :

علامـةُ حبّ الله طاعـة أمـره * ولـلبُـغْض عِصْيَان لأَهْـلِ الشَّقَـاوَةُ
وَمَـنْ يدَّعِ حُبَّ الإلـهِ ويَعْـصـهِ * فَذَلـكَ كذَّابٌ رفيقُ الجَهَـالـةِ (٤٩)

---

(٤٤) مفاتح كنوز السموات والأرض : ١٣ .
(٤٥) يونس : من الآية ٥٨ .
(٤٦) المعانى الرقيقة : ١٢ .
(٤٧) آل عمران : ٣١ .
(٤٨) انظر : أسرار الصيام ص / ٣٧ .

المســـارعة إلى الأعمال الصالحـة :

وهى الأسباب التى يتوصل بها المريد إلى رضا الله تعالى ، وهى للروح بمنزلة الغذاء للجسد ، وهذا ما نَبَّه عليه الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ وهو يخاطب ابن الطريق بهذه الأقوال والحِكَم :ـ

« اعلم ياأخانا فتح الله عليك فتوح العارفين به المقبلين عليه : أن الروح الحيَّة بالإيمان غذاؤها الأعمال الصالحة الحيَّة ، فهى دائما أبداً تتغذى بها ، كما يتغذَّى الجسم الحى بأنواع الطعام الحية بالفيتامينات ، ولا يرضى بالتراب والحجر ، فإذا مات سكن التراب والحجر .

كمـا أن الكـافر المحكوم عليه بالموت يكتفى بالمعاصى الميتة المجردة عن فيتـامينـات الحياة ، فالأعمـال الصـالحـة للأرواح الصالحة ، والأعمال الخبيثة للأنفس الخبيثة قال عليه الصلاة والسلام :ـ « اعملواْ فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له » (٤٩)

« اعلم يا أخانا فى الله تعالى أن الخاطر الذى يخطر بقلبك طالباً منك فعلاً أو قولاً فاعْرِضْه على الكتاب والسنة ، فإن قبلاه فاعلم أنه من الملَك فسارع فى إنفاذه ، وإن لم يقبلاه ففرَّ منه فرارك من السبع ، واعلم أنه من الشيطان » (٥٠) يقول رضى الله عنـــه :

سمـيعٌ بصيرٌ قُلْ لِقَـوْل يحبـه *وإياك والـقـول الـقبيح من الجَهْـلِ
ولا تفـعـل الـفعـل القبيح لأنـه * يراك فلا تغـضـب إلهـك بالفعـلِ
وكن فاعـلاً للخير يرضـاك خالقى * برضـوانـه الأعـلى تعيش بلا ذلِّ
ولا تغـضـبـنَّ الله يومـاً فـإنـه * بصيرٌ سميعٌ سامـع القـول والفعـلِ
تَرَ منـه ما يرضيك إن كنت مخلصـاً * بأفعالك الحسنى لدى الوعر والسَّهْلِ (٥١)

---

(٤٩) رواه مســـلم .
(٥٠) المعانى الرقيقة : ٣٢ .
(٥١) الديوان : ٨/ ١٠٠ ـ ١٠١ .

فهما سبيلان واضحان أمام الإنسان ، ولكل منهما نهاية مرسومة وغرض مُحدَّد فمن اتجه إلى طريق المعاصى والإساءة فنهايته الخسران والهلاك فى الدنيا والآخرة ومن هدى إلى طريق الخير والإحسان والطاعات ، فعاقبته الحسنى والإحسان والنعيم فى الدنيا والآخرة :

يقول سيدى صاحب الأنوار والأسرار والكرامات :-

رضاه لمن قد قام بالأمر يافتى * ويغضب مولانا لفِعْل الإساءة
سبيلان فى الدنيا لدارَيْن وصَّلا * فعالك للحسنى وفعل القبيحة
فإن سرت فى الحسنى وصلت إلى الهنا * وإن سرت فى الأخرى فدار العقوبة
وقولك فى الحسنى قضاه لتشكرنْ * وقولك فى الفحشا / أسأتُ بزلتى
فهذا هو المطلوب إن كنت حاذقاً * ولا تنسب الفحشا لرب الجلالةِ (٥٢)

التفكـــرُّ فى النّعم والشـــكر :-

وهى عبادة الأنبياء والصالحين ، ووسيلة العارفين إلى توحيد رب العالمين ، فالتفكُّر من أجلّ العبادات التى يشترك فيها العقل والقلب والبصر ، ويترجم عنها اللسان بحمد الله تعالى وشكره ، ومما جاء عن الإمام الجعفرى - رضى الله عنه - فى بيان فضيلة التفكُّر والتدبُّر فى النعم :-

« ما أغفل من لم يشاهد فى فعله آية ربه ، الذى له فى كل شىء آية ، تنطق بوحدانيته ، وتدل على عظمته وبديع حكمته ، وما أحسن قول أبى العتاهية :-

أيَا عجباً كيف يعصى الإله * أم كيف يجحده الجاحِدُ
وفى كل شىء له آية * تدلّ على أنه الواحدُ
ولله فى كل تحريكه * وتسكينه أبداً شاهدُ

وقلتُ فى تائيتى :-

آيات ربك فى الفعال جميعها * تنبيك حقاً عن عظيم القدرة

---

(٥٢) الديوان : ٤/ ٥٨٩ .

فى كل شىء آية تهدى إلى * أن الإله له بديع الحكمة
فانظر أخىَّ إلى السماء فكم بها * من آية للناظرين بفكرة
والأرض والآفاق والسُّحْب التى * بين السماء فيالها من آية (٥٣)

وما أكثر الأبيات التى جاءت فى ديوان الإمام الجعفرى تدعواْ إلى تدبُّر آيات الله فى الكون ، وتسبح بحمد الله وشكره على نعمه فى الخَلْق والإيجاد والرزق ، وألوان النعيم التى مَنْ يشكر الله تعالى عليها ، ويداوم على الحمد ، ولا يستخدم تلك فى غير طاعة الله ، فإن ذلك النعيم سيستمر معه يوم القيامة ، ولكن على صورة أخرى ، إنه نعيم سرمدى مقيم ، وسرور دائم لاينقطع - يقول - رضى الله عنه - فى إحدى قصائده :

الله ربٌّ واحدٌ خلق الورى * فَهُمُ العبيدُ لَهُ بغَيْر مِرَاءِ
آثار قدرته بدائع صنعه * أحياهمُ بالروح بعد فناء
رزق الجميع بلطفه وبعلمه * فى البحر فى البلدان فى الصحراءِ
الطير يرزق والوحوش بقفرها * والحوت يرزق فى عميق الماءِ
حشرات أرضٍ كلها مرزوقة * رزق الأجنَّة داخل الأمعاءِ
واللهِ قد كتب الإله لرزقنا * ما بالنا نُفْضِى عن النعماء
واللهِ ما رزق الأنام سواه من * أحدٍ ولم يُعْرَفْ على الغبراء
هلاَّ نظرت إلى السحاب وغيثها * تخضرُّ منه جوانب الغبراءِ
مَنْ أنزل الغيث الذى شاهدته ؟ * مَنْ جاء بالأشجار بالغنَّاءِ
سبحان من جعل التراب منوعاً * يأتى إلى الدنيا بخير غذاءِ
قد وافق الجسد الضعيف غذاؤه * يحيا به فى قوة وهناءِ
تلك الفواكه هل سمعت فوائداً * فيها لدى العلماء والحكماءِ
تلك اللحوم ومابها من قوَّة * خُلِقَتْ لأجلك يا أبا الآباءِ
تسعين عاماً تأكلنَّ طريَّها * من عند ربك قد أتَتْ بقضاءِ
وإلى الممات لك التمتُّع بالذى * قد كان مكتوباً ليوم لقاءِ

---

(٥٣) أسرار الصيام : ٣٩ .

مَنْ غير ربك قد أتاك برزقه ؟ * رزَّاق يرزق واسع النعماءِ
إن كنت مرزوقاً كغيرك يافتى * فاشكُرْ إلهك خالق الأنواءِ
وهب العباد حياته ونعيمه * وأحاطهم ربِّى بكل رجاءِ
ومنامكم بالليل أعظم آية * والبعث بعد النوم كالإحياءِ
أولادكم وبناتكم مكتوبة * أرزاقكم آجالكم يارائى
مَنْ مات لم يترك له أجلاً ولا * رزقاً وتلك عقيدة العلماءِ
إنْ كنت من أهل العلوم فلا تدع * شكا بقلبك فى هُدى الإنجاءِ
واعْلَمْ بأنَّكَ مَيِّتٌ وَمُقَابِلٌ * رَبًّا كَريماً أَرْحَمَ الرُّحَمَاءِ
سلِّمْ لهُ كلَّ الأمور ولا تكن * عبد التفكُّر صاحب الآراءِ
فيما قضى الله العظيم لخلْقه * لافى قضاء الخلق والأمراءِ
فكِّر عبيد الله فى عملٍ به * كلِّفت منْ فِعْل مع الإصغاءِ
إن ضاق رزقك فاشكرنَّ لرازق * يَزْدَدْ بفضل اللهِ فى الإنماءِ
أو زاد رزقك فاشكرنَّ مزيده * أَرفِقْ بذى الحاجات والفقراءِ (٥٤)

وإذا كان الكون كله ميداناً فسيحاً لتأمل قدرة الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فإن التفكُّر فى أحوال الإنسان واختلاف خَلْقه وخُلُقه ، وتباين أحوال الناس بين غنىّ وفقير ، وصحيح وسقيم ، وعالم وجاهل ، هذا ذاكرٌ لله تعالى حاضر القلب ، وذاك غافلٌ لاهٍ نائم .

فسبحان الله العظيم الذى خلق الإنسان فسوَّاه ، وألهمه فجوره وتقواه . والآن تعال نتأمل معاً هذه التسابيح الجعفرية ـ يقول رضى الله عنه :

النَّاسُ فى الدنيا كما شاهدتهم * الله فرَّق بينهم بعطاءِ
متوسط فى رزقه أو مكثر * وكذا الفقير يُعَدُّ فى الفقراءِ
هذا طويل ذا قصيرٌ شخصه * هذا سمينٌ ذاك فى الضُّعَفاءِ
ألوانهم ولغاتهم وبلادهم * أولادهم جاءت بغير سواءِ
سبحان مَنْ خلق العباد بحكمة * ونظامه يعلو على العلياءِ

---

(٥٤) الديوان : ٧/ ١٨٧ ـ ١٩١ .

هذا مريض ذا صحيح يافتى * هذا يموت مفارق الأحياءِ
بَاكٍ لأمرٍ قد أحلَّ له البكا *والضَّاحكون لمضحك وعناءِ
والذاكرون تراهمُ فى وَجْدِهمْ * جَوْفِ الظلام بحضرة وبكاءِ
والنائمون تراهمُ فى ليلهم * جُثَثاً مع الأموات والأحياءِ
قد سخَّر البَحْر الأبىَّ بقدرة * جَعَلَتْهُ منقاداً بغير عطاء
فمتى الرجوع إلى الإله وقوله * ضاقت بنا الدنيا من الأعداءِ (٥٥)

التوكل على الله تعالى :ـ

يقول شيخنا الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

« التوكُّل : تفويض الأمر للوكيل ، والرجاء تعلُّق القلب بما عند الوكيل ، فمن توكل على الله ورجا الله تعالى لم يكله الله إلى غيره فى جميع الأمور .

ورحم الله القائل :

فوضت أمرى لخالقى * وقُلْتُ لقلبى كفاك الجليلْ
يدبرنى ولا علم لى * وهو حسبى ونعم الوكيلْ

وما من رسول أو نبىّ أو ولىّ إلاَّ وقد توكل على الله تعالى ، ورجا الله تعالى ، وتوكل الصوفية توكُّل ذوق، شهودىّ بالوراثة المحمدية على سبيل قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم : « انصرفوا عنى أيها الناس فقد عصمنى الله » (٥٦) وذلك لمَّا نزل قوله سبحانه ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٥٧) .

وقول الخليل حين أرادواْ إلقاءه فى النار جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له : هل لك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأمَّا إلى الله تعالى فعلمه بحالى يغنى عن سؤالى .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما :ـ « كان آخر قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ

---

(٥٥) ٧/ ١٩٠ ـ ١٩٣ .
(٥٦) أسباب النزول للواحدى .
(٥٧) المائدة : ٦٧ .

حين ألقى فى النار حَسْبى الله ونعم الوكيل » [٥٨] .

والتوكُّل على الله حصن حصينة ، ودرع واقية ، وبه تحصل للقلب أحوال عَشْر :-

الأولى : الطمأنينة إلى الله تعالى .

الثانية : سكون القلب إلى قضاء الله تعالى وقدره مع وجود حلاوة يدركها القلب عند حلول القضاء والقدر .

الثالثة : جمع همّ القلب بعد شتاته .

الرابعة : حصول الشجاعة عند مقتضياتها .

الخامسة : الثبات فى مواقف الفرار .

السادسة : عدم التفكر فيما سيقع فى المستقبل .

السابعة : عدم الحزن والخوف والجزع .

الثامنة : عدم التوجُّه إلى الخَلْق بقلبه .

التاسعة : الرضا بما حصل .

العاشرة : خلوّ القلب من تعب الفكر والتدبر [٥٩] .

السَّعْى فى الأرض والأخذ بالأسباب :-

والتوكل على الله لاينافى الأخذ بالأسباب ؛ لأن التوكل عمل قلبى والأخذ بالأسباب متعلّق بالجوارح .

وهذا المبدأ من أهم علامات الطريقة الجعفرية ، وقد نال من شيخها سيدى صالح الجعفرىّ عنايةً واهتماماً ، فكان يحثُّ أبناء الطريقة على السَّعْى فى طلب الرزق والكسب الحلال مما يعينهم على طاعة الله تعالى ، ونَفْع الفقراء والمساكين . ولا يجعل القلوب مشغولة بشىء غير عبادة الله تعالى ، وكان يحثهم على العمل الشريف فى سائر صوره ، فالمهم ألا يتبطل الإنسان أو يعيش عالة كَلاًّ على غيره .

---

(٥٨) رواه البخارى .

(٥٩) المنتقى النفيس : ص ١٢٨ - ١٢٩ .

وتلك مزية فى طريقته رضى الله عنه ـ وهى سمة أبنائه اليوم .

فهم يعملون ويسعون فى الأرض ويأخذون بالأسباب مما يجعلهم يعطون ولا يأخذون ، ينفقون على الفقراء والمحتاجين وإقامة المشروعات الناجحة لخدمة عامة المسلمين ـ يقول صاحب المدد الجعفرىّ سيدى صالح :ـ

والسَّعْى مطلوبٌ لكل فضيلة * والتركُ مطلوبٌ لدى الفحشاء
والجدُّ مطلوبٌ لأجل معيشة * وكذا السلاح لِرَوْعة الأعداءِ
والعلم مطلوب لأجل تعبُّدٍ * وكذاك فى الدنيا مع العلماء
فازرعْ وتاجر واجتهد فى صنعةٍ * لتعيش فى الدنيا بخير ثراءِ (٦٠)

فالمؤمن إنما يجب عليه أن يأخذ بالأسباب كما أمره الله تعالى ، ومن أراد شيئا طلبه ، ففى طلب الحوائج من الله تعالى قربة وتقرُّب من العباد إليه تعالى ، وهو يحبُّ ذلك من عباده لأن هذه هى طبيعتهم : هم يسألون ويطلبون ، والله سبحانه وتعالى يعطى ويمنح وهو وحده الرزاق ذو القوة المتين . يقول مولانا الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه : (٦١) .

فلا تتركنْ كسب المعالى فإنما * بأسبابها تأتى الأمور لحكمةِ
فمن رام للأولاد يدعو إلهه * ولابدَّ من كَسْبٍ يكون بزوجةِ
ومن رام حج البيت ينوى بقلبه * ولابد من يومٍ يسير بسفرةِ
ومن رام صوم الشهر ينوى بقلبه * ويمسك عن أكل وشُرْب وقُبْلةِ
ومن رام أن يُشْفى ففى النحل آية * لإثبات أسباب الشفاءِ بشربةِ
وفى عرش بلقيس أمورٌ لمن درى * فمن ضمن أسباب خوارق عادة

ومن هذه الأبيات السابقة يتضح منهجه ـ رضى الله عنه ـ وطريقته فى التعامل مع الحياة فهو يسير على نَهْج العلماء العارفين ، وأئمة التصوُّف المحققين ، الذين التزموا آداب الكَسْب والمعاش ، وفرَّقوا بين التوكُّل والتواكل ، فالسعى والعمل والأخذ بالأسباب كلها أمور تعين على عبادة الله تعالى ، ولا حظَّ فيها لحب الدنيا والانغماس فى شهواتها وملذاتها .

---

(٦٠) ٧/ ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٦١) ٨/ ١٠١ .

وهذا المنهج فى السعى وطلب الرزق هو امتثال لأمر الله تعالى لعباده جميعاً ، بقوله ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٦٢) .

والنبىُّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قد حثَّ على العمل ورغب فيه ، وأثنى على العاملين فى أكثر من حديث ، وأعطى القدوة من نفسه فكان يعمل بيده الشريفة وكذلك كان الأنبياء عليهم السلام ـ من قبله يعملون .

فهذا المنهج سائر على الكتاب والسنة يذكرنا الإمام الجعفرى بهذه الحقائق فيقول فى إحدى قصائده :ـ

فاللَّهُ يكْرَهُ عَبْدَهُ الْبَطَّالَ لاَ * تَنْسَ الحديث فواجبٌ تَتَسَبَّبُ
بزراعةٍ بتجارةٍ أو صنعةٍ * هذا طريق الدين يامَنْ يرغبُ
واقرأ كلام الله (فامْشُواْ) إنها * دلَّت على السعى الذى هو مركبُ
فإذا سعيْتَ لكَ الثَّواب على الذِى * تسعى له ولك الإعانة تصحبُ
هذا سبيلُ الأولين فَسِره على * نَهْج الأوائل خير نَهْج يُطْلَبُ
التَّرْكُ عصيانٌ فكُنْ مُتَسَبِّباً * وعليك بالسعى الذى هو طيِّبُ (٦٣)

ملازمة الذكر :ـ

الذكر هو عماد الطريق ، وهو حصن الولاية ، ولُبّ العبادة ، وهو أنيس المستوحشين ، وقرَّة عيون العارفين ، وهو الوقود الذى تسير به سفينة القوم ، وهو قطب الرحى عندهم ، وجلُّ الآداب عند أهل الطريق يدور حول الذكر وآدابه وثمرته وأنواعه وأوقاته . . . وغير ذلك .

وقد تقدم الكلام على الذكر عند مبحث الأوراد نثبت هنا بعض ما ذكره الإمام

---

(٦٢) الملك : ١٥ .
(٦٣) ٧/ ٢٥٦ .

الجعفرى حول معنى الذكر عامة وفوائده ، ومنزلة الذَّاكرين عند الله تعالى ، ولأن كلام العلماء الحكماء له أنوار وأسرار ، ومتوج بالقبول من عند الله تعالى ، نترك المجال للإمام الجعفرى لِيحُلّق بنا فى آفاق الذكر ، ويجول بنا فى معانيه . يقول - رضى الله عنه :-

« أيها الإنسان : إنك لفى حاجة شديدة إلى الإكثار من ذكر ربك ؛ ليكون الإكثار مدافعاً عنك أمام النقم الكثيرة ، والذنوب الكبيرة ، والأعوام الطويلة فلا تترك سلاحك وأمامك الهيجاء ، فإن مكائد الشيطان كثيرة ، فأعدّ له عدة أهل الفلاح ، وإلاَّ يقال لك كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح » (٦٤) .

« فإذا لاَنَ قلبك بذكر ربك فلا ريب أن يلين لك الحديد الذى هو جوارحك » (٦٥) .

« فهيِّىء نفسك لمن بيده أنفاسك ، واذكره إن استطعت عند كل نفس وخاطر وهاجس إذا هجس ، فأنفاسك حرَّاسك إذا فطنت لذلك ؛ لأنها من آثار قدرة مالك الممالك ، فمن العبث نسيانك لجليسك ، ووحشتك من أنيسك ، كم جالسك وأنت تذكر ، وكم آنسك وأنت لاتشعر ، وربما كان ذلك بواسطة وبلاَ ، كما خلقك مستقراً ومعرضاً للبلى .

فالروح مستقر وما سواه فانٍ ، وكحركاتك وسكناتك والزمان ، فما بقى ذكرك البقاء ، وما فنى ذكرك الفناء ، فهل وصلت حتى تتصل ، أم تريد أن تمدّ رجلك قبل الوصول ، ويدك قبل الدخول ؟ بل غبت وما غاب ، وتواريت بالحجاب ، وأردت الدخول من غير باب ، فكم سمعت كلامه ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ (٦٦) ، وكم ذكرت أيامه ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ (٦٧) . . » (٦٨)

---

(٦٤) الإلهام النافع : ١٧٩ - ط ثالثة .
(٦٥) الإلهام النافع : ص ١٨٤ .
(٦٦) التوبة : ٦ .
(٦٧) إبراهيم : ٥ .
(٦٨) الإلهام النافع : ١٨٣ .

« إذا أكثرت من هذا الذكر ستفتح لك أبواب ماخطرت لك ببال » (٦٩) .

« انْفِ عن نفسك ماسواه لترتقى ، فما دخل الحضرة إلا القلب النقى ، فإذا ظفرت بالنقاوة ذُقْت لذكر ربك حلاوة إذا بقلبك حلَّت ، لحلاوة غير العبادة عنك جلَّتْ ، فإذا جلت عنك الأغيار ، أزيلت عن قلبك الأستار ، وهبطت عليه أنواع الأسرار ، عند كل نفس وحركة وقول وفعل ، وحيَّاك ابن الفارض ـ رحمه الله ـ بقوله :ـ

ولاَحَ سِـــرٌّ خفـــىٌّ * يَدْريـــهِ مَنْ كَانَ مِثْـلِى (٧٠)

« الأنس بالذكر : التلذذ به ، ووجود حلاوته فى القلب يكون تارة بأمرين : حال الرُّوح وهو : الصفاء الذى يكون عند التلاوة ، كالذوق عند الطعام . والثانى : الوقت المناسب كضوء النهار عند القراءة ، فكما أن الأحوال تتفاوت كذلك الأوقات تتفاوت » (٧١) .

وإذا نظرنا إلى ديوان الإمام الجعفرىّ رضى الله عنه ـ فإننا نجد قصائد الذكر تمثل الجانب الأكبر منه ، فهى قصائد نظمها الشيخ ليذكر الله تعالى بها فى الحضرات وفى سائر الأوقات ، وفيها يتحدث ـ رضى الله عنه ـ عن فوائد الذكر ـ فيقـــول :ـ

ولا تَنْس ذكـر الـلَّه تَلْقَـاه حاضـراً * تســاق إلى الـرِّضـوان سوقـاً مُيَسَّـرا
وتـحـيا سعـيداً ماحـييت بذكـره * فمـن نسـى الأذكـار يومـاً تحـيَّرا
فسبِّـح وهلِّل واحمـد الله دائمـاً * تر الـخير منسـاقـاً إليك ومُحضـرا
ومَـنْ ذكـر الـرحـمـن يزداد صَفْـوه * يعـيش سعـيداً لايكـون مغـيرا
فمـا الصَّفْـو والعـرفـان إلاَّ لذاكـرٍ * رأى الـذكـر حُلْوًا والـزمـان معطّرا (٧٢)

والله سبحانه وتعالى يحب من عباده الذاكرين ، ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ (٧٣) .

---

(٦٩) الإلهام النافع : ١٧٩ .
(٧٠) الإلهام النافع : ص ١٧٥ .
(٧١) الإلهام النافع : ص ٩٩ .
(٧٢) الديوان : ٢/ ٢٧٦ .
(٧٣) البقرة : ١٥٢ .

« أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركَّت بى شفتاه » (٧٤) .

تلذَّذ بذِكْـر اللَّهِ فى السِّـرِّ والْجَهْـر * لتحيا سعيداً فى الحياة وفى القَبْـرِ
ولاتشتغـل بالغير فالغير فتنـة * وكـلُّ سَيَفْنَى واللقـاء لدى الحشـر
وشـاهـد جنان الخُلْد قبل دخولها * فروضتهـا الأنـوار فى حضـرة الذكـر
وشمِّـر عن الأغيار وانهض إلى العلا * وأقْـلِعْ عن البيداء والـظِّلل القَـفْـر
وشـاهـد قريبـاً كنت عنـه بمعزل * وفـى جنـة الأمـوات تدخـل بالأمـر
وفى جنـة الفـردوس تَلْقى رضـاءه * وتـلقى رسـول الله يلقـاك بالبشـر
وتـنـظر للأرواح تهـتـز للُّقَا * ولـو كانت الأطـواد دُكَّت على الفَـوْرِ
فطاروا ومـا طاروا وطَـارت قلوبـهـم * إلـى المـلأ الأعلى ركـائبهم تجـرى
فنـالـوا من الـعـلم اللدنىّ قطرة * فنـالـوا بهـا عِلْماً يفـوق على البحـر
ولـو كتـبـوا لَوْحـاً لَلاَحَ سنـاؤه * ولـو كتـبـوا سِفْـراً لأَسْـفَـرَ كالفجـر
فسبحـان مَنْ أعـطى أحبـة ذِكْـرِه * من الـمـلأ الأعـلى نفـائس كالـدُّرِّ
وَصِـرْ فانياً فى الـلهِ عنـد فنـائهـا * فإنَّ فنـاء الـنـفس فاتـحـة الـسِّـرِّ
ومَـنْ لم يَمُـتْ حيًّا يرى لِوُجُـوده * مع الـحـىِّ موجـودٌ وفى قَفَص الأَسْـرِ
فإنَّ حجـاب الـنفس رؤية نفسـهـا * وفى مَحْـوهَـا مَحْـوُ الستـائـر والغَيْرِ
سلامٌ على أهْـل الـممـات فإنـهـم * بمـوتـهـمُ نالُـوا الحياة مع الـصَّبْـرِ
ومـا هَمَّـهُـمْ إلَّا لقـاء حبـيبـهـم * وأنـواره تهـدى الـقـلوب إلـى الـخيْرِ
إذا قيل ياألله هامـت عقـولـهـم * وتـسبـح مِنْ وَجْـدٍ كأجنحـة الـطَّيْرِ
هنيئاً لعـبـدٍ قام لله مخـلصـاً * بعـيداً عن الأهـواء ينشىء للشُّكْـر
وصلَّى صلاة الـصبـح والنجم ثاقب * فعـاش سعيداً فى الحياة مدى العمـر
ونـادى بجـوف الـليل والليل عاكـرٌ * حبـيبـى قريبٌ قد رفـعـت له أمـرى
ومـا حاجـتـى إلا شهـودك دائـمـاً * بقـلبى وروحـى لاتـغيب عن الـسـرِّ
وفى الحجب طردى وابتعادى وشقوتى * فلا قدَّر المـولى حجـابى مدى الـدهـر
سلام على أهـل الـمحبـة إنـهـم * غريقـون فى دَمْـع الـمحبـةِ كالنَّهْـر
مليئـون بالأنـوار والـشَّـهْـد دائـرٌ * شُهُـود بقَلْبٍ فى الحياة وفى القَبْرِ (٧٥)

---

(٧٤) رواه ابن ماجـــه .
(٧٥) الديوان : ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤ .

فأهل الذكر هم الهائمون فى حبّ الله تعالى ، الذاكرون له فى ليلهم ويومهم ، وفى يقظتهم ونومهم ، وهؤلاء المنعمون بذكر الله تتزاحم الأنوار حولهم ، ولا يشقى بهم جليسهم ، فمن حولهم تتنزل الرحمات ، وفى مجالسهم تُقْبَلُ الدعوات ، وفى مجالس الذكر يحلو للذاكرين الرَّتْع فى روضات الجنّات ، وهذه المعانى وردت فى آيات القرآن البينات المعجزات ، وأيّدتها أحاديث المصطفى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سيّد السادات . قال تعالى ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً ﴾ (٧٦) ، وقال ـ ﷺ ـ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » فقال الحاضرون : وما رياض الجنة ؟ فقال لهم ـ ﷺ ـ « حلق الذكر » (٧٧) » .

وقد نظر الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ إلى معنى الآية والحديث فى فضل مجالس الذكر وعبر عنها فى أبيات محكمة النسج ، قوية الصياغة ، جزلة الألفاظ ، عذبة المنهل فقال وهو يصف مجالس الذكر ، ويبيِّن منزلة الذاكرين فيها عند الله ، وأحوالهم :

يَامَنْ يُرِيدُ شِفَاءَ القَلْبِ مِنْ عِلَلٍ * اذْكُرْ فَفِى الذِّكْرِ مَنْجَاةٌ مِنَ الزَّلَلِ
ومجلس الذكر فيه الخير أجمعه * الله فيهِ مع الأملاك والرُّسُلِ
الرتع فيه كذا الجنات مغدقة * والوجد أبكى رجالاً فيه بالمُقَلِ
الله يذكرهم بين الملائك فى * أعلى السماوات ذكراً خالى المثلِ
الله يفتح أبواب السماء لِمَنْ * دامُواْ على الذكر فى الإبكار وَالْأُصُلِ
الذاكرون لهم فى ذكرهم نِعَمٌ * يكسوهمُ الله بالأنوار والحُلَلِ
ياحضرة الذكر فيها كل غالية * فيها الأمان لمن يخشى على مَهَلِ
فإنْ أردت وصالاً فالوصال بها * مطية الذكر تدنى غاية الأملِ
وإن أردت سروراً فالسرور بها * نعم السرور الذى يأتى على عجل
ياواقفاً عند ذكر الله مبتهلاً * أبشر بخير لك العلياء فى الأزل

---

(٧٦) الأحزاب : ٣٥ .
(٧٧) رواه الترمذى .

دار الشراب بها والقلب آنية * والروح تشربه أحلى من العسل
ذكر المهيمن للأرواح راوية * يديرها أفضل الأنباء والرسل
محمد أحمد الممدوح قدوتنا * نور المهيمن فى سهل وفى جبل
ختم النبوة يوم الحشر شافعنا * يُفَرِّج الكَرْب يوم الكَرْب والوجلِ
له النبوة قد كانت نبوته * من قبل آدم قبل القَبْل والأوَلِ
نعم الحريص علينا فى تقلبنا * فى مجلس الذكر جذَّابٌ لكل ولى
ياذاكر اللهِ أَبْشِرْ إنْ ظفرت به * تكفيك نظرته بالقلب فابتهل
المسك فاح لمن بالليل قد ذكروا * والنور لاح كمثل البدر والشُّعَل
والروح تهتز من آثار جذبته * لولا العناية دُكَّ الجسم كالجبل
ومَنْ تجلَّى عليهم لاشبيه له * كل الخلائق من عَلْيَاهُ فى وَجَلِ
جاء البشير لهم يسبقهمُ عطرًا * معتقًا من قديم مشرب الأوَلِ
من كفّ أحمد مشهوداً لمن شهدوا * مظاهر الحقّ فى خَلْق بلا زللِ
النَّاسُ إذْ ذَاكَ أنْوَاعٌ مشاربهم * فمنهمُ عالمٌ يهدى إلى السُّبُلِ
ومنهمُ وارث للقوم فى حشم * يَهْدِى الطريق لأهل الذكر والعملِ
ومنهمُ صامتٌ فى حال جذبتِهِ * كالليث يسكن فى الآجام والقُلَلِ
ومنهمُ بائعٌ فى السوق تبصره * أوْ زارع بين أغصان لدى طللِ
ومنهمُ حاكمٌ بالعَدْلِ ذُو شَرَفٍ * ومنهمُ حاملٌ للسَّيْفِ والأسلِ (٧٨)

التوبة والاستغفار :-

وهما من أعلى مراتب التصوُّف ، ومن أهم آداب الطريق ، وقد مدح الله ـ تعالى ـ عباده المكثرين الاستغفار فقال سبحانه : ﴿ الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والقَانِتِينَ ، وَالْمُنْفِقِينَ والمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٧٩) .

ودعَا عباده جميعاً إلى المسارعة إلى التوبة فقال ﴿ فَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّه الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨٠) .

---

(٧٨) الديوان : ٥/٧١٧ ـ ٧٢٠ .
(٧٩) آل عمران : ١٧ .
(٨٠) النور : ٣١ .

ومقام التوبة والاستغفار رفيع فى ميدان التصوُّف ولهما أسرار وأنوار فالتوبة عبادة وتـذلّـل وتضـرّع إلى الله تعالى ، ومسارعة إلى الطاعات ، وإقلاع عن الذنوب المهلكـات ، والاستغفـار ذكـر عظيم ، وَوِرْد غالٍ نفيس : يقـول مولانا الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه :ـ

« يقول الله تعالى ـ ﴿ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (٨١) ومن نعم الله على هذه الأمة المحمدية هذه المغفرة » (٨٢) .

« الله سبحانه وتعالى ـ قال بأنه غفور لمن أذنب ثم تاب واستغفر ، وقال النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « ماضَرّ مَنْ استغفر فى اليوم سبعين مرة » (٨٣) فكلما أذنبت تُبْ ، فإذا تبت غفـر الله لك » (٨٤) فإن شاهدت نفسك موجودا ، عظيما غنيّا ، مستغنيا عن الله فهذا ذنب لايُعَادله ذنب . بل يجب عليك أن ترى نفسك ناقصاً بالنسبة إلى كمال الله ، فقيراً بالنسبة إلى غنى الله ، عاجزاً بالنسبة إلى قوة الله ، جاهلاً بالنسبة إلى علم الله . فَقِفْ على ذاتك بالعجز والاستغفار ، والتوبة والسؤال ، فإن الله يحب أن يُسْـأَل فأكْثِرْ من سؤال ربك » . (٨٥) « فمعنى العبد توّاب : كثير الرجوع إلى الله ، والتوبة معناها الرجوع إلى الله ، ومعنى أنّ الرب تواب كثير الرجوع من الغضب إلى الرضا .

كلمـا أذنبت غضب ، وكلمـا استغفـرت رضى ، ولو فى اليوم سبعين مرة لا يغضب سبحانه وتعالى » (٨٦) .

« وإذا كثـرت عليك الذنوب فاذكر مغفرة الله تعالى ، وأنه معك بمغفرته متى استغفرته أثابك وغفر لك ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ (٨٧) غير أنك لاتتكل

---

(٨١) نـوح : ١٠ .
(٨٢) منبر الأزهر/ ١٦٤ .
(٨٣) رواه أبو داود والترمذى .
(٨٤) منبر الأزهـر ١٦٥ .
(٨٥) نفس المرجع والصفحة .
(٨٦) انظر منبر الأزهر ـ ديوان خطب الإمام الجعفرى : ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٨٧) الزمر : ٥٣ .

على المغفرة وتهيم فى فعل الرذائل » [٨٨] .

« عليك يا أخانا بملازمة الاستغفار ، فإنه نعم الماحِى للأوزار حتى تلقى الله طاهراً مطهراً ، نقيًّا تقيًّا يحبك الله تعالى ويرضاك ، وبتوبته وعفوه يتولاّك » [٨٩] .

يقول شيخنا ـ رضى الله عنه ـ فى ديوانه مرغباً فى التوبة والاستغفار :ـ

تُبْ إنْ أَرَدْتَ محبَّـةَ الـغـفَّـار * فالـلَّهُ يَغْـفِـرُ سائـر الأَوْزَارِ
ما خَابَ مَنْ قَصَـدَ المهيمن تائباً * ينـجـو بتـوبـتـه من الأغـيـارِ
لا يستـقـيمُ القلبُ فى أعمـالـهِ * حتـى يَتـوُبَ لواحـدٍ قهَّـارِ [٩٠]

التذلُّل والتواضـــــع :ـ

وهُمَا خصلتان يحبهما الله تعالى ـ فى عبده ، فهو عند المنكسرة قلوبهم من أجله ، المتـواضعين لعـظمته ، الخاضعين لعزته ، المقهورين لقهره وجبروته . يقول الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه :ـ

« وإذا حدثتك نفسك بقهر عبيده فاتق الله الذى معك بقهره وجبروته ، فإذا رأيت نفسك مقهوراً لغيرك فاعلم أن ذلك مظهر لتجليات اسم ربك القهار ، إذ كل ما سواه مقهور له ، ولا قاهر له ـ سبحانه وتعالى ـ حتى إن الزوجة تقهر زوجها ، والولد يقهـر أبـاه ، والعبـد يقهـر سيده ، والـرعية تقهـر أميرهـا ، والنهـار يقهـر الليل كذلك . . . . وهكذا .

والخليقة لاتقهر خالقها ، وهو يقهرها ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [٩١] وإذا جاءك العلوّ والكبـر فاذكـر عظمـة الله تعـالى وكبرياءه ، واتق الله الذى يبغض المتكبر والمتعاظم ، ويحب المتذلل له تعالى . قال سيدى عمر بن الفارض ـ رضى الله عنه :ـ

---

(٨٨) أسرار الصيام : ٣٤ .
(٨٩) مفاتح كنوز السموات والأرض : ٢٤ .
(٩٠) الإلهام النافع : ١٦٣ .
(٩١) الأنعام : ١٨ .

تَذَلَّلْ لمن تَهْوَى فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْلاً * فَفِى حُبِّهِ يَحْلُو التَّهَتُّكُ والذُّلُّ

وأراد بالتذلل : التواضع والانخفاض كما قال :

تَوَاضَعْتُ ذُلاً وانْخِفَاضًا لعِزِّهَا * فَشَرَّفَ قَدْرِى فِى هَوَاهَا التَّوَاضُعُ (٩٢)

ويقول شيخنا ـ رضى الله عنه ـ فى الوصية :ـ

وَأَقْرَبُ لِلْوُصُولِ لَهَا ذُلُولُ * فَذَلِّلْ يَافَتَى وَلَكَ الْخَفِىُّ (٩٣)

عدم التغالى فى القَوْل والمُعْتَقَد :ـ

ومن أهم الآداب التى يجب على المريد أن يراعيها فى سلوكه مع الله ـ تعالى ـ عدم التغالى فيما يقوله أو يعتقده فى جانب الحق سبحانه وتعالى :

كأن تحدثه نفسه برؤية الحق يقظة ، أو يرى نوراً منه ، أو يسمع له كلاماً ، أو يشمّ له رائحة .

كل ذلك من صفات الحوادث ، ومستحيل على الحق ـ سبحانه وتعالى :ـ يقول الجعفرىّ ـ رضى الله عنه :ـ

« الحق سبحانه وتعالى لايرى فى الدنيا ، والعارفون أنفسهم يعترفون بذلك كما هو مُسَطَّر فى كتبهم . قال سلطان العارفين سيدنا ومولانا أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ فى أحزابه :

« سأل النبىُّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ جبريلَ ـ عليه السلام . بقوله :

هل رأيت رَبَّك ؟ فانتفض وقال : إن بينى وبينه سبعين حجاباً من نور لو دنوت من أدناها لاحترقت » (٩٤) .

وقال فى الشيبانية ـ وهى المنظومة الأزهرية :ـ

---

(٩٢) أسرار الصيام : ٣٦ ـ ٣٧ .

(٩٣) الديوان : ٧/١٤٣ .

(٩٤) أوراد السيد أحمد بن إدريس : ص ٥٩ .

ومـــن قال فى دار الـــحياة رأيتـــه * فذلـــك زنـــديق طغـى وتَمـــرَّدَا [٩٥]

ومنهـــا : الخـــوض فى أخبـــار الغيب ، والإكثـار من الحـديث عن الـرُّؤى والكرامات ، فذلك يُدخل فى القلب الغرور ، ويسلبه صفة التخفىّ والتوارى وهى من أهم صفات السالكين :

يقول الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه :

« ولا تتهجم على الغيب ، ولا تتكلم به فإنك إن كنت صادقاً فقد خالفت طريق القوم فى أنهم يحبون الستر ، وإن كنت كاذباً فتلك صفة شنعاء ، وقد حذر منها أهل الطريق مريديهم » . [٩٦]

---

(٩٥) المنتقى النفيس : ص ٨٧ .

(٩٦) الذخيرة المعجلة : ص ٢٥ .

ثانيا : أدب المريد مع النبى ـ عليه الصلاة والسلام :ـ

إن السالك فى طريق الله ـ تعالى ـ يجب عليه أن يعرف حقوق النبى المصطفى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما يجب له نحو أمته ، وأن يعرف هذا النبى الكريم معرفة تامة من جميع الوجوه ، فبذلك يتحقق له القرب ثم الاتصال برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وبذلك يتحقق القرب من الحضرة الإلهيـة . .

وأولى هذه الآداب الواجبة تجاه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم هى امتلاء القلب بمحبته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حبا يفوق حب النفس والأهل والمال ، وأن يتحقق المريد بهذا وترسخ قدمه فيه حتى تكون جميع جوارحه مصدقة لهذا ، وإلا أصبحت دعواه بلا برهان . .

وعلى هذا الأصل العظيم تبنى معظم حقوق النبى صلى الله عليه وسلم التى يجب على المسلم أن يراعيها فى التأدب معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلزوم محبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ تورث متابعته ، ومناصحته ، وتعظيم أمره ، وتعظيم حرمته حيا وميتا ، وبر آله وذريته ، وتوقير أصحابه وإعظام جميع ما ينسب إليه ، وكثرة الصلاة والسلام عليه ، ومتابعة زيارته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى آخر ما تزخر به مؤلفات الإمام الجعفرى النثرية والشعرية [1] .

محبتـــه ـ صلى الله عليه وآله وسـلم :

وهى أساس الطريق إلى حضرته ، ومفتاح باب الوصول إلى رؤيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن أهم معالم طريق الإمام الجعفرى ـ المحبة القلبية الخالصة ، والاتصال الباطن والظاهر برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرض ـ وهو دليل الإيمان فلا يكمل إيمان مؤمن إلا بحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن محبته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تعنى طاعته ، وطاعته صلى الله عليه وسلم توصـل المرء إلى حبّ الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى ـ يقول :

---

(١) راجع السيرة النبوية المحمدية ص ٧٤ .

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢) ﴾ .

فسالك هذا الطريق الجعفرى له اتصال مباشر برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن فضل الله تعالى أن جعل أبناء الطريق فى كفالة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد نقلنا ما ذكره الإمام الجعفرى ـ فيما سبق ـ عن هذه الخصوصية التى تميز بها الطريق الجعفرى ، وهذا الاتصال لايتحقق للمريد بمجرد انتسابه لطريقة الإمام الجعفرى ولكنه يحتاج إلى جهاد طويل ، وتربية للنفس حتى تتخلص من ظلماتها ، وتتجرد عن شهواتها ، وتتخلى عن حظوظها ، فتكون أهلاً لهذا الاتصال الذى هو ثمرة طريق الإمام الجعفرى ، الذى يبين لنا مايجب أن يكون المريد عليه من المحبة والشوق الدائم إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول :

« واعلم أنه لايؤمن أحد حتى يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالده وسائر الخليقة الإنسانية ، إذ محبته هى محبة الله تعالى ، وطاعته هى طاعة الله تعالى ، ولا تغفل عن صفىّ الله تعالى ومُجْتَبَاهُ » (٣)

.

فمحبة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حصن للمريد ، يلوذ به عند الشدائد ، وهو سلاح قوى يحارب به الشيطان والنفس والهوى ، يقول مولانا الإمام الجعفرى (٤) :ـ

حب خير الخلق كنزٌ * ليس يفنى بالدهور
حبه حصن حصين * وشفاء للصدور
لاتبالى من عدو * لا من السبع الهصور
إن رآك السبعُ ولّى * فى حياءٍ ونفور
حبه جندٌ قوىٌ * ذو سلاح كالأمير

---

(٢) آل عمران : ٣١ .
(٣) السيرة النبوية المحمدية/ ٧٤ .
(٤) الديوان ٢/ ٣١٧ .

ومحبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا إليها القرآن الكريم ـ الذى هو كلام الله ـ وكذلك دلت عليها الأحاديث النبوية الشريفة ، يشير إلى ذلك سيدى العارف بالله الشيخ صالح الجعفرى فيقول [٥] :ـ

مَنْ حبه فرض ودين للذى * قرأ الكتاب وسائر الأخبار
اقرأ حديثاً للبخارىِّ الذى * يرويه عن أنس فكن بالقارى
(إن الذين يبايعونك) إنما * دلت على الهادى كبدر سارى
اعرف فضائله ولازم حبه * ينجيك ربى من عذاب النار
فهو النجاة لمن أراد نجاته * وهو الوسيلة للكريم البارى

طاعة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ

ومعناها : اتباعه فى كل ما جاء به من أوامر ، والانتهاء عن كل ما نهى عنه ، فمعنى الطاعة : الاستجابة له فى الظاهر والباطن ، قال الله ـ تعالى :ـ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [٦] .

والاستجابة لحضرة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تشمل كل شىء ، فى العبادة وفى المعاملة وفى كل صغيرة وكبيرة من أمور الإنسان العامة والخاصة ، يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه :

فيجب على المريد أن يعلم ويؤمن بأن فضل النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على جميع الأمة كفضل الغيث على الأرض المجدبة ، فلولا النبى ماعرف الناس الهداية ولا التوحيد لله عز وجل فهو الذى أرسله ربه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى شرع لنا عبادة الصلاة ـ مثلاً ـ وأمرنا بها ، ولكنه لم يبيّن لنا فى القرآن الكريم كيفيتها ، ولا عدد ركعاتها ، ولا ركوعها وسجودها ، ولا تحديد أوقاتها ، وإنما علّم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم

---

(٥) الديوان ٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .
(٦) الأنفال : ٢٤ .

ـ هذه التفصيلات وأمره بتبليغها للناس ، قال الله تعالى ـ ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٧) .

فما يوضّحه النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ويبينه من مجمل ما جاء فى القرآن الكريم إنما هو بارشاد من الله تعالى باتباعه ، ولا ينافى التوحيد ، ولا كون الشارع هو الله تعالى وحده ، وهذا كلام ينبغى للمريد أن يعرفه ، وألا يخطىء فى فهمه ، حتى لاتزل به قدمه ، وشيوخ الطريق يربون أبناءهم على هذا الفهم الصحيح وتلك العقيدة السليمة ، يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ فى أرجوزته :

لولاه ما صمنا ولا صلينا * ولا عرفنا الله واهتدينا
بيعته البيعة للرحمن * طاعته الطاعة للديان (٨)

وهذه الطاعة مستمرة فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وبعد مماته ، فهو ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حى فى قبره يصلى ، وكذلك الأنبياء جميعهم أحياء فى قبورهم يصلون ، فيجب على المريد أن يعتقد بقلبه أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حى فى قبره يسمع من يصلى عليه ويسلم ، ويرد عليه السلام ، وأنه ينظر إلى زائريه ، ويسعد برؤيته كل محب على قدر اجتهاده وعلى حسب قوة محبته وصدق اعتقاده ، يقول شيخنا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

وقد دلَّ القرآن على حياة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وحياة جميع النبيين والمرسلين ـ عليهم السلام ـ بعد وفاتهم أيضاً ، وذلك أن الله ـ تعالى ـ قال ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٩) .

فهذه الآية تدل على حياة جميع الأنبياء بمفهوم الموافقة ؛ وذلك أن الأنبياء أولى بتلك المنقبة من الشهداء ، وتدل على حياة نبينا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعموم لفظها ؛ وذلك أن الله ـ تعالى ـ جمع له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين النبوة والرسالة

---

(٧) النحل : ٤٤ .
(٨) المعانى الرقيقة : ٦٨ .
(٩) آل عمران : ١٦٩ .

والشهادة ـ كما صح ذلك ـ قال السيوطى ـ رحمه الله ـ وما من نبى إلا وقد جمع بين النبوة والشهادة .

ومما يدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيٌّ بجسمه وروحه ـ قول الله ـ تعالى :ـ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (١٠) .

وضمير « وأنت » إنما يدل على الروح والجسد والحياة ، فيلزم من وجوده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما هو رَفْعُ العذاب ، وقد رفع وهو فيهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ (١١) أى : معهم بجسمك وروحك ، وقول الله ـ تعالى ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ (١٢) والبيعة لاتنفع إلا بالإقرار بالشهادتين حينما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى بقيت البيعة كما هى ، فلو لم يكن حياً بعد الموت ، ورسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ باقية كما هى ـ لغيّرت البيعة » .

« وقول الله ـ تعالى ـ ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾ (١٣) وهذا الأمر باق إلى يوم القيامة ، فالطاعة هى الطاعة ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الرسول وطاعته الواجبة حينما كان بين أصحابه هى طاعته الآن ، ومن أنكر الأولى كفر ومن أنكر الثانية كفر ، وإنما كانت الأولى لرسول حيٌّ بجسمه وروحه واليوم كذلك الرسالة والطاعة أفضل من الحياة ، ويلزم بينهما الحياة ، فتأمَّلْ فى قولى هذا لعلك تَرْشَدُ » (١٤) .

وللمحبة علامات ـ ودلائل وسلوك يترجم عنها ، ويدل على صدق المريد فى محبته للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومنها :ـ

---

(١٠) الأنفال : ٣٣ .
(١١) النساء : ١٠٢ .
(١٢) الفتح : ١٠ .
(١٣) المائدة : ٩٢ .
(١٤) المنتقى النفيس : ١٧٠ ـ ١٨٠ باختصار .

الصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :ـ

وهى أساس فى كل أوراد الطرق الصوفية ، وفى طريقة الإمام الجعفرى لها دور كبير فى تربية المريد ، وترقية نفسه ، وإضاءة قلبه بأنوارها ، يقول مولانا الإمام [١٥]:

أدم الصلاة عليه تلق كرامة * وترى ضياء القلب لن يتغيرا
نظراته تحيى الفؤاد فكن له * متحببباً مادمت حياً كى ترى
أسراره أنواره ياصاحبى * لاتنس خير الخلق أحبب واشكرا

ويقول : [١٦]

وفى الصلاة على المختار مكرمة * تهدى الفؤاد على الرحمن يعتمد
هى المراد فلا تترك قراءتها *بها النجاة لمن للكرب قد وجدوا

وفيها أيضاً أنوار حسية ومعنوية ، وتفريج للشدائد والكروب الدنيوية والأخروية وفيها فتوح على المريد بأسرار العلوم والحقائق ، يقول مولانا الإمام الجعفرى [١٧]

وان ضاقت بك الأحوال يوماً * فبالأسحار صلّ على محمد
يصلى الله رب العرش عشراً * على عبد يصلى على محمد
وفى مائة يصلى الله ألفاً * فعجّل بالصلاة على محمد
ولا تترك رسول الله يوماً * فما أحلى الصلاة على محمد
شفاء للقلوب لها ضياء * ونور مستمد من محمد
بها يسرٌ وتفريج لكربٍ *لمن أهدى الصلاة على محمد
بها الأسرار والأنوار تترى * تنور بالصلاة على محمد
فيامن عنده سر تبدى * من المختار سيدنا محمد
تعلم حفظ سرك يا أخانا * ولا تنس الصلاة على محمد
إذا ماشئت أن تحظى قريبا * بفتح الله صلّ على محمد

---

(١٥) الديوان : ٣/ ٣٩١ .
(١٦) الديوان : ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٤ .
(١٧) الديوان : ٢/ ١٧٩ .

وتـفـسـير وعـلم ذى معـانـى * لمن ذكـروا الصـلاة على محمـد
توجـه إن أردت قضـاء دين * إلـى كنـز الـصـلاة على محـمـد
تجـد فرجـاً قريبـا ياأخـانـا * بجـاه نبـينـا طـه محـمـد

وقد جعل الإمام الجعفرى ـ قدس الله سره ـ الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ ترياقا شافيا ودواء ناجعاً لظلمات النفس وقسوة القلب . . قال ـ رضى الله عنه ـ فى كتابه « المنتقى النفيس » :

« فائدة مجربة » : إذا أظلمت نفسك ، أوقسا قلبك ، وضاق صدرك ، وغاب رشدك ، وأظلمت أنوارك ، وكثرت أوزارك فوجه قلبك إلى رحمة الله للعالمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحب وشوق مصليا ومسلما عليه ، مادحاً باكيا ، فبإذن الله ـ تعالى ـ تنقلب ظلمة نفسك نوراً ، وقسوة قلبك لينا ، وضيق صدرك انشراحاً ، وكثره أوزارك توبة تعقبها مغفرة ، وعند ذلك يهدأ بالك ، وينصلح حالك ، ويكثر سرورك وحبورك ، وتذهب همومك ، وتزداد علومك ، ويزداد نشاطك فى الطاعات ، ويمحى هجومك على المخالفات ، ويقوى إسلامك ، ويزداد إيمانك ، وتنقضى الحاجات ، وتنصلح النيات ، وتفتح أبواب سعادتك وتقفل أبواب شقاوتك ، فجرب تجد ، فإذا ظفرت فزد ، وقد جعل الله فى السماء بروجا ، ولكن جعل السموات كلها بروجا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث شرفت كل سماء بشمسه المنيرة البهيه إلى ما فوق السماء السابعة (١٨) . .

ومن علامات محبة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ كثرة زيارته والتشوق إلى روضته الشريفة ، فالحنين إليها غناء المحبين وغذاء أرواح الذاكرين ، فبالزيارة يحصل القرب والانس ، ويكسى المريد بالأنوار ، وتفوح عليه الأعطار ، ثم انها صلة ومودة وقربة لرسول الله خير الخلق ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه :ـ

« وعليك يا أخانا فى الله تعالى بزيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وزيارة أهل بيته رضى الله عنهم ، والصحابة ، والصالحين أولى الدرجات العلية ، فإن كل من

---

(١٨) المنتقى النفيس : ١٤٥ .

زارهم وسلم عليهم رأوه وردُّوا سلامه ، فياسعد من سلّم عليهم بقلب سليم ويابشراه » .

« وأما زيارته صلى الله عليه وسلم فى روضته الشريفة فقد أوجب ذلك بعض علماء الأمة الإسلامية ، وقيل : سنة ، وهذا القول كل من الأئمة الأربعة قال به وارتضاه ، وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم يرد السلام على من سلّم عليه عند الروضة الشريفة ، فيالها من مزية » .

ويشفع صلى الله عليه وسلم لكل من زاره شفاعة تدخل صاحبها الجنة ، وينال من الخلد أعلاه ، ويكون عند ذلك فرحاً مسروراً :

مهجتى قد نلت كل الأرب * هذه أنوار طه العربى
هذه أنواره قد ظهرت *وبدت من خلف تلك الحجب
أبشرى يانفسُ هذا المصطفى *خاتم الرسل خيار العرب
يارسول الله إنى مذنب *ومن الجود قبول المذنب

« وإن من زاره صلى الله عليه وسلم ـ يكسى حللاً من النور مطرزة بالأنوار الجلالية ، ويشرب شراب العارفين ، فتستنير روحه حتى يعرف من وقف بين يديه ومن أكرمه وسقاه » .

« وقد قال العلماء : ماوصَّلَ إلى السنة فهو سنة ، فالمشى أو شد الرحل إلى زيارته ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة فعلية ، أى يثاب فاعلها ثواب السنة ؛ لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ زار المقابر وأمر بزيارتها ، فهى سنة قولية وفعلية ، فياسعد من أحيا سنة رسول الله » .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم : « مابين منبرى وبيت عائشة روضة من رياض الجنة » . وقد قال شراح البخارى : هى روضة حقيقية . فهل لك يا أخانا فى الله تعالى أن تصلى فى الجنة ، فتكون ممَّن أحبه ربه وحباه » .

« وقد تشرف مسجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنسبته إليه ، فصارت الصلاة فيه بألفٍ ، سواء كانت فرضية أو نفلية » .

« ومن صلى فى مسجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعين صلاة كتب الله له براءة

من العذاب ومن النفاق ومن النار » أخرجه الإمام أحمد ورواه . ولولاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكان مسجده كبقية المساجد بلا فضل ولا مزية »[19]

ومن آداب المريد مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلزم الأدب والوقار فى زيارته ، وأن يعطيه حقه من التعظيم والإكبار فى السلام والتحية والوقوف والانصراف كما كان الصحابة ـ رضى الله عنهم يفعلون ، فهو يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعلم أنه حى فى روضته الشريفة يرى ويسمع ويشاهد زواره ، يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

« وإذا دخلت مسجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسَّ قلبك بزيادة الإيمان والطمأنينة ، لاسيما عند مواجهته وإلقاء التحية ، وكم من محب قد علاه النور وفاضت من شدة الفرح بالدموع عيناه ، فيالها من ساعة كلَّما ذكرتها الروح تكاد أن تطير من عالم الجسمانية ، وتتمنى أن تكون بالمدينة ، تجاه الروضة الشريفة فى مسجد رسول الله »[20] .

فالمريد عندما يستحضر عظمة الموقف ، وروعة المشهد ، ويدرك أنه يقف أعظم موقف له فى الحياة الدنيا ، أمام حبيب الله تعالى ومصطفاه ، فإنه يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظمى أن يسّر له الطريق لزيارة روضة من رياض الجنة ومن تأخرت به السبل ، ولم يحظ بشرف الزيارة فعليه أن يجاهد ويسعى لكى ينالها ويدعو الله تعالى أن يفتح له باب الطريق إليها ، فبمقدار الشوق والحنين إلى زيارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتبين صدق المريد فى محبته من عدمه ، يقول مولانا الإمام العارف سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه :ـ

« ومن أعظم السعى المشكور : حبُّك له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والهجرة إليه كالصحابة رضى الله تعالى عنهم ـ المهاجرين ، وسعيك إليه بعد موته ـ صلى الله عليه وآله وسلم فى روضته الشريفة ، حيث أحياه الله تعالى بها حتى يرد السلام على من سلّم عليه » .

ومن أعظم المواقف التى يقفها الإنسان فى الحياة الدنيا ، ومن أشرف الأيام ،

---

(١٩) السيرة النبوية المحمدية ـ ٧٦ ـ ٨٠ باختصار .

(٢٠) السيرة النبوية المحمدية ٨٠ .

وأشرف الساعات : الساعة التى يقف فيها أمام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ويسلِّم عليه ، ورد النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عليه السلام ورأه وعرفه وكان معه فى تلك الساعة ، وحصلت له تلك المحبة المحمدية ، وحصل له شرف نظره ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ له ، وشرف معرفته به ، وبركة دعائه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ برد السلام عليه ، فيالها من ساعة ويالها من نعمة أنعم بها الرحمن الرحيم ، الرب الكريم على عبده المؤمن المسلم ، فكن شاكراً لله على هذه النعمة العظيمة التى لاتقدر ، ولو أنفقت عليها ملء الأرض ذهباً لكنت أنت الرابح ، أكرم بها من ساعة ، أكرم به من يوم .

من سمع هذا الكلام ، وتأخر عن زيارته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو يستطيع ، فيلراجع نفسه ، ولينظر إلى إيمانه فى قلبه ، ثم يستغيث بالله ـ تعالى منادياً : أى ربى ، أغثنى بغوثك السريع ، وخذنى لتوفيقك إلى زيارة هذا النبى الشفيع ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومُنَّ علىّ برحمتك الواسعة ، وفضلك الكبير ، كما مننت على إخوانى الزائرين له ـ صلى الله عليه وآله وسلم .

أيها المريد : يجب عليك دائماً أبداً سرمداً أن تنظر إلى حب النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى قلبك ، وأن تزنه بميزان القرآن والسنة وهل هو أحب إليك من نفسك ، ومن أولادك ووالديك ، وهل قلبك مشتاق إليه صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهل عيناك تبكى عليه شوقاً ، وهل لسانك يمدحه لأن مدحه من العبادة ، وهل أنت تصلى وتسلم عليه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كثيراً ، وهل قلبك يحب متابعته ـ صلى الله عليه وآله وسلم .

فإذا كنت كذلك فأبشر بالسعادتين فى الدنيا والآخرة .

وإذا لم تكن كذلك فعليك يا أخانا بالجد والجهاد ومجاهدة نفسك ، وقراءة كتب الصوفية ، وقراءة كتب المحبين ، كالغزالى والنبهانى ، لعل الله أن يمن عليك كما مَنَّ عليهم إنه جواد كريم [٢١] .

فيجب على المريد أن يغرف طريق الوصول إلى الحبيب المصطفى ـ صلى الله

---

(٢١) الذخيرة المعجلة ٢٢ .

عليه وآله وسلم . ومن أقصر الطرق الموصلة إليه : كثرة الزيارة ، ومن لم يستطع فعليه بالإكثار من التشـوق والحنين إليها ومدحه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومعرفة أوصافه واستحضار صورته النورانية ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يوجه مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ هذه النصحية لمريد طريقته ، فيقول :ـ

أيها المحبُّ لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ألا أدلك على أقرب الطرق الموصلة إليه من غير تعب ولا مشقة ، ألا وهى مدائحه سماعاً وإنشاداً ، بقلب سليم ، وحب عظيم ، مع تصورك له بقلبك ، وذلك يكون :ـ

ـ بتصورك روضته الشريفة ـ إن كانت سبقت لك زيارته .

ـ باستحضار صورته المنامية إن كنت رأيته فى النوم .

ـ باستحضار صورته بواسطة الشمائل المنقولة فى كتب السنة المحمدية ، وما ذكر فى المولد من أوصافه المصطفوية ، وأيضاً تلاحظ ذلك عند الصلاة والسلام عليه دائمـاً .

فإذا واظبت على هذا سيكون لك الفتح القريب إن شاء الله تعالى .

« فعليك يا أخانا بسماع مدحه وتلاوته ، حتى يكون لك روحاً من جميع الوجوه إن شاء الله تعالى » .

« وإنى أنصـح لك ياأخانا فى الله تعالى ألا تجلس مجالس المنكرين لطرق الصوفية والصادين عن مدح خير البرية ، وعن زيارته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ التى هى أعظم أمنية »[٢٢] .

---

(٢٢) يراجع مقدمة القصيدة المقبولة لسيدى صالح الجعفرى رضى الله عنه .

ثالثا : آدب المريد مع شـــيخه :ـ

إن الحكمة فى اتخاذ شيخ للطريق هى القدوة والاتباع ، فإن السالك فى بداية الطريق يكون مقيدا بقيود النفس ومحاطاً بأسوار الهوى ، فيصعب عليه أن يتخلص بنفسه من ذلك لأن أسلحته ضعيفة والعدو أقوى وأشد فتكاً ، ومن ثم يأتى الشيخ ليأخذ بيد المريد إلى طريق النجاة ، وينتشله من أوحال دنياه الدنيئة ، ويخلصه من أسوار النفس والشيطان والهوى ، وكما أن لكل مسلم فقيها يقتدى به ويسير على اجتهاده ، فكذلك لكل صوفى شيخ يرشده إلى الطريق الإيمانى ، ويبصره بعيوب نفسه يقول الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

إنـمـا الـشـيخ إمـام * بعـيوب الـنـفس ينـبـى
من أتـى من غير شـيخ * ضل فى ميدان حـرب [1]

والشيخ يدعو إلى الله ـ تعالى ـ ويعين المريد الصادق على الطاعة ويوجهه إلى معرفة أسرار العبادة ، وهذا الاقتداء مستمدٌ من روح القرآن الكريم ، فالله ـ سبحانه وتعالى يقول : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بعض يأْمُرُونَ بالمعْرُوفِ وينْهَوْنَ عن المنكَرِ وَيُقيمُون الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ورسُولَهُ أُوْلئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [2] .

ويقول سبحانه وتعالى :ـ ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [3] .

قال الشيخ أحمد بن زروق : « والإنابة لاتكون إلا بعلم واضح وعمل صحيح ، وحال ثابت لاينقضه كتابٌ ولا سنة » .

وفى الحديث الشريف : « مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإمّا أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة » . رواه البخارى ومسـلم .

---

(١) الديوان ١/٥٣ .
(٢) التوبة ٧١ .
(٣) لقمان ١٥ .

والشيخ إنما يعطى مريده ثمرة تجاربه الطويلة الشاقة ، حسبة لوجه الله تعالى ، لايسأله عليها أجرا ، وذلك الشيخ المربى المعلم يشترط فيه أن يكون عالماً عاملاً ورعاً تقياً ، كما يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

يصحب شيخ العلم والكتاب * ليهتدى به إلى الصواب
فليس بعد العلم من هداية * وعمل به هو الولايه [٤]

فالغاية من سلوك المريد فى طريق شيخه ، والاقتداء به فى أقواله وأفعاله الوصول إلى مرضاة الله تعالى ، وهذا لايتأتى للمريد إلا بصحبة شيخ يتسلح بالعلم ويصدقه العمل وبذلك يستطيع الشيخ أن يحمى المريد من كل مايمنعه من الوصول إلى الله ـ تعالى ـ من أنواع الجهل والغرور ، ودواعى الهوى الموقعة فى ظلمة القلب ، وانطفاء نور البصيرة يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ فى إحدى قصائده :ـ

الشيخ يحمى مريداً جاء معتنقا * طريقه ولأوراد الطريق تلا
روحان فى جسد من فرط قربهما * كالشمس والضوء خذ من قربهم مثلا
انظر لعالم أرواح تجد عجبا * والشيخ فيها لمن يأتى لقد كفلا
عوالم أدهشت من كان يعرفها * يكسون فيها حريراً مبدعا حللا
فإن وصلت رأيت الشيخ تعرفه * له زئير بذكر الله قد شغلا
يدرى بروحك مهما غاب مطلعها * والقلب كالكف يدرى مابه نزلا [٥]

يقول مولانا الإمام الجعفرى فى بيان مايجب أن يكون عليه الشيخ المربى :ـ

فالعارف بالله ـ تعالى ـ هو الذى عرف الله ـ تعالى ـ وقام بحقه ، وعرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقام بحقه ، وعرف أولياء الله ـ تعالى ـ وقام بحقهم ، وعرف المؤمنين وتخلّص من تبعاتهم ، والعارف : من عرف نفسه ، كما قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ « من عرف نفسه فقد عرف ربه » فالنفس بها كمالات ونقائص ، فمن عرف الكمالات فأبرزها ، والنقائص فعالجها فذلك العارف .

---

(٤) الإلهام النافع/ ٦٥ .
(٥) الديوان ٤/ ٧٠٢ .

« عارف » : العين علم ، والألف انفصال عن السّوى ، اتصال بمن على العرش استوى ، والراء رغبة فى الآخرة ، والفاء فرار إلى الله تعالى [٦] .

فمثل هذا العارف لايصمد الشيطان أمام أنواره ، ولا تستعصى نفس المريد على تهذيبه وإرشاده ، ومن أسعدته الأيام بمثل هذا الشيخ فليحمد الله ـ تعالى ـ على أن وصَّله إليه ، وليلزم طريقه وليجاهد بمجاهدته ، حتى يصل إلى ما وصل إليه من رقى يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

من جاء يبغى طريق الله يعبره * من غير هادٍ له ماكان منتصراً
كيف المسير ولم تعرف مسالكها * قد ضل سعيك ياهذا فكن حذرا
فاتبع طريقة أهل الله خالصة * خلف الإمام ترى أتباعه زمرا
لكل قوم إمام يقتدون به * فاجعل إمامك شيخا للعلوم قرا
طريقة القوم قرآن وسنة من * أهدى السبيل وأحكاما هناك ترى
لم يخرجوا عن كتاب الله فى عمل * ولا مقال وكل قلبه عمرا
إن جئت عندهم تلق الضياء بهم * والنور لاح لمن بالليل قد سهرا
والقلب يفرح من رؤيا وجوههم * وكل من جاءهم لاشك قد أجرا [٧]

« واعلم هداك الله وهدانا : أن مثل المشايخ كالسحب الطيبة : تحمل رحمة الله المساقة لسقى القلوب المحمدية ، لتحيا بها الحياة الطيبة ، وإن رياح حبك وإخلاصك إليهم تسوق سحب غيثهم إليك ، فرضاؤهم غيث ، ودعاؤهم غيث ، ونظراتهم غيث وأورادهم غيث ، وطعامهم غيث ، وشرابهم غيث ، وإطعامهم غيث ، وخدمتهم غيث ، وتوجههم غيث ، وكلامهم غيث ، وثناؤهم عليك غيث ، وذمهم لك غيث وتأديبهم لك غيث ، وكل شىء حاصل منهم غيث ، فهىء نفسك لغيوث شيخك عسى أن تحيى أرض قلبك فتخرج من موت روحك إلى حياتها ، ومن غفلتها إلى التفاتها ، ومن سجنها إلى إخراجها ، ومن قيدها إلى حلّها ، ومن حرامها إلى حلالها ومن حلّها إلى حرمها ، ومن حرمها إلى معرفة

---

(٦) الإلهام النافع ٥١ ـ ٥٢ .
(٧) الديوان ١٠/ ٦٦ ـ ٦٧ .

حرمتها ، ومن حرمتها إلى عرفات معرفتها ، ومن معرفتها إلى فرط حبها ، ومن فرط حبها إلى حيرتها »[٨] .

وليصل المريد إلى غايته ، عليه أن يلتزم الآداب التى قررها الصوفية لمن يصحب شيخ الطريق ، وقد أشار مولانا الإمام الجعفرى إلى هذه الآداب ، ووجه إليها مريد طريقته ، ومن هذه الآداب :-

ـ الصدق فى سلوك الطريق ومحبة الشيخ :

وأول مايجب على المريد علمه أن طاعة الشيخ إنما هى طاعة أوامر الله ـ تعالى ـ واجتناب نواهيه ، يقول سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه :-

« اعلم ياأخانا هداك الله وهدانا : أن مشايخ الطريق يقولون فى كلامهم : « تجمعنا الطاعة ، وتفرقنا المعصية » وأى وبال أشد على المريد من التفرقة بينه وبين شيخه فالشيخ باب الحضرة النبوية ، والحضرة النبوية باب الحضرة القدسية ، فمن عرف البابين دخل فى الحضرتين »[٩] .

ـ ومنها مذاكرة كتب شيخه والإكثار من النظر فيها إذ وضع الشيخ قواعد سلوك الطريق لأبنائه ، وهى تحمل منهجه وأفكاره ، وتوضح عقيدته ومذهبه والشيخ يعنى أبناءه ومريديه بكل حرف مسطور فيها ، يقول مولانا الإمام الجعفرى :- « فعلى كل مريد سالك لهذا الطريق المسارعة إلى مذاكرة كتب شيخه ، حتى يحصل انسجام بين الروحين فيجذبان ، وبينهما برزخ لا يبغيان ، ويحصل علم الأذواق وهو ليس فى الأوراق ، فعليك بالبحث عن الحقيقة فى السطور ، لعلها أن تشع على الصدور فيتنزل من سطورك مايزيل لغرورك ، ويأتى بسرورك ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[١٠] فشتان بين جمع وجمع ، وسمع وسمع « واجمع بينى وبينه » « فى مقام السماع العام » إياك أن تغفل عن الإشارة ، أو تلتبس عليك العبارة ، أو تتحكم فيك الأمّارة ، تجارتنا هذه نعمت التجارة ،

---

(٨) الإلهام النافع/ ٨٠ .
(٩) المرجع السابق/ ٥٧ .
(١٠) يونس/ ٥٨ .

ربح ومربح مافيها خسارة »[11] ومن دلائل محبة المريد لشيخه أن يقرأ كلامه أو يسمعه بروح المحبة والإخلاص ، ويضع شيخه فى منزلة العلماء العارفين المحققين ، وبقدر هذه العقيدة يحصل القرب ، ويأتى المدد والفتح كما جاء فى توجيه الإمام الجعفرى لمريد طريقته وطالب قربه ومحبته : « واعلم ياأخانا أن كلامنا كله فيوضات ربانية ، فمتى قرأته بحبنا حصلت لك النية ، فمن عرفنا فقد عرف ، ومن بحرنا غرف ، لاسيما من والانا وأعز شأننا ، فذلك ملحوظ بعين عناية ربنا مقتبس من أسرار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[12] وأهل الله : سبل الله فى أرض الله ، يوصلون لنور الله (خاتم الأنبياء) ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَآءُ ﴾[13] . . »[14] .

فحال الشيخ مع المريد كالأرض والسانية (الساقية عند أهل السودان) ودورانها والماء فقلب المريد هو الأرض الطيبة ، والأوراد هى السانية ، ودورانها قراءة الأوراد ، والماء الخارج هو الثواب ، والنبات هو المعارف والخوارق والتجليات ، ولذلك يقول سيدى عبد السلام الأسمر ـرضى الله عنه :ـ

لاتخالف شيخا ربَّاك * انصحْ واخدمْ بُنَيَّا
أنت شجرة وهو مَسْقاك * تنال الرتبة العليا

ويقول ـ رضى الله عنه :ـ

اقرأ الوظيفة وساعد رفقاك * وردّ بالك إليَّا
أنا الشيخ الأسمر دومًا نرعاك * إعرف مقامى وَزَيَّا

وفى قوله (إعرف مقامى وزيًا) إشارة إلى ما يتوقف الفتوح عليه ، فمعرفة مقام الشيخ وجدان قلبى روحانى ، تظهر للمريد إشارة فى عالم الملك والملكوت ، على حسب قوة معرفة المريد بشيخه ، وأول خارق للعادة يناله المريد يشاهده فى

---

(١١) شهد مشاهدة الأرواح التقية/ ٨ .
(١٢) العنكبوت/ ٦٩ .
(١٣) النور/ ٣٥ .
(١٤) انظر المنتقى النفيس/ ١٣٦ .

شيخه ، ومنه ينتقل إلى المريد على حسب صدقه على سبيل الوراثة ، وقد قال سيدى أحمد بن إدريس للسيد ابن السنوسى ـ رضى الله عنهما :ـ « أنا أنت وأنت أنا » وقالها سيدى ابن السنوسى لتلميذه سيدى عبد العالى بن السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنهم ـ بعد أن رباه وعلمه ولقنه الأورد : (أنا أنت ، وأنت أنا وكان يحضر أحيانا فى مجلسه (بجغبوب ببرقة) وهو يدرس الإحياء للغزالى لأن سيدى عبد العالى درس الإحياء فى حياة شيخه بمسجد جغبوب ، وفى ذلك سر عظيم لأن الشيخ يمُد تلميذه حينما يحضر درسه مدداً روحانياً ، ويكون ذلك كالختم له بأنه صار أهلاً لهذا المقام [١٥] .

ـ ملازمة أوراد الشيخ واتباع ما أمره به :ـ

ويكون ذلك بملازمة أوراد الشيخ وعدم الالتفات إلى غيرها ، فإنما أوراد الشيخ هى التى تصلح نفس المريد لاغيرها ، ففيها المدد والسر ، لأنها أُخذت بالأذن من الحضرة النبوية المستمدة من الحضرة العلية الربانية ، يقول شيخ الطريق الجعفرى :ـ « إعلم أن لكل شيخ طريق عقاقير فى أوراده تصلح لأولاده السالكين طريقه ففيها فيتامينات التقوية والتغذية ، وفيها بلسم الشفاء ، وفيها مايهدى النفس ، ويقوى الروح ، فمن أراد الوصول فلا وصول له إلا بأوراد شيخه ، فهى سبيله وباب وصوله ، وهى روحه وريحانه » [١٦] .

ـ السير على طريق الشيخ وعدم مخالفة منهجه :ـ

وهذا أساس الاتباع عند القوم ، ولا معنى للانتساب إلى شيخ مع مخالفة نهجه ، فإن المريد يعاهد شيخه أمام الله ـ تعالى ـ على مبادىء وسلوك ، فإن انحرف أو غير أو قصر أو ترك ، فإنه يكون قد نبذ عهده مع شيخه وراء ظهره ، فيحرم من المدد وينقطع عنه الاتصال ، وبقدر ابتعاده عن الشيخ ينفر الشيخ منه ، يقول سيدى العارف بالله الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

« ولا يكون ابن الطريق ابنا لشيخه حتى يكون على قدمه ، فإن خالف نهجه

---

(١٥) المنتقى النفيس/ ١٠٩ ـ ١١٠ .

(١٦) الإلهام النافع/ ٧٠ .

كان وجوده كعدمه (قالوا : يارسول الله أمِن قلةٍ نحن يَوْمئذ ؟ قال : لا : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل) [١٧] وقال الله ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ لا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ والطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [١٨] فما الإرث إلا بالاتباع ، ومن لم يتّبع حُرِم الإرث وضاع ، فكم للشيخ من دور تكِظُّ وتَئِطُّ من جواهر الأسرار والمعانى ، من أسرار السنة وجواهر القرآن ، فمن لم يعرف ما أبعده عنا ، ومن لم يعرف القرآن اختطفه الشيطان ، فمن كان بعيداً عن الشيخ فهو البعيد ، ومن اختطفه الشيطان فهو الطريد . . . » [١٩] .

« وإياك ونسيان الشيخ والغفلة عنه ، فإن ذلك من أكبر القواطع لك ، فما الطريق إلا كدورة الفلك ، فإن استطعت ألّا تغفل عن ذكر ربك طرفة عين ولا أقل من ذلك فكن ، ومعنى « لا تغفل عن الشيخ » أى عن متابعته التى طالما قرأتها عيناك أوسمعتها أذناك ، وهناك أسرارٌ منه تسرى ، وعلوم فى بحور تجرى ، فمن قطع شهوات نفسه وجاء طريقنا إلا وقابله نور لامع ، فكم من ولى فتحنا له أبوابا عزّت على غيره ، وكم من مجدّ كشف عن عالم الملكوت بأحزابه ، فكم من أهل القدم الراسخ الذى لاتزلزله شبهة بوجه من الوجوه ، وتمسك بالكتاب والسنة ، فإنهما طريق شيخنا أبى العباس العرائشى سيدنا ومولانا السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه » [٢٠] .

« نفرُّ منك كما يفرُّ الطير إذا خالفت حالنا ، وقد كنا معك كرواسى الجبال ، وكالملائكة إذا رأوا الكلب أو سمعوه ، أو الصورة ، أو سمعوا صوت الجرس [٢١] ، كذلك الأرواح العالية هذا حالها معك ، فلا تنس قولى هذا » [٢٢] .

---

(١٧) رواه أبو داود .

(١٨) المائدة/ ١٠٠ .

(١٩) الذخيرة المعجلة/ ١٠ .

(٢٠) المنتقى النفيس/ ١٩١ ـ ١٩٢ .

(٢١) أى يفر الشيخ من المريد المخالف لطريقه مثل ما ذكر فالعطف إنما على قوله (كما تفر الطير) .

(٢٢) شهد مشاهدة الأرواح التقية . ص٩

ـ أن يكون راسخ العقيـــدة فى شيخه :ـ

لأنـه على قدر الاعتقـاد يكـون الاتباع والانقياد ، ويحدث الاستعداد لتلقى الأمداد فمن أجل ذلك يوصى الإمام الجعفرى ابن الطريق أن يكون واثقا موقنا بأن طريق شيخه يسير على نهج الكتاب والسنة ، يقول ـ رضى الله عنـه :ـ

« اعلم ثم اعلم ثم اعلم : أن طريقنا هذا جعلك فى كفالة إمام المرسلين ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتولى تربيتك كما يربى الوالد ولده ، فهل أيقن قلبك بهذا الحديث ؟ وكيف حالك وأيش حالك أمام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فهل تريد أن تلتفت إلى غير طريقنا لتتخذ لك شيخا آخر غير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ؟ فتلعب بك الأهواء ، وتميد بك الغبراء ؟ فما عرفنا من تفلّت منا ، ولا أخذ الحقائق عنا ، ولا شرب من رحيقنا من ترك سوقنا ، ولا ورد وردنا من ترك أورادنـا ، ولا دنـدن ولا دنا ، ولاحل بقلبه ودُّنا ، شاهد بقلبك أن المربى ناظر إليك ، ليصب ميازيب الـرحمـة عليك » « فما أهل الطريق إلا رجال صدقوا ما عاهدوا عليه ، اتصلت أرواحهم بمربيها فكان الأمر منه وإليه » (٢٣) .

« من له شيخ فليشرد إليه عند الوسواس ، وليجلس بين يديه فإنه ترياق الأغيار ، ولا تنظر إليه نظرك إليه ، ولكن انظر إليه ظاهرا ، ولشيخه باطنا ، واستمع إليه ظاهراً وإلى شيخـه باطنـا ، تر العجب العجـاب ، ويفتـح لك البـاب ، ويسهـل لك الوصول ، ويؤذن لك فى الدخول ، وحسن ظنك به مطيتك السريعة ، حتى تأخذ مالـك عنـده من وديعة ، فهو الترجمان بينك وبين أهل البرازخ ، أهل التحقيق والقدم الراسخ » .

« والشيخ المنـظور إليه بالنـظرين : رؤيته تقرُّ بها العين ، يذكرك الله مرآه ، ويدنى روحك دعاؤه ورضاه » (٢٤) .

« يا أخـانا فى الله ـ تعالى ـ تجمعنا الطاعة ، وتفرّق بيننا المعصية ، فعليك بطاعة الله ـ تعالى ـ والحذر كل الحذر من معصية الله ـ تعالى » .

---

(٢٣) شهد مشاهدة الأرواح التقية/ ٦ .

(٢٤) الإلهام النافع/ ٥٠ .

« وعليك بطلب العلم فإنه نعم المطية الموصلة إلى المقصود ، وعليك بالإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ فإنه نعم الورد المورود ، وعليك بتلاوة القرآن فإنه كلام ربك وشفاء قلبك » « واعلم أن طريقنا هذا مبنى على الكتاب والسنة ، وفقه المذاهب الأربعة ، وعقيدة الأشعرى فى التوحيد ، وأبى القاسم الجنيد فى التصوف ـ رضى الله عنهم أجمعين » (٢٥) .

« لاتطلبن طلبا بغير وسيلة ، لأن الوسائل هى الأسباب التى توصلك إلى المقدور وتاركها يكون من المعتدين فى الدعاء ، فإن الذى يسأل الله ـ تعالى ـ الذرية ولم يتزوج يكون معتديا لتركه الوسيلة ، وهى السبب الذى يوصله إلى المقدور ، والمدار كله على العلم ، إذ به الدنيا والدين ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ (ومن أرادهما معا فعليه بالعلم) يعنى الدنيا والآخرة ، والشيخ العارف من سبل الرحمن الموصلة إليه ومن هُدى إليه فقد هُدى إلى سبل الله ـ تعالى ـ لكن يبحث عنه بجد واجتهاد » (٢٧) ﴿ والَّذِين جَاهَدُوا فِينا لنهدينَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢٨) .

ـ ألا يقدم عليه شيخا آخر :ـ

وهذا يدل على عظيم محبته وقوة الاعتقاد فى ولايته وصدق منهجه ، وغيرة الشيخ على أبنائه فى الطريق أشد من غيرة والد الجسد على أولاده ، يعلل ذلك والد الروح الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ بقوله :ـ

« الشيخ والد الروح ، وهو أفضل من والد الجسد ، وأحرص عليك منه ، فلا يمل قلبك لغيرنا عنا ، وعندنا ما لو كشف لك الحجاب عن بعض مكنوناته لذهبت نفسك » .

« وإن لوامع بروق أحزابنا تنيرك إذا لمعت ، وتصدع عدوك إذا صدعت ، وتغنى فاقتك إذا تليت ، وتملأ قلبك علماً إذا قطرة به نزلت » .

---

(٢٥) مفاتح كنوز السموات والأرض المخزونة/ ١٣ .

(٢٧) الإلهام النافع : ٥١ ـ ٥٢ .

(٢٨) العنكبوت/ ٦٩ .

« وما صدود نفسك عنها إلا لنفاستها ، وما تقاعست عنها إلا لتقاعسك عن الكتاب والسنة اللذين هما أصل لها ، ومنبع فيض فيضانها ، وشمس قمر لمعانها » « فما أردته من أوراد غيرنا ففيها أودع وزيادة ، وذلك من فضل الله علينا ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢٩) .

فكم أشغلت نفسك عنا بأمور تريد فتح أبوابها فما فتحت لك الأبواب ، وأحزابنا مفتوحة لك أبوابها ، وتعرفك حُجَّابها ، وقد أذناك بها كما أُذن لنا من ينبوع الحقائق الوجودية ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ » .

« فادن أيها المريد من حضرة الشيخ تنل ما تريد ، وفوق ماتريد ، لأن كل شيخ مأذون من الحضرة العلية النبوية ، ففى أوراده إمدادت لأتباعه وأولاده ، وبالعكوف على الأوراد والملازمة والمداومة يظهر لك ما أشرنا به إليك ، لكن بشرط الاستقامة التى هى خيرٌ من ألف كرامة ، لمن استقام فى طريقنا وتبتل ، عليه البركات تتنزل » (٣٠) .

فعلى المريد أن يعرف أنه مع والد الروح الذى يربيه ويرقيه ، وأن ينظر إلى شيخه نظرة محبة خاصة ، كما ينظر شيخه إليه نظرة تربية خالصة ، وأن يعتقد المريد بقلبه أن تربية الشيخ له شجرة مثمرة معمرة ، تمتد بعد انتقال الشيخ ، لأن عالم الأرواح غير عالم الأشباح ، ومن ظن أن اتصاله بالشيخ انقطع بوفاته ، فذلك دليل حجبه وفواته ، يقول مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ :ـ

« من حكّم العادات حُرم من البركات ، ومن نظر إلى غيره حُرم من خيره وميره (أى إمداده من الميرة وهى الطعام) ومن قال إنه قد مات عوقب بالفوات ، فانظر بعينى قلبك إلى من نظر إليك بهما ، ولاتكن من الغافلين ، فكم من غارف غرف ، فهل بلغك ذلك حتى تشمر عن ساعد جدّك لتغرف » (٣١) .

ومن أدب المريد مع شيخه أن يطارد وساوس الشيطان الذى لايحب للإنسان الاستقامة على طريقة الشيخ ـ وهى طريق الله ـ فيزين له أن يتجه إلى شيخ آخر

---

(٢٩) يونس/ ٢٦ .

(٣٠) الإلهام النافع ٤٧ ـ ٤٨ .

(٣١) الإلهام النافع/ ٤١ .

مع أن اللعين لايحب للإنسان أن يسلك أى طريق للخير ، وإنما هى وساوس وهواجس ليبعد المريد عن ذكر الله ، يقول مولانا الإمام الجعفرى :-

« وإذا مال قلبك إلى شيخ آخر ، أو إلى طريق آخر ، فعليك بتذكر قول شيخك - رضى الله عنه - إنك فى كفالة النبى - صلى الله عليه وسلم - وتربيته ، فلا تطلب بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شيخا لتربيتك ، واعلم أن ذلك من الشيطان وبه يحجب المريد عن أسرار الطريق وعن إمداداته ، وعن وارداته ، نعوذ بالله من ذلك » « ولا تمد يديك إلى يد أحد لتأخذ عنها طريقا بعد إذ مددتها إلى شيخك ، فإن ذلك - والعياذ بالله فيه الضرر ، نعوذ بالله من الخلط » .

« كما أن للإنسان أبا واحداً ، كذلك فى الطريق له شيخ واحد » (٣٢) .

ـ أن يجتهد فى اتباع شيخه حتى يتحقق بمقام الوراثة :

وهذا يجعل المدد يسرى من روح الشيخ إلى روحه ، فتظهر على المريد أحوال شيخه ويُرى له نور مثل نور شيخه ، وهو مقام الوراثة الذى أشار إليه إمامنا الجعفرى - رضى الله عنه - بقوله :-

« إذا سلكت طريق شيخ ، وكنت محباً له انتقل حاله الذى كان فى الدنيا عليه إليك بمعنى أن روحك تعمل مثل عمله ، فإن كان عالماً مالت إلى العلم ، وإن كان فى خلوة مالت إلى الخلوة ، وإن كان فى عزلة مالت إلى العزلة ، وإن كان فى جذب مالت إلى الجذب ، وإن كان فى تلاوة قرآن وتدريس وعلم مالت الروح إلى ذلك ، حتى تكون فى الدنيا حياته كحياة شيخه ، وهذا يسمى مقام الوراثة ، يتأتى بالمحبة وتلاوة الأوراد ، واقتفاء أثر الشيخ ، وكل شىء كان الشيخ فى حياته لايفعله فإنه اليوم فى برزخه لايحبه ، ولا يحب فاعله ، نعوذ بالله من ذلك .

وإذا كان هذا أدبا عاما فى حق أبناء الطريق جميعا ، فإن لخدمة الشيخ أدبا أرقى وحقًا أعظم ، إذ التلميذ المقرب من الشيخ ربما اطّلع على عبادة الشيخ فاستقلها فى نظره ، أو يرى شيئا لايعجبه فيظن سوءاً فيهلك ، أما إذا أخلص للشيخ كان

---

(٣٢) الذخيرة المعجلة/ ٢٤ .

له حقّان : حق الأوراد وحق الخدمة للشيخ » [٣٣] .

فالحذر كل الحذر من الخروج على طريق الشيخ أو المجادلة فى كلامه ففيها الحجب والقطع والبعد والطرد ، وها هو الشيخ الإمام الجعفرى يقفك على الطريقة المثلى لمعاملة شيخك فيقول لك :ـ

فعليك أن ترضى بكل مقاله * وتكون كالمقبور للُّحّاد
واحذر علوك إن رأيت مقامه * دون الذى تعطاه من إسعاد
يعطيك ربك ما يشاء وربما * فاق المريد لشيخه بأياد
لكن من الآداب حفظ مقامه * وطريقه إلا بفتحٍ بادى
واحفظ مقام الشيخ واتبع أمره * واحذر من الأعداء والحساد[٣٤]

وهذا ماعناه الإمام بقوله ، وهو يذكر الأمور التى يتوقف عليها الفتوح فى الطريق :ـ « . . . ألا يعلو على شيخه بحال من الأحوال مهما وهبت له المعلومات ومهما كشفت له مكاشفات ، ويرى نفسه فرعاً لشيخه ، ودائماً سرمداً تتوق إليه روحه ، كما قال سيدى عبد الكريم الجيلى ـ رضى الله عنه :ـ (أصلى الهوى والفرع يطلب أصله) » [٣٥] .

الأدب مع الشيخ ، كما عبر عنه الإمام الجعفرى فى قصائده :ـ

ذكرنا أكثر من مرة فيما سبق أن الشيخ ـ رضى الله عنه ـ كان يكثر من توجيه إرشاداته إلى أبناء الطريق من خلال قصائده حتى يسمعها الإخوان فى الحضرة فهى درس الطريقة الجامع ومدد الإمام الجعفرى اللامع ، وعلى كثرة ماجاء فى قصائده من آداب المريد مع شيخه ، فإن هنالك منظومة وقصيدة ، اهتم فيهما بالتربية وحدها ، بحيث تغنى المريد عن كثرة الكلام وطول الشرح ، أما المنظومة فقد ضمنها معظم الآداب التى أشرنا إليها فيما سبق ، وهى تتحدث عن حب المريد لشيخه وأثره فى نفسه ، وعقيدة المريد فى شيخه فى حياته وبعد انتقاله وغير ذلك ،

---

(٣٣) الإلهام النافع/ ٥٩ نقلا عن توجيه السيد محمد الشريف لابنه فى الطريق سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عن الجميع .
(٣٤) الديوان ٩/ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٥ .
(٣٥) أعطار أزهار أغصان/ ١٤٢ .

وعدة المنظومة ٥٣ ثلاثة وخمسون بيتا ، وفيها أيضا حديث الشيخ عن الذكر بالأوراد ، وختمها بدعوات صالحات لأبناء الطريقة ، وسنذكر لك أيها القارىء العزيز الأبيات التى يتحدث فيها الإلمام الجعفرى عن علاقة المريد بشيخ الطريق يقول :

يصحب شيخ العلم والكتاب * ليهتدى به إلى الصواب
فليس بعد العلم من هداية * وعمل به هو الولاية
فاسمع مقاله وكن سريعا * لعمل به وكن مطيعا
فالشيخ أنت إن أطعت الأمرا * وكنت محبوبا لديه سرّا
ومدد الشيخ بقدر الحب * كذاك قربه بقدر القرب
وكلما ذكرته تلقاه * لاسيما إن غبت فى رؤياه
تلك معانى الذوق ياأخانا * فلاتكن مصاحبا سوانا
إدراكنا الإدراك إن أردته * وربنا العظيم ما أدركته
إن الحمى لذاكر ياابنى * فلا تمل عن منهجى وفنى
طريقنا الكتاب ثم السنه * وشيخنا لجده وكلنا
ومالكٌ إمامنا فى المذهب * وعقدنا كالأشعرى الطيِّب
ووردنا كالمزن يهمى عسلا * فيه شفاء للذى قد أقبلا
فأسرعوا نحوى عبادَ الله * فالغيثُ منهلٌ بلا تناهى
فما حجبنا عنكم التراب * ولا تغيبنا كمن قد غابوا
بل نحن فى القلوب لانزال * وفى القلوب ينزل المقال
فإن رأيت قد رأيت ثَمَّا * غيثاً مريعاً هاطلاً وعمَّا
ومن رآنا كالتراب صرنا * فذاك محجوب وعنه سرنا
ومن رآه فى المقام العالى * مداره المحبوب عبد العالى
فذاك قد درى ومن درانى * يموت فى العقبى على الإيمان [٣٦]

أما القصيدة فهى لامية تقع فى ٤٥ خمسة وأربعين بيتا ، بدأها الشيخ - رضى

---

(٣٦) الإلمام النافع/ ٦٥ .

الله عنه ـ بالحديث عن الاقتداء والاتباع ، ثم انتقل إلى الكلام عن الذكر ولذته ومشاهدات الذاكرين ، ثم انتهى إلى الحديث عن آداب المريد مع شيخه ، يقول :ـ

واسمع كلام الشيخ واذكر بالذى * أولاك لاتخرج عليه تجادلُ
فبه الفتوح بإذن ربك فاصطبر * فرضاه عنك هو الأمير العادلُ
طهر فؤادك نحوه وخذ الذى * أعطاك من وردٍ فذاك العاجلُ
واترك سواه فإن نظرت لغيره * أفسدت ماقد كان فهو تضاؤلُ
فأبو الطريق أبى التَّعَدُّدَ مثلما * يأبى التعدد والدٌ لك كافلُ
فإذا رأيت أبا سواه فإنما * أنت اللقيطُ ولِلَّقِيطِ رزائلُ
فأحفظ لشيخك ما استطعت وكن على * نهج الأئمة عارفون أوائل
والشيخ للأوراد جندٌ حارسٌ * فإذا تركت فما عليك يناضل
وإذا تلوت فأنت من أبنائه * أبناء رُوحٍ فى العُلا يافاضلُ
مع إخوة وأحبة لو خلتهم * فرسان ليلٍ أو أسود جحافل (٣٧)

وفى قصيدة أخرى يتحدث عن لزوم اتباع طريق الشيخ وملازمة أوراده ، وما يترتب على ذلك من نتائج فى نفس المريد ، فيقول :ـ

نظروا إليك من المقام العالى * أهل الطريق شيوخ أهل الحالِ
الزم طريقتنا تنل ماتبتغى * واقبل علينا تحظ بالإقبالِ
فانظر لنفسك هل ذكرت بوردهم * أم أنت موثوق من الأثقالِ
أو أنت فى سوق المشاغل تائه * مشغولُ بالدنيا وبالأموالِ
وتركت ورداً لو عرفت مقامه * لبكيت من تركٍ ومن إهمالِ
وعلمت أن الربح فى سحر الدجى * وعلمت أن السر فى الإقبالِ
هم يهجرونك إن هجرت لوردهم * فانهض لوردك لاتكن كالقالى
واذكرهم بفواتح مقبولة * تفتح لك الأبواب عن إقفالِ
والزم طريقتنا تنل ماتبتغى * يكفيك ربك غيظة الجهالِ
أدّ الطريق ولا تكن متخوفا * لا تخش من كدرٍ ولا زلزالِ

(٣٧) الديوان ١٠/١٩٢ ـ ١٩٤ .

فلدى الـطريق مشـايخ قد أحكمـوا * نُصْـحَ الـعبـادِ وقـد كسـوا بجـلالِ
ورثـوا الـطريق عن الـنـبـى وآلـه * نصحـوا العبـادَ بقـولهم وفعـالِ [٣٨]

---

(٣٨) الديوان ١٠/ ١٨٧ ـ ١٨٨ .

رابعـا : أدب المريد مع نفســـه :

اعلم أيهـا المريد ـ وفقنا الله وإياك ـ أن كمالات النفس لاتتناهى ، وعيوبها لاتنحصـر ، وغـاية التربية الصوفية هى إخراج المريد من نفسه الأمارة الظلمانية والوصول به إلى النفس الراضية المرضية ، وبين هذه وتلك مراحل ومخاطر لاينجو المريد من فتنتها إلا إذا ألزم نفسه متابعة شيخه العارف الذى يأمره بالتخلى عن كل خلق دنى ، والتحلى بكل خلق سنى .

وقد ذكر مولانا الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ تحليلا مستفيضا عن أحوال النفوس السبعة وخصائصها ، ووسائل ترقيتها . . (*)

ثم أشار ـ رضى الله عنه ـ على طريقة أهل العرفان ـ إلى دلالات الحروف فى كلمـة (نفسٌ) فقـال : ـ (نفسٌ) أولهـا نون متحـركـة ، وآخرها نون ساكنه ، فحركتها : اضطرابها قبل ذكرها ، وسكونها : طمأنينتها بعد ذكر الله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (**) وتارة مع الشيطان ، فيكون نونها نفورها والفاء : فرارها من الحق إلى الباطل ﴿ كأنهم حمر مستنفره فرت من قسورة ﴾ (***) ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ (****) ، وإذا كانت مع الله فنونها نور يلوح لها عند ذكر ربها ﴿ فهو على نور من ربه ﴾ (*) ، والفاء : فتح الله لها بعد نصرها على شيطانها وهـواهـا ﴿ نصـر من الله وفتـح قريب ﴾ (**) والسين : سبل الله المـوصلة إليه ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ (***) ويحتمل أن تكون النون إشارة إلى النصر فيكون بعد نصر الله ـ تعالى ـ يأتى فتحه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ (****)

(*) المنتقى النفيس ٩٥ ـ ٩٩ .
(**) الرعـــد : ٢٨ .
(***) المدثر : ٥٠ ـ ٥١ .
(****) فاطـــر : ٨ .
(*) الزمـــر/ ٢٢ .
(**) الصـــف/ ١٣ .
(***) العنكبوت : ٦٩ .
(****) النصر/ ١ وانظر المنتقى النفيس/ ٩٩ .

وقد أورد شيخنا الإمام الجعفرى مقالة الشيخ الدردير فى هذا المقام : « واعلم أن طريق أهل الحق مدارها على الصدق ، ورأس مالها الذل ، ونهايتها الغرق ، وقال العارفون : حكم القدوس ألا يدخل حضرته أرباب النفوس ، كثرة الكلام توجب عدم الاحترام ، كثرة مصاحبة الناس توجب الإفلاس لايطهر من الرعونات إلا من خالف نفسه فى الشهوات ، وذكر الله فى جميع الحالات . . من لم يحرق البداية لم تشرق له النهاية ، من لم يخالف النفس والشيطان لم يتحقق بصفات أهل العرفان ، من لم يكن عبداً للرحمن فهو عبد للشيطان . . فانظر أيهما يستحق العبادة (*****) . .

المجاهـــــــدة :-

ويقصد بها مجاهدة النفس ومغالبة هواها ، ومحاربة كل مايبعد المويد عن سلوكه ويشغله عن طريقه ، يقول مولانا الإمام العالم الشيخ المربى سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ مخاطباً المريد :-

« تجرد من محيط الشهوات ومخيط الهوى إلى عرفات قدسك بالوادى المقدس طوى ، فعساك أن تسمع النداء لترتحل عن الأفياء ، فما فاء من شغله فيىء ، ولا سرى نحو كثبان طى ، ولا طوى بعيس جِدِّه البيداء طى ، وكيف يطوى من شغلته عن عرفاته منّ ، فما سبحت أرواحهم إلا بأجنحة أعمالهم ، ولانشطت أفكارهم إلا بقلة آمالهم »[1] .

وهذه الكلمات العذبة التى يخاطب بها الإمام الجعفرى أرواح المريدين ، ويناجى بها قلوبهم ، توجه المريدين إلى أن الجسد طبيعته كثيفة ، وأن الروح شفافة نورانية فإذا أشبع الإنسان جسده ، وأعطاه مايريده من شهواته ، تغلبت كثافة الجسد على شفافية الروح فإذا هى تحبس وتعاق وتحجب ، وأن القوم لم تنهض أرواحهم ، ولم تنكشف لهم الحقائق إلا بكثرة مجاهدتهم للنفس والهوى وإعراضهم عن الشهوات ، وقلة أملهم فى الدنيا ، وهذه القاعدة المهمة أَوْلاَهَا الإمام الجعفرى عناية فائقة ، وكرر الكلام عليها كثيراً فى نظمه ونثره ، ودونك أيها

(*****) المنتقى النفيس/ ٩٩

(١) المعانى الرقيقة ص ٢٥ .

القارىء العزيز هذه الدرر من كلام سيدى الإمام العارف ، سيدى الشيخ صالح الجعفرى ـ رضى الله تعالى عنه وأرضاه :ـ

« الإنسان له أصلان : التراب والروح ، فمن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقد رجع إلى أصله الترابى ، ومن طهَّر نفسه ونوَّرها بأنوار العلم والعمل فقد رجع إلى أصله الروحانى »[٢] .

« لابد للمريد القاصد من جدٍّ واجتهاد ، بلا كسل ولا رقاد ، حتى ينال ما ناله العارفون ، ويدرك ما أدركه المحققون ، فلا وصول إلى غيب مع ارتكاب الذنب والعيب ، ولا دنو للأوانى إلا لأرباب الورد فى الأوان ، ولا وضوء بماء غيبهم ، إلا لمن شرب تسنيم شربهم ، فمن دفع المهور سيقت إليه الأجور »[٣] .

وفى الحق أن المجاهدة مقام رفيع فى التصوف وله دورٌ كبير فى تربية النفس وترقيتها ، ولابد للمريد أن يسير فى الطريق من أوله ويجاهد كما جاهد شيخه فقد يظن أن الطريق سهل ، وأن الفتوح ينال بقليل من القول والعمل ، ومن هنا كان توجيه الإمام الجعفرى إلى أبناء الطريق أن الطريق أمر صعب ليس بالسهل ولا يجتمع للمريد فيه حظه من الدنيا مع حظه من الآخرة ، فلا مجال فى الطريق للهوِ أو زهو ، ولا يفلح فيها من يخلد إلى طول الرقاد وكثرة النوم ، هذا هو الطريق لمن يريد الفلاح ، يقول مولانا الإمام ـ رضى الله عنه :ـ

« أفق من غفلتك وأنا نيتك ، وعليك بأحزابنا التى تغسل قلبك بماء الغيب ، وتجعلك ذا سرٍّ وبر ، فما طلبته من أمر آخرتك ففى بحارها الزاخرة ، وما طلبته من أمور دنياك ففى جواهرها المتناثرة ، فما أسوأ حظ من تكاسل عن خير أخراه وما أشغله عن ذلك إلا شيطانه وهواه ، فما أراك بعد هذا الحال إلا أن توالينا موالاة الروح للجسد ، ولقد طال زمان معرفتك بنا ، وإنا لنأسف غاية الأسف عليك إذ لم تشرب من شربنا ، فما أعددناه إلا لأمثالك ، فجرد قلبك عن حبك لنفسك ومالك ، ولا تعتمد على مادرسته من علوم ، ولا على إقبال الناس عليك ، فإنما الإقبال هو إقبال الحق عليك ، وإقبالك عليه » .

« أما آن لك أن تجول بروحك فى الأحزاب الخمس التى هى بعدد الصلوات الخمس ، وما أثقلها إلا على مَن خشع ، وما أبعد معانيها إلا لمن اتبع ، فاتَّبع

---

(٢) المعانى الرقيقة ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٠ .

مابلغك من حالنا وتخلّق به ، وما حالنا إلا الكتاب والسنة ، فهل أنت كذلك ؟ » .

« ولقد فررنا من ملكها ووظائفها فرارك من الأسد ، ولم يكن لنا معوَّل إلا على الواحد الأحد ، وكان حظنا منها مابلغك ، فهل بلغت به ما أردت ، أم تريد أن تصل بغير مابلغك عن شيخك ، فإن قوافله سارت مشرِّقة وسرتَ مغرِّبا .

سارت مشرِّقة وسرتَ مغرِّبا * شتان بين مشرِّق ومغرِّب

« فروحنا مع من يشبه روحنا ، وحالنا مع من يشبه حالنا ، فهيء روحك لذلك ، ودعك من وسواسك وخيالك ، فلو كُشف لك الحجاب لرأيت العجب العجاب » .

« فما صلينا فيها بالأجرة ، ولا شغلتنا عن شهوده كسوة ، ولا مال قلبنا إلى زهو ، ولا لهانا عن الحق لهو ، فجاهد نفسك للتخلص من جميع ذلك لتصل إلى مناك فقد آن أوان رحيلك ، فما خلد فيها من سبقك ، وإلى متى أنت مشغول بدنياك والجهاد عليك ، واعلم بأن راحتك فى مدِّ راحتك إلى خير من تمدُّ إليه الأيدى واجعلها عن مدّها إلى سواه فى قيد ، فإذا مددتها إليه كسيت العزة ، وإلى غيره كسيت الذلة ، فشتان بين عزٍّ وذُل ، ومفضالٍ وكَلّ » .

« أيش هذا النوم الكثير ، كأنك قد خلقت للطعام والمنام ؟ إذا لم تصُم أنت فمَن الذى يصوم ؟ وإذا لم تقم أنت فمن الذى يقوم ؟ أيقوم الأعراب وسكان البوادى ؟ أم قطاع الطريق وأرباب النوادى ؟ » .

« كيف تركته وما تركناه ؟ وكيف هجرته وما هجرناه ؟ فهو طريقنا وعليه المعوّل فى الوصول فما عندنا من بدع لكن مبدعات ، ولا خرافات ولكن حِكمٌ بينات » [٤]

والإمام الجعفرى يروض نفس المريد فهى فى بداياتها كالحصان الجامح لايسلم راكبه من العثرات ، ولا يلين لصاحبه ولاينقاد ، فهو يوجه المريد إلى أن

---

(٤) المعانى الرقيقة / ٥٨ .

يراقب نفسه بنفسه وأن ينهض بها إلى الجهاد الأكبر ، لتترقى من نفس عدوة أمارة بالسوء إلى نفس لوامة ، إلى أن تعلو فتصل ، إلى أن تكون راضية مرضية ، ولكن ذلك أمر شاق لايصل إليه المريد إلا بكثير عمل ، وصدق مجاهدة ، يقول مولانا الإمام الجعفرى :-

« ما الطريق إلا موصل ، فلا تجعله قاطعا بهجرانك مورده العذب ، فلا ركبت مركب القرب لتصل ، ولاجذبتك جواذب الجذب ، الهجرة قبل الفتح ، وأنت ماهاجرت حتى يفتح لك الباب ، ولكنك أخلدت إلى الأرض : أرض نفسك فأرضيتها ، واتبعت غير منهج أولى الألباب » .

« إن حجابك عنا رؤيتك لنفسك ، وغفلتك عن حظيرة قدسك ، وإن سفاسف أمورك اشتغالك بدار غرورك ، أو ميول قلبك إليها لتغنى ، إذ كلما مال إليها مال عنا » .

« فمن قطع شهوات نفسه وجاء طريقنا إلا وقابله نور لامع . . . . »

« إن النفس الأمارة بالسوء تأمر صاحبها بالسوء الذى يغضب الله تعالى ، وكيف تغضب سيدك الذى خلقك فسواك وأحسن صورتك ، ورزقك وحافظ عليك وجعلك سميعا بصيراً ، وكرّمك تكريما ، ألم تستح من خالقك ؟ كيف تغضبه ؟ أتطيع أوامر نفسك الأمارة وتعصى مَن خلقك ، فأين العقل ياأخى ؟ » .

« فالمؤمن الكامل العاقل الصبور هو الذى أجاب ربه ، وخالف نفسه وهواه وشيطانه ، وسارع إلى الطاعات قبل الممات ، فإن الأعمار غير مضمونة ، والمنايا غير مأمونة ، فجامع المال يموت ويترك ماله ، وجامع الأعمال الصالحة يموت ويدفن معه عمله فيعرف حاله » .

وإذا كان الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ قد وضح أمر المجاهدة للمريد ، وبين له أهميتها فى التربية ـ ودرجتها فى الترقية فى الطريق وذلك فى كلامه المنثور الذى بثه فى كتبه التى تدور فى معظمها حول تربية المريدين مثل « الإلهام النافع لكل قاصد » وهو شرح « لرسالة القواعد » التى وضعها السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ وكتاب « المعانى الرقيقة » و « الذخيرة المعجلة للأرواح المعطلة » و « أسرار الصيام » وغيرها ، فإن الإمام الجعفرى وجه أبناء الطريقة إلى مجاهدة

النفس والهوى والشيطان ، وذلك فى قصائده التى تملأ ديوانه العامر ، لغرض تربوى ، إذْ إن هذه القصائد تتردد فى الحضرات ويسمعها أبناء الطريق ومنهم من لايقرأ ولا يكتب ، ومنهم من تشغله أعماله عن مطالعة الكتب ، فيجد فى القصائد التى يمدح بها فى الحضرة بغيته من التأدب بآداب الطريق والتخلق بأخلاق التصوف الكريمة وإليك أيها القارىء الكريم مقتطفات من قصائد الشيخ يدعو فيها المريد إلى المجاهدة ويرسم له الطريق إليها ، يقول ـ رضى الله عنه :ـ

فجاهد تشاهد فالجهاد وسيلة * إلى كل ما يرضى على كل حالة
وفى الشرح أنباء تفيدك عندما * تشاهد شرح النظم بعد القصيدة
فبالروح فاقرأ إن أردت لفهمه * فما الروح إلا آية فى الفطانة
واحذر لسوء الظن واعلم بأنه * يؤدى إلى فهم بغير حقيقه
وفيه اشتغال الروح بالغير فتنة * وسلم لرب العرش شأن الخليقه
عليك بنفس إن ملكت زمامها * ملكت جميع الأمر من غير مرية
تذكر (إليه) إن فيها مواعظا * وفى كاف (كدحا) كى تسير بهمة
وفى ما تكون العلم فاعلم بأنه * عليم فحاذر عن أمور الجهالة [٩]

وفى الأبيات اشارات إلى لون من ألوان مجاهدة النفس وهو المجاهدة بالقرآن الكريم وذلك بتدبر آياته التى ترشد الإنسان إلى حقيقة النفس ووجوب مجاهدتها ومن هذه الآيات قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ [١٠] وقوله عز وجل ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ﴾ [١١] .

ومن طرق المجاهدة : إضعاف شهوة النفس والتخلص من سلطانها الذى يقوى بالطعام والشراب من أجل ذلك جاء الصوم والذكر وكثرة السهر فى العبادات يقول مولانا الإمام :ـ

فاصرف لنفسك عن سوء الطريق ولا * تركن إليها وعاديها بلا سلم

---

(٩) الديوان ٨/ ٢٩ ـ ٣٠ .
(١٠) الانشقاق : ٦ .
(١١) يونس : ٦١ .

وراعها واجتهد فى صرف شهوتها * بالصوم والذكر فالشهوات لم تدم [١٢]
كم نال بالصوم صوام وكم كشفت * اسرار غيب لعبد قام فى الحرم

وفى المجاهدة بالذكر والاوراد يقول إمامنا الجعفرى :-

فإذا أردت طريقهم فاسلك كما * سلكوا فحال القوم حال طيب
جِدٌّ وعزم واجتهاد دائم * لايغفلون عن الذى هو أقرب
الروح غالية فلا تهملنها * لابد من يوم تطير وتذهب
فنعيمها القرآن والذكر الذى *هو روحها وغذاؤها هو أطيب [١٣]

ويقول أيضا :-

جرد النفس لرب * نحو بيت الله لَبِّ
لاتفكر فى أمور * لست تدرى علم غيب
فالزم الباب وجاهد * وادخلن فى جمع سرب
تلق سهار الليالى * بصلاة أو بجذب [١٤]

ومن أهم طرق مجاهدة النفس وقهرها وترقيتها بعد تجريدها من عيوبها : المحافظة على الأوراد والأكثار من تلاوتها باللسان والقلب يقول الإمام الجعفرى :-

وجاهد تشاهد فالجهاد فضيلة * ومن غاب عن أوراده صار كالمنسى
وياتارك الأوراد قد صرت مفلسا * وضيعت ماقد كان من خضر الغرس
ومهما عصيت الله لاتنس ذكره * ولا تقفلن الباب دونك باليأس [١٥]

ومنها أيضا الخلوة أى الابتعاد عن مجالس القيل والقال والاقلال من الجلوس مع الناس إلا لحاجة أو مصلحة أو صلة رحم أو مجلس علم وذكر وقرآن وما إلى ذلك .

---

(١٢) الديوان ٥/ ٨٣٢ .
(١٣) الديوان ٧/ ٢٥٧ .
(١٤) الديوان ١/ ٥٣ ـ ٥٤ .
(١٥) الديوان ٣/ ٤٤٨ .

فسارع وجاهد فالجهاد به المنى * وما خاب عبد قد يظل بخلوة
خُلُوٌّ وخلوات وخَلِّ طعامه * تخلى عن الاغيار يدعو بخيفة (١٦)

واخيراً فإن الشيخ يحذر المريد من مغبة الانقياد للنفس والهوى فإن ذلك حجاب مانع وسيف قاطع يصده عن ذكر الله ويخذله عن الطاعات ويجعله عبداً ذليلا لشهواته ومن ثم كرر الإمام الجعفرى تنبيهاته لابناء الطريقة ألا يستجيبوا للنفس والهوى بل عليهم بمخالفتها وقهرها وعصيانها :- يقول الشيخ المربّى :-

تلمس لهذى الدار وانشق عبيرها * لعلك أن تحظى بسرّ عبيرها
ولاتك ممن طاوع النفس واقتدى * بأقوالها حتى رمته ببيرها
فما النفس إلا للسمو عدوة * إذا كان إبليس اللعين سميرها
ففكر أخا التوفيق وانظر لحالها * وكيف تسير النفس أنى مسيرها (١٧)

وإذا كانت النفس الأمارة بالسوء أرضية الطبع أسيرة للوسواس الخناس ، فإن الهوى أيضا يدفع صاحب النفس الأمارة بالسوء إلى مجافاة الحق ، ورؤية النفس ومعاداة الخلق ، ومن ثَمَّ يخاطب الإمام الجعفرى أبناء الطريق بهذا الخطاب قائلاً :-

إحذر هواك فإنه يهوى بمن * ملك الهوى أعناقهم فى الهاوية
إن القوى هو الذى غلب الهوى * ليس الذى غلب الأسود الضارية
كم من مريد قد أضرّبه الهوى * لو كان يعقل ماتمنى الفانيه (١٨)

علو الهمة والترفع عن الدنايا :

التصوف - فى أبسطُ معانيه - السمو والترفع عن كل دنيىء ودينوى فى هذا الكون ؛ لأن أهل الطريق مشغولون بما هو أهم من الطعام والشراب واللباس ، إنهم سائرون فى طريق الحق إلى الحق ، متخلقون بالأخلاق السامية الحميدة ، التى من أبرزها« علو الهمة » .

---

(١٦) الديوان ١/ ٩٣ .
(١٧) الديوان ٧/ ١٢٣ - ١٢٤ .
(١٨) المعانى الرقيقة ٧٢

يصور لنا الإمام الجعفرى حال الكملة من رجال التصوف بهذه الصورة الطيبة الجميلة المشرقة ، فيقول :- فى وصف أهل الله وخاصته :-

« تمرُّ عليهم الأيام والليالى ، الرجل منهم بغير ربه لايبالى ، خدموا مليكهم فخدمهم الملوك ، ليس فيهم فى الدنيا فقير ولا صعلوك ، تذلّلوا لله فذلل لهم الصعاب ، وفتح لهم من الخير كل باب ، فالأبواب مفتوحة لهم من غير مفتاح ، يدخلونها بسلام فى مجمع الأرواح ، الدنيا لهم صاغرة ، والآخرة لديهم ماثلة حاضرة ، شربوا على ذكر ربهم صافى الشراب ، فصارت الدنيا تمر أمامهم مرَّ السحاب ، رأوها فعرفوها زائلة فعرفتهم ، فأقبلت عليهم بعد إعراضهم عنها فخدمتهم ، فهى تتشرف بخدمتهم إذ هم رأوا العار فى خدمتها ، وهى تفرُّ إليهم لعلو قدرهم إذ هم فروا منها لخستها لبسوا لفتنتها الدروع ، وتحصنوا من غوائلها بالخشوع ، أمدهم الله بجنوده ، فما ضعفوا وما استكانوا ، ولحبهم لربهم أعلنوا » (١٩) .

ثم يتجه الإمام الجعفرى إلى توجيه المريد إلى قيمة هذا السلوك فى الطريق ، فيقول :-

« اعلم يا أخانا أن علو الهمة يبلغ بصاحبه إلى القمة ، فإذا علت فقد علا بها صاحبها وعلوها بالله وفى الله ، وهى التوجه الخالص المحض إلى حضرة الحق سبحانه ، وياعبد الله : كلما علت همتك طهرت ذمتك ، وكلما ازددت فى الطاعات علوت فى الدرجات ، علو فى الحياة وفى الممات » (٢٠) .

« من كانت همته فى الأرض فهو فيها وإن كان يمشى عليها - ومن كانت همته فى عبادة رب السماء ، متشبهاً بسكانها فهو فيها وإن كان بالغبراء ، فلا غرابة إذا خرقت له العوائد ، ونوعت له الموائد ، فقد هام بهمته ، وذاق كأس محبته وقدح زناد قلبه بزاد الشوق ، فاستنارت جوانبه ، فصارت الجمادات تخاطبه وتلا الشفاء ، فشفا قلبه فشفّ ، ونهض جسمه فخفّ ، فجاهد فشاهد سبل الله فهدى

---

(١٩) المعانى الرقيقة/ ٢١ .

(٢٠) المعانى الرقيقة/ ٦٤ .

إليها بالله ، قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢١) (٢٢) .

« اعلم أن روحك أنزلت من السماء ، وجسدك من الأرض ، فإن عملت بما أنزله الله من السماء رفعت أعمالك إلى السماء ، وتاقت روحك إلى العلياء ، وإن لم تعمل به أخلد جسمك بروحك وعملك إلى الأرض ، فلا تفتح لك ولا لعملك أبواب السماء » .

« حرّك بعلوّ همتك زمام راحلتك ، لعل بذلك تتحرك أعمالك برياح شوقك فتضطرب أمواج بحر عملك مخلصاً للديان ، فيخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، فتتلألأ عرائس أعمالك ، وتتحلى بلؤلؤك ومرجانك ، وتتوج بقمر إسلامك وإيمانك فتسمع النداء الحق من الملك الحق ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (٢٣) .

الزهـــــــد :-

هو أصل عظيم من أصول التصوف ، وركن تأوى إليه معظم مقاماته ، فلا يتصور تصوف بدون زهد ، ولا ينتهى الزهد إلا بالتصوف ؛ إذ هو ثمرته وغايته ونتيجته . . لذا وضعت حوله المؤلفات ، منذ أن بدأ علم التصوف فى الظهور . .

غير أن حقيقة الزهد الإسلامى قد التبست على كثير من العقول ، وشوهت بأباطيل البطالين المدعين ، مما أعوذ إلى تحقيق هذه القاعدة وبيان حدودها الشرعية ، حتى ينماز الطيب من الخبيث . .

فليس الزهد هو لبس المرقعات والتواكل والقعود عن طلب الرزق ، إنما الزاهد الحقيقى هو الذى تقبل عليه الدنيا ويعرض عنها ، وتتودد إليه زخارفها وينفر منها ، تجرى أموالها بين يديه وهو لاينظر إليها إلا كمطية تنقله من دار الفناء إلى دار البقاء . . وشاهد ذلك ماحدث بين عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن المبارك ، وبين أبى مدين الغوث ساكن القصر ، وأخيه فى الطريق ساكن الكوخ - رضى الله عنهم أجمعين . . .

(٢١ - ٢٢) العنكبوت ٦٩ - المعانى الرقيقة ص ٦٤ .

(٢٣) المعانى الرقيقة ص ٦٤ والآيتان من سورة ق ٣٢ ، ٣٣ .

وحديث الإمام الجعفرى عن « الزهد » فى صورته المثالية يدور حول هذا ، قال ـ رحمه الله ـ:

وهـذا طريق جامـع الـخير كله * بدنـيا وأخـرى فى جنـان عليَّةِ
هنـاء ويُسْـرٌ والـغنـى وصيانـة * وعـلم وإرشـاد وحـبٌ بهـيبـة
وسـتـر وتـوفـيق وبـرٌ ورحـمـةٌ * وحـج كثـيرٌ والـطواف بكـعـبـةِ
وإن كنـت ذا أرض فبـورك نبتهـا * وان كنـت ذا تجـر فربـحُ الـتـجـارة
وان كنت ذا غزل فغـزلـك نافـعٌ * وإن كنت ذا صنع نعمت بصنعةِ (٢٤)

ومعنى الـزهـد ـ عند الإمام الجعفرى ـ عدم التعلق بالدنيا ، وترك الاشتغال بها وبـزخـرفها مع أن الإنسان يعيش فى الدنيا وينال ـ بالطبع ـ من متاعها ، ولكن الصوفى ينظر إليها نظرة صوفية خاصة : ينظر إليها على أنها دار الغرور ، وإلى متـاعهـا على أنه حطام زائل وبهرج زائف ، وهذه النظرة شرعية لاشائبة فيها ولا تعارض بينها وبين السعى فى طلب الرزق والمشى فى مناكب الأرض ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تبين للمسلم حقيقة الدنيا وقيمتها ، ومنها قوله تعالى ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزِينةٌ وَتفَاخُرٌ بينكم وَتكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَغْفِرةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحياةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُور ﴾ (٢٥) وما أكثر ماجاء من الأحاديث النبوية الشريفة التى تذم الدنيا ومتاعها الزائل وتبين هوانها عند الله وعند الخلص من عباده المؤمنين . يقول الإمام الجعفرى فى هذا المعنى :-

« حب الدنيا ظمأ ووله وقلق ، فأذهب ظمأ روحك بزهدها فى الفانية ورغبتها فى الباقية ، فإذا رغبت زهدت ، وإذا زهدت وجدت ، وإذا وَجَدتَ جُدْتَ، وإذا جُدتَ عدت ، وإذا عدت وصلت ، وإذا وصلت اتصلت » (٢٦) .

« فوا عجباه منك ثم واعجباه ، ماذا تريد من جيفة يؤذيك ريحها ، ويثقلك أكلها ويطغيك قربها ، ويعاديك أهلها ، إن أقبلت عليها شغلتك ، وإن أعرضت عنها

---

(٢٤) الديوان ٨/ ٩١
(٢٥) الحديد : ٢٠ .
(٢٦) الإلمام النافع ص ١٦٣ .

خدمتك ، وإن أهنتها أكرمتك ، وإن أكرمتها أهانتك ، قولها يضحك أهلها ، وفعلها يبكيهم ، عجوز شمطاء فى صورة فتاة حسناء ، عدوة لأحباب الله تعالى ، فلما عادوها ذللها لهم سيدهم ، فصارت طوع أمرهم ، تخيف غيرهم وهم أخافوها ، وتستعبد غيرهم وهم استعبدوها » .

« تهيأ ياعبد الله بروحك ، وأنصت بقلبك لما سيلقى عليك : إن حب الدنيا فى قلب المريد ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ (٢٧) .

فحرك نسمات قربك الماحية لنعوتك ، لتمحو معها بيوت عنكبوتك، فما حلَّ حب إلهى فى بيت عنكبوت ، لا والذى نفس بيده حتى يموت ، فتخلَّ عن سفاسف أمورك وانظر بِعَيْن قلبك إلينا وما سطرته يدك من سطورك .

« إن حجابك عنا رؤيتك لنفسك ، وغفلتك عن حظيرة قدسك ، وان سفاسف أمورك اشتغالك بدار غرورك ، أو ميولُ قلبك إليها لتغنى ، إذ كلما مال إليها مال عنا » (٢٨) .

« إياك إياك والدنيا ، فلا تقبل عليها أخا التجلى ، وعنها أدبِرْ وولّ ، فو الذى نفسى بيده إنك لتاركها غصباً ، فاتركها باختيارك تزدد حباً وقرباً ، اغسل قلبك وطهره من حب الجيفة » (٢٩) .

« عليك بالإعراض عن الدنيا ما استطعت ، فإن الذى يقبل عليها بيننا وبينه حجاب القطيعة ، فما دعوناكم إلينا لنطعمكم الجيفة ، ولكن لتدعوا ربكم خشية وخيفة » (٣٠) .

---

(٢٧) العنكبوت : ٤١ .
(٢٨) الإلهام النافع (٧١) - (٧٢) .
(٢٩) المعانى الرقيقة/ ١٠٠ .
(٣٠) الإلهام النافع ٢٢ .

فالزهد فى الدنيا والإعراض عنها واحتقارها لالذاتها ولا لمظاهر النعيم فيها ـ حاش لله ـ فإن كل ما فيها من نعم الله تعالى المستوجبة للحمد والشكر ، وقد دعانا الله سبحانه وتعالى إلى الأخذ بنصيبنا منها والتمتع بأكلها وشربها والانتفاع بخيراتها وسخر لنا دوابها وليلها ونهارها وشمسها وقمرها وأنهارها وبحارها ، ولكن المقصود بالازدراء والاحتقار هو حب هذه الشهوات والانقياد لها لذاتها لالغاياتها ، فإن ذلك الحب لايجتمع معه أبداً حب الله تعالى ولا حب الآخرة . .

وقد عرض الإمام الجعفرى لأقوال العلماء فى بيان حقيقة الزهد وبيان مراتبه ، ثم ذكر مافتح الله عليه به من فتوح فى تفسير الزهد وبيان أسرار حروفه ، بما يدل على أننا أمام عقل ملهم وقلم موهوب ، وعلم لدنى ، يقول مولانا الإمام صاحب الأسرار والأنوار :ـ

« قال العلماء : الزهد هو الإعراض عن الشىء لاستصغاره ، وإعراض الهمة عنه لاحتقاره من قولهم : شىء زهيد ، أى : قليل .

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ « الزهد ثلاثة أحرف : زاى وهاء ودال ، إشارة إلى الإعراض عن زينة الدنيا ، وعن الهوى ، وعن الدعاوى » .

وقلت بفضل ربى ـ تعالى :ـ الزهد ثلاثة أحرف ، كل حرف يشير إلى سبع صفات ، وهى : زينة القلب بالحكم والمعارف ، زهوق الباطل وخيالات الدنيا وما فيها ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ (٣١) ، (لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٣٢) فى الدنيا والآخرة .

زيادة الهدى ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ (٣٣) اهتدوا إلى أن الله حق ، وأن الآخرة باقية وأن الدنيا فانية ، زوال حب الدنيا عن قلوبهم لمّا علموا أنها جيفة

---

(٣١) ٨١ : الإســراء .
(٣٢) ٤٠ : ص .
(٣٣) ٧٦ : مريــم .

وطلابها كلاب ، زجر القلب النفس عن توجهها إلى حطام الدنيا ولذاتها ، زيّه بزيّ الصالحين من أهل التقى والفلاح والدين .

والهاء تشير إلى سبع صفات ، وهى :-

هدايته : أى إلى سُبُل الله الموصلة إلى حظيرة قدسه ، هباته الباقيات الصالحات لمَّا زهد فى الصور الفانيات ، هجرته للذات لمَّا هجر اللذات ، هيمانه بحب الله عن كل شىء لاه ، هيونته بعد قسوته ، همه الآخرة وما فيها بعد زهده فى الدنيا وما فيها ، هبوطه إلى أرض التواضع ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٣٤) ، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾ (٣٥) .

وللدال سبع صفات ، وهى :-

دلالته على الله تعالى ، لمَّا غاب عن نفسه الفانية ، ديدنه دوام ذكر الله ؛ لأن الدنيا تشغل من تعلق بها عن ذكر ربه سبحانه ، دعواه حمد الله تعالى لما يرى غيره من المغترين المغرورين ، دوام التوجه إلى الله تعالى مع التلذذ بمناجاته وتلاوة ذكره الحكيم دنوه من حضرة التقديس بكثرة الذكر الذى هو منشور الولاية ، دخوله حضرة القرب الإلهى ، ووقوفه عند السماع العام ، الذى يدرك بالأذواق ما اللحظة فيه خير من ألف عام .

فهذه إحدى وعشرون ، من ضرب سبعة فى ثلاثة ، بقدر عدد الواجب والجائز لله تعالى فمن تحقق بالصفات المتقدمة وهى الإحدى والعشرون جاز له أن يدخل حضرة القدس التى هى حضرة الله عز وجل ، الذى له عشرون صفة واجبة ، وصفة جائزة .

---

(٣٤) العنكبوت : ٥٦ .

(٣٥) الفرقان : ٦٣ .

وقلت بفضل ربى تعالى :-

إحدى وعشرون صفات الزاهد * لمن يريد حضرة للماجد
عشرون بعد تسعة كساؤه * من الثياب ذلك ارتقاؤه
خمسون يافتى صفات قد سمت *ومن له أنواره لقد نمتْ
تسع وأربعون بعدها على * ما كان من صفات من بها علا
تسع وتسعون جميع العدد * صاحبها مزود بالمسدد
تجلى به الحوباء من دعائه * وتنزل الغيوث من رجائه
يرجو إله العرش فى الإجابة * كما أجاب معشر الصحابة

وقلت بفضل ربى تعالى :-

أزهد لكل مفارق من قبل أن * تلقاه فارق فالبقا للباقى
لاسيما الدنيا كظلٍّ يافتى * تلقاه قد ولّى بغير تلاق
كم من غرور قد رآها جنة * فأرته ذلّ الهون بالاملاق
وترى القنوع بها أراح فؤاده * لما اكتفى بموائد الرزّاق
فازهد تجد قلباً لديك منعّما * هذا النعيم لكل قلب راق

فتخلَّق أيها الأخ الكريم ؛ بهذا الخلق العظيم ، أسأل الله تعالى أن يوفقنا أجمعين إلى العمل بهذه الأقوال فى جميع الأحوال ، حتى تكون صفاتنا كاملة مكملة من جميع الوجوه (٣٦) .

---

(٣٦) راجع الإلهام النافع ١٦٤ - ١٦٩ باختصار .

ويقول ـ رضى الله عنه ـ محدداً درجة الاهتمام بالدنيا عند أبناء الطريق :ـ

ولا تطلب الدنيا بذكر إلهها * فرزقك مكتوب ليوم القيامة
فكم من فتى أضحى وأمسى مهرولا * يريد بذكر الله أنتن جيفة
فما ناله إلا التأسف عندما * رأى الحق مشهوداً بعين البصيرة
ولاسيما إن كان يزعم أنه * على نهج أبنائى أهيل الطريقة
فدع زينة الدنيا وحاذر غرورها * وَعِشْ مثلما عاشوا بزهد وعفة
فإن جاءت الدنيا فعجل ببذلها * كمن بذلوها فى أمور الشريعة
فما هى إلا فتنة تجلب الهوى * مصائد صياد الهوى والقطيعة
وماحبها بالقلب إلا قطيعة * عن الحب للباقى تنبه لقولتى (٣٧)
سلام على قوم تناسوا حبيبهم * وما علموا الدنيا سراباً بقيعة
وقد علموا الدنيا كظلٍ نعيمها * يزول ويفنى أو كأنتن جيفة
فَمَنْ مَالَ لِلدُّنْيَا يَمَلّ شُهُوده * ومَنْ مَالَ للأخرى شهيدُ المحبةِ
ففى أى وادٍ أنت إن كنت عارفاً * وهل ذقت شيئاً من شراب الأحبة
وهل ظهرت آثار شربٍ شربته * عليك وإلا كنت من أهل غفلة
نهارك يامغرور لهو وغفلة * وليلك نوم كل شهر وليلة (٣٨)

وتارة تراهم يقظة ، وتارة تراهم فى المنام ، قطعوا عالم الحس فانزوى أمامهم الحس ، ومزقت لهم العوائد ، فإن زرتهم على أى حالٍ ـ قبلُ أو بعدُ ـ نلت غالى الموائد ، أنفاسهم عطرية ، ونظراتهم روحانية ، وأحوالهم محمدية ، جليسهم لايشقى ، ومريدهم بهم يرقى » .

فأولياء الله ـ تعالى ـ هم بمثابة المصابيح التى تنير الطريق أمام المريد ، فتزيل ظلمات النفس ، والقرب منهم يعين المريد على التغلب على نفسه وهواه ، يقول شيخنا الإمام الجعفرى فى إحدى منظوماته :

---

(٣٧) الديوان : ٨/ ٢٩ .
(٣٨) الديوان : ٨/ ٣٤ .

فالأولياء سبل الرحمن * إمدادهم من معدن الفرقان
ينفرون النفس عن هواها * إذا رأيتهم ذكرت الله [٤٠]

ملازمة العلم :

ومما يجب على المريد أن يجعله هدفه وطريقه أن يلازم العلم وأن يجلس فى مجالسه فصحبة أهل العلم هى أساس الخير والفلاح ، وطريقة الإمام الجعفرى كما سبق أن ذكرنا قامت على العلم ، والسير والنجاح فيها لايتحقق إلا بالعلم ، وملازمة العلماء الذين يقول عنهم الشيخ :-

« عليك بسماع فيوضاتهم ، عساك أن تحظى ببعض بركاتهم ، فما ضلَّ من صحب الأكابر أو صار فى ركابهم ، بل يصل إلى ما وصلوا ولو جاء من بعدهم ، فأرح راحلتك تحت ظلال أشجارهم ، فعساك أن تطرب بتغريد أطيارهم ، فكم غرَّد عند ليبهم فاهتزت له أشجارهم طربا ، فتساقط على أحبائهم من عراجين دواء قلوبهم رَطْبا ، فأكلوها فقرت بها أعينهم ووجدوا لها ذوقاً عجبا ، فيها ما يشفى الصدور ، وينعش الأرواح ، ويغتصب من اغتصبه العدو إلى أهوائه ، حتى يعود إلى ربه شاكراً لنعمائه ، ذاكراً له بالقلب والقالب ، مفكراً فى ارتفاع السحب ودورة الكواكب » [٤١] .

« إذا علمت أن معك العليم ، وهو يحب العلماء ، ويكره الجهلاء ، فسارع إلى مجالس العلم ، لتحظى بالعلم الموصل إلى حب الله تعالى لك ، وفى الحديث : « أوحى الله تعالى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إنِّى عليمٌ أُحِبُّ كُلَّ عَلِيم » [٤٢] .

---

(٤٠) الإلهام النافع ١١٤
(٤١) المعانى الرقيقة/ ٣٤ .
(٤٢) الإلهام النافع/ ١٦٢ .

ويقول مولانا الإمام فى إحدى قصائده :ـ مرشداً ابن الطريق إلى مجالس العلم والعلماء [٤٣] :ـ

ولازم العلم واجلس فى مجالسه * لاتشتغل بحطام المال والنعم

فمجلس العلم فيه سائر الفتوح والإمدادات : فيه الذكر وفيه العلم ، وفيه القرآن فمن جلس فيه لن يعدم الخيرات ، ولن يحرم من البركات ، يقول سيدى العالم العارف العامل سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه [٤٤] :ـ

فاشرب شراب الخلد فى حلقاته * لاسيما العلم الذى هو مطلبُ
وانشق نسيم المسك فى حضراتهم * واشهد خيار الخلق فيها تجذبُ
فالعلم مفتاح لكل فضيلة * والذكر نور سائق ويرغب

والعلماء الذين ينفع علمهم هم العالمون العارفون الأولياء الذين يجمعون فى دروسهم وتربيتهم بين الشريعة والحقيقة ، فهؤلاءهم الذين ينفع علمهم ، وتثمر تربيتهم ، لأنهم ينظرون إلى القلوب ، ويخاطبون الضمائر ، بمالهم من نظر ثاقب ، وبصيرة نافذة ، وبما وهبهم الله تعالى من الفتوح ، وما رزقهم من القبول والمحبة عند الناس ، هؤلاء الأعلام يجذب شيخنا الإمام الجعفرى القلوب إليهم بهذه الكلمات الطيبات :ـ

الأولياء يذكّرونَك الله تعالى ، بما لديهم من جواذب جذبتهم ، وروائح روحتهم وعرفان عرَّفهم ، وقرب عزهم ، ونور سطع منهم ، وسرٌ سرى إليهم ، وفيض فاض عليهم من معدن الفيوضات ، وكلام تسمعه كالمدام تارة ، تراهم صفوفاً على الأقدام .

ملازمة النوافـــــل :

ومن الآداب التى ينبغى للمريد أن يتحلى بها بعد أداء الفرائض :حرصه على النوافل فى سائر الطاعات التى شرعها الله ـ تعالى :ـ

---

(٤٣) الديوان ٥/ ٨٣١
(٤٤) الديوان ٧/ ٢٥٨ .

يقول القطب الولى سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ « لاتتهاون بالنوافل فإن سوقها عند الله حافل ، ومملوءة بالجحافل ، ولها عند الله شأن أى شأن ، حيث جعلت الحق سبحانه ـ لك سمعا وبصراً يا إنسان . . فعليك بحافل سوقها بالليل إذا عسعس ، وبالصبح إذا تنفس ، وفى الضحى والأسحار ، وفى البرارى والقفار ، حتى يتحقق فيك معنى الحديث القدسى :

(ولا يزالُ عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتَّى أُحِبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته) رواه البخارى .

(كنت سمعه . . الخ) أى : كان حبى فى سمعه وبصره وجميع جوارحه ، لأن الحب القلبى إذا زاد سرى إلى جميع الجوارح ، وزيادته تكون بسبب حب الله ـ تعالى ـ لعبده الذى يجعل الحب الإلهى ساريا فى جميع أجزائه . . فالمدار على حب الله ـ تعالى لك ، لاعلى حبك له ، وبحبك له عبدته ، وبعبادتك له أحبك ، فلاتنس الحب وأسبابه ، واجعل نوافلك مدامك حتى تبصر مرامك . .

قال ابن الفارض ـ رضى الله عنه :

ونفلى مدامى والحبيب منادمى [٤٥]

ويقول الغوث الربانى الولى النقى سيدى صالح الجعفرى :

تذلل تبتل ثم قدم نوافلا * كمن عرفوا المحبوب فى ليلهم صلوا
فكان لهم سمعاً وكانوا به له * على العهد قدوفُّوا وفى حبهم جلُّوا
فإن شئت أن تحيا سعيداً فهذه * سبيل ذوى الإسعاد ساروا وما ملّوا [٤٦]

ويقول ـ رضى الله عنه :ـ

فما عرف الرحمن من بات نائما * ولم يألف الأذكار بالليل والنفل

---

(٤٥) الإلمام النافع / ٩٠ ـ ٩١ .
(٤٦) المعانى الرقيقة ٥٢ .

تذكـر تبـتـل لاتـكـن ذا غبـاوة * تجـرد عن الـدنيا تجـرد عن الخـل
فإنـك بالأذكـار صرت بحـضـرة * فأكثـر من الأذكار أكثر من النفل (٤٧)

وفى هذا حثٌ من الإمام لأبنائه على التذلل والتعبد بالإكثار من الذكر والنوافل فإن رأس مال المريد هو أداء فرائض الله ـ تعالى ـ التى أوجبها عليه ، وأداء النوافل هو الربح الذى يربحه . . فعلى قدر الإكثار يكون الربح . .

وكل ركن من أركان الإسلام له نافلة ، فالشهادتان : نفلهما الإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ والصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصلاة : نفلها اداء السنن والمستحبات ، والزكاة : نفلها الصدقة ، والصوم : نفله صوم الرواتب كيوم عرفه وعـاشـوراء والاثـنين والخميس . . الـخ والحـج : نفله تكـرارهُ بعـد أداء الفريضـة . . . وهكذا .

مُحَاسـبة النفس :ـ

إن محاسبة النفس هى السبيل إلى تهذيب النفس وتنقية الأعمال ، وهى تربية المـريد على هضم النفس وعدم الاغترار بالعمل ، ومؤاخذة النفس ولومها على تقصيرها وإسرافها فى المعاصى وإن كانت صغيرة حقيرة ، وهى تنشأ عن مراقبة الله تعالى فى السِّر والعلن فهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ (٤٨) ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ (٤٩)

والمراقبة والمحاسبة من الآداب التى ينبغى على المريد أن يلازمها وأن يسير على منهجها طول حياته ، حتى لايغتر بعمله ، وحتى لايستمر فى غفلته ونومه .

ولنستمـع إلى الإمـام الجعفـرىّ ـ رضى الله عنـه ـ وهو يقرر هذا المبدأ فى طريقته ، وهو يشرح القول المأثور :ـ

« حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبُوا وزنوها قبل أن تُوزَنَ عليكم » .

---

(٤٧) الديوان ٤/٥٥٨ ـ ٥٩١ .
(٤٨) غافر : ١٩ .
(٤٩) الحديد : ٤ .

يقول سيدى العالم العارف المربّـى :ـ

« المحـاسبـة أنـواع : فيحـاسب نفسـه على الاختلاس ، وعلى الحرف فى القرطاس ، وعلى البرق إذا لمع ، وحمام الأيك إذا سجع ، وهل ذكّرها البرق بريق الحمى ، وسجـع الحمـام لدمـع همى ، وقـول المهيمن ﴿ إِذْ هُمَـا ﴾ (٥٠) ، فالشىء بالشىء يُذْكَـر ، والـذنب بالتـوبة يُغْفَر ، ويحاسب النفس على نفاستها وتكريمها ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ آدَمَ ﴾ (٥١) ، وعلى تعليمها بعد جهلها ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٥٢) وعلى خطاهـا على الأرض وأين سارت ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُـوا۟ وَآثَارَهُمْ ﴾ (٥٣) وعلى غفلة حجبتها ، ونظرة سمّتها ، وفى الحديث النبوى :ـ

« النظرة سهم مسموم من سهام إبليس » (٥٤) . وعلى كلمة قالتها ، لو مزجت بالبحار لمزجتها ، ألا وهى الغيبة التى أجمع العلماء على أنها من الكبائر ، ولا تجـوز غيبـة المسلم مطلقـاً على أى حال من الأحوال ، وهذا هو ظاهر الكتاب والسنة ، ويحاسب نفسه على تركها من العلم ماوجب ، وعلى المال ما اكتسب ، ومن أين طريقه ، ومن أين جاء وإلى أين ذهب ، وعلى الموت إذا نزل بإنسان وهل ذكره ذلك موته وفراقه الأهل والإخوان ، وعلى ما أنبتت الأرض من الزرع والزهور ، وهل ذكّره ذلك البعث والنشور ، وعلى النار إذا أججت ، وهل ذكّرته الجحيم التى سعّرت ، وعلى رؤيته للحدائق والثمار ، وهل ذكّره ذلك دار القرار ، وعلى نظره إلى المبـدعـات ، والجبـال الراسيات ، والبحار الطامحات ، والرتّع السارحات والأطفال والأمهات ، والسفن الجاريات ، وهل تذكرت نفسه عند ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِـهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ ﴾ (٥٥) أم ظن أنه على غفلته عن ذلك

---

(٥٠) إشارة إلى الآية الكريمة ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ التوبة/ ٤٠ أى : يتذكر المريد حمام الغار الذى أفرخ وباض على فم غار ثور عند هجرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم .

(٥١) الإسراء : ٧٠ .

(٥٢) العلـق : ٥ .

(٥٣) يس : ١٢ .

(٥٤) رواه الطبرانى والحاكم

(٥٥) الشورى / ٣٢ .

لايلام إذا كان كذلك فما الفرق بينه وبين الأنعام ؟ .

« خلقك الله أيها الإنسان لتحاسب نفسك ، وتارة تهوى مع الهاوين ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ (٥٦) ، ﴿ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى ﴾ (٥٧) .

فعجلّ بحسابك قبل أن يعجّل بذهابك ، فليس بعد الذهاب من الدنيا من رجعة وليس بعد ترك المحاسبة من فجعة (٥٨) » .

« لا تهملن جوادك عند السباق ، ولا يعوقك عن نهوضك عائق سباق ، وأن تحاسب نفسك على قلقها وعدم صبرها على المكث فى المساجد ، التى هى بيوت الله تعالى ، وأعلمها أنها إذ ذاك تنال ثواب المرابط فى سبيل الله تعالى ، وهو الذى يكون حارساً بين الكفار والمسلمين ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « وانتظار الصَّلاَة بعد الصلاة ، فذلكم الرّباط » (٥٩) وأن تحاسب نفسك بعدم الرضا بقليل عيشك وأنه يجب عليك الرضا بما قسم الله تعالى لك ، قال ـ تعالى ـ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ معيشتهم فِى ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٦٠) » (٦١) .

وهـذه وصية أخرى من شيخ الطريق الإمام الجعفرىّ للمريد حتى لاتضلّ به المسالك ، ويَقِى نفسه شرَّ المهالك يقول ـ رضى الله عنه :ـ

« يلزم المريد الصادق أن يحتفظ فى طريقه بأمور :ـ

الأول :ـ الإخلاص : وهو كما قال الشيخ النووى ـ رحمه الله ـ أن يريد بعمله وجه الله تعالى ، ويلزم على ذلك أن يشاهد ربَّه بقلبه قبل القول والفعل .

الثانى :ـ أن يجعل قوله وفعله على نهج الشريعة الغرَّاء ؛ لأن الله لايقبل قولاً ، ولا عملاً إلا إذا كان على وفق شريعته .

الثالث : ألاَّ ينظر إلى عمله حتى يعجب به أو يغترَّ ، وإنما ينظر إلى أنه نعمة

---

(٥٦) التين / ٥ .

(٥٧) طـه / ٨١ .

(٥٨) الإلهام النافع / ٨٢ ـ ٨٤ .

(٥٩) رواه مسلم

(٦٠ ـ ٦١) الزخرف/ ٣٢ ينظر الإلهام النافع / ٩١ .

من نعم الله عليه بفضله وتوفيقه سبحانه وتعالى ، فيقدِّم شكراً لله تعالى عليه ، فإذا فعل ذلك زاده الله تعالى ، قال تعالى ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٦٢) .

الرابع : لايُفَضِّل نفسه بعمله على غيره ، ويرى نفسه عبداً للهِ .

الخامس : أن يتبرأ من حوله وقوّته إلى الله تعالى ، ويقول : اللهمَّ إنِّى أبرأ من حَوْلى وقـوَّتى إلى حولك وقوّتك ، فى كلّ قولٍ أو فعلٍ وفقتنى فيه إلى ما تحبُّه وترضاه ، فإنه لاحول ولا قوة إلاَّ بالله العلىّ العظيم .

وبعد الإخلاص والتبرِّى من الحول والقوة : الجهاد ، وهو على قسمَيْن : جهاد النفس : أى كفّها وبُعْدها عن مخالفة الله تعالى ، وشهواتها وهواها .

قال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٦٣) .

وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ ﴿ لا يُؤْمن أَحَدُكُم حَتَّى يكُونَ هَوَاه تبعاً لما جئت به ﴾ (٦٤) ، وقال سيدى عبد الرحيم البرعى اليمنى :ـ

لاتـتـبـع الـنـفس فى هواهـا * إن اتّـبـاع الـهـوى هـوان

وقال الشـــاعر :

نون الهــوان من الهـوى مسـروقـة * فإذا هويت فقـد لقـيت هوانـا

وإنما قدمت فى الجهاد البعد عن المعاصى ؛ لأنه بمنزلة فتح الطريق وتسهيله للطاعات وان المزارعين ينظفون الجدول أولاً مما فيه من الحشائش ، ليسهل جرى الماء فيه كذلك الإنسان إذا أبعد عن نفسه المعاصى والشهوات والهوى ، سهل عليه فِعْلُ الـطاعـات ؛ لأن المعـاصى يصحبها المنع عن رضوان الله تعالى ، والطاعات يصحبها السوق إلى رضوان الله تعالى .

« وللمعـاصى شياطين تزينهـا لأربـابها ؛ قال تعالى ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

(٦٢) إبراهيم : من الآية ٧ .
(٦٣) النّازعات : ٤٠ ـ ٤١ .
(٦٤) رواه الديلمى فى الفردوس

أَعْمَالَهُمْ ﴾ [٦٥] وقال الله تعالى ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [٦٦] أى : زيّن له الشيطان عمله السيىء فرآه حسنا » .

والطاعات لها ملائكة تثبت أصحابها عليها وتزينها لهم ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [٦٧] أى : عند كل قول وفعل يحبه الله ويرضاه .

وقال الله تعالى ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [٦٨] تقول الملائكة هذا الكلام للمؤمنين عند موتهم ، أى : كنا مشجعين ومثبتين لكم قبل موتكم على فعل الطاعات .

الجهاد الثانى الذى يلزم المريد بعد اجتناب المنهيات :

ملازمة الطاعات : صغيرها وكبيرها ؛ لأن كل طاعة تحمل إلى الروح منافع ذات أنواع مختلفة ، قال الشيخ أحمد بن عطاء الله ـ رحمه الله تعالى :ـ

« لمَّا علم فيك السآمة عادة ، نوَّع لك العبادة » .

ومَثَل اجتناب المعاصى : كتنظيف الأرض التى يريد أن يزرعها صاحبها ، ومثل العبادة كرمى الحبّ فيها بعد تنظيفها ، فيا أخانا فى الله تعالى : إذا حصل لك صدود عن عبادة ربك وذكره ـ سبحانه وتعالى ـ فاعلم أن ذلك من الشيطان ، قال الله تعالى ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ [٦٩] ، فعليك بالعلاج الربَّانى ، قال ـ تعالى ـ ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [٧٠] قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (عشر مرات) ثم التفت إلى أورادك بقوة ، فقد أمر الله ـ تعالى ـ بالنشاط والقوة فى العبادة ، قال الله ـ تعالى ـ ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [٧١]

---

(٦٥) الأنفال : ٤٨ .
(٦٦) فاطر : ٨ .
(٦٧) الأنفال : ١٢ .
(٦٨) فصلت : ٣١ .
(٦٩) المائدة : ٩١ .
(٧٠) الأعراف : ٢٠٠ .
(٧١) مريم : ١٢ .

وقد ذمَّ الله ـ تعالى ـ أقواماً يأتون إلى عبادته بالكسل ـ وهم المنافقون ـ قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى ﴾ (٧٢) .

فالعلاج هنا الاستعاذة ، وأما عند الوسوسة فى العبادة فعلاجها قد دلنا الله تعالى ـ عليه ، فى قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٧٣) قال الجلال رحمه الله : ﴿ طَائِفٌ ﴾ أى وسواس ، ﴿ تَذَكَّرُواْ ﴾ أن الله ناظر إليهم ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أى مبصرون سبيل النجاة . انتهى كلام الجلال . (قلت) وهذا الذى أشرت به إليك أولاً من المشاهدة الربانية عند العبادة ، لتصرف عنك وساوس الشيطان .

وكما أن فى الطاعات أنواع المنافع للروح كذلك فى المعاصى أنواع المضارّ للروح ، فامنع نفسك عن جميع المعاصى قولاً وفعلاً ، ظاهراً وباطناً ، لتمنع نفسك عن جميع المضارّ .

واعلم ياعبد الله ـ وفقنى الله وإياك إلى البعد عن كل معصية ، صغيرة أو كبيرة ـ أن العبد له مظهر ، يظهر فيه فى عالم الغيب ، أمام الله تعالى ، وأمام ملائكته بملابس يلبسها ، فإن فعل الطاعات كانت ملابسه نقية طاهرة سابغة ، وإن فَعَل المعاصى كانت ملابسه غير ذلك ، قال الله تعالى ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (٧٤) .

فافهم كلامى هذا ، وفكّر فيه دائماً أبداً ، وانظر إلى كساء نفسك : كيف هو الآن ؟ فإذا رأيته لباسَ التقوى فسارع إلى شكر ربك ، وإذا رأيته غير ذلك فسارع إلى خلعه بالتوبة والاستغفار ، قال الله تعالى ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (٧٥) ، وقال الله تعالى ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى اللَّهِ ﴾ (٧٦) .

---

(٧٢) النساء : ١٤٢ .
(٧٣) الأعراف : ٢٠١ .
(٧٤) الأعراف : ٢٦ .
(٧٥) آل عمران .
(٧٦) الذاريات : ٥٠ .

واعلم أن للطاعات لذّاتٍ لدى الروح تكدرها المعاصى ؛ لأن المعاصى أمراض ، قال البوصيرى ـ رحمه ـ الله .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد * وينكر الفمُ طعم الماء من سَقَمِ

لأن لذة الطاعات فى العبادة تنتج من المحبة القلبية لله تعالى ، وتسرى فى جميع الأعمال القولية والفعلية ، كسريان الماء فى الغصون ، وهذا شأن الواصلين .

« واعلم يا أخانا فى الله تعالى أن حب الأولياء وحسن الظن بهم من فضل الله تعالى ، قال تعالى ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشاء ﴾ (٧٧) .

ففضل الله ليس بالقوة ، وليس بالعلم ، وليس بالفصاحة ، ولا بالبلاغة ، ولا بالذكاء ، ولكن : بالمشيئة الإلهية فقط .

ومن أحب الصالحين يكفيه بشرى النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما فى الصحيحين وهو أن أعرابياً سأل النبىَّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الرجل يحب القوم ولمَّا يلحق بهم ، قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « أنت مع مَنْ أَحْبَبْتَ » (٧٨)

وفى صحيح مسلم بعد أن روى الحديث أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال :ـ (وإنى أحبُّ النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم وان لم أعمل مثل عملهم) ومعنى (لمَّا يلحق بهم) لمَّا بمعنى لم ، أى لم يبلغ منزلتهم فى العبادة والطاعة .

فكل من ذهب إلى المدينة المنورة ، وزار سيد السادات ، وخير البريَّات ، سيدنا ومولانا محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقال له : أنت مع من أحببت ، وإذا ذهب إلى زيارة أهل البقيع ـ رضى الله عنهم ـ يقال له : أنت مع من أحببت .

وإذا ذهب إلى زيارة سيد الشهداء سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ يقال له : أنت مع من أحببت ، وإذا جاء لزيارة أبى عبد الله سيدنا الحسين ـ

---

(٧٧) الجمعة : ٤ .

(٧٨) رواه الشيخان .

رضى الله عنه ـ يقال له : أنت مع من أحببت ، وإذا ذهب إلى زيارة أهل بيت النبوة أجمعين يقال له : أنت مع من أحببت ، وإذا ذهب لزيارة الصالحين فى مشاهدهم فى أى مكان كانوا يقال له : أنت مع من أحببت .

واسمع ياعبد الله ، وانصتْ إلىَّ بأُذنَىْ روحك ، عسى الله أن يهدينى وإياك إلى أسراره التى فى الكون ، كما قال سيدى أبو مدين ـ رضى الله عنه ـ (لله فى الكون أسرار تُرَى فيه) أن المعية أنواع :ـ

النوع الأول : الحسىّ ، وذلك إذا كنت عند قبورهم .

النوع الثانى : المعنوى ، وهو إذا سلّمت عليهم ، وجلست مع أرواحهم .

النوع الثالث : البرزخى ، وهو إذا كنت معهم فى النوم .

النواع الرابع : الوجدانى ، وهو إذا كنت فى أى مكان ، وشاهدت واحداً منهم بقلبك ، وقرأت له الفاتحة ، أو شيئاً من القرآن ، ودعوت الله تعالى له .

النوع الخامس : لأرباب خوارق العادات ، مِمَّنْ كشف الله لهم الحجب ، ومن ذلك رؤيته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقظة ، ودليلها : حديث البخارى ، قال صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿ مَنْ رآنى فى النوم فسيرانى فى اليقظة ﴾ .

والمعية الكبرى : هى التى تكون فى جنة عدن فى دار السلام ، قال تعالى :ـ ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِين وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ﴾ (٧٩) .(٨٠)

عدم اختلاط المريد بالمنكرين والمدعيـــن :ـ

ومن الأخطار التى قد يتعرض لها المريد فى طريقه : اختلاطه بالمنكرين وأعداء التصوف فهؤلاء حقدهم دفين ، وصدورهم مملوءة حقداً ، لايعرفون للحب أو للمودة طريقاً وقد يتحايلون فى التسلل إلى المريد ، ويدخلون إليه من مداخل شتى قد لايفطن إليها المريد ، فيقع فى شراكهم ، وتنطلى عليه حججهم ، من أجل ذلك حذر الإمام الجعفرى أبناء الطريق منهم كثيراً ، ووصف أحوال هؤلاء

---

(٧٩) النســاء : ٦٩ .

(٨٠) يراجع فتح وفيض ١٢٨ ـ ١٣٩ باختصار .

المنكرين وطريقتهم حتى لاينخدع بهم الناس ، فيقول عنهم :-

« ومن الوبال على المريد انتماؤه للمدَّعين ممّن يدَّعون الاجتهاد ، وينكرون على الأئمة رضوان الله عليهم - وهم لا يعرفون القرآن ولا الحديث ولا علم الأصول ، فهم فتنة بين المسلمين ، وهم أضرُّ على المريد السالك من المعاصى » .

ومن العجب أن حالهم لايعجب أحداً إلا الجهَّال ، وشَركهم لايصطاد إلا الجهال ، كما قال الشاعر :

* إن الطيور على أشكالها تقع * [٨١]

ومن علامتهم : غبرة على وجوههم ، وأنهم من أهل الوجهين ، وبخلهم إلا على من يوافق قولهم ، وكثرة كلامهم بغير ذكر الله تعالى ، وإظهار الحماقة عند الحديث معهم واحتقارهم لمن دونهم . ولو كان أعلم وأشرف ، وكثرة غفلتهم عن ذكر الله تعالى وكثرة الرياء ، واعتناؤهم بكل مايراه الناس ، وبغضهم للصوفية ، وإنكارهم عليهم وإنكار كرامات الأولياء ، واتخاذهم قولهم مهنة للعيش ، وعجزهم عند المناظرة مع أىّ عالم ، واحتقار جميع المسلمين وتضليلهم وتسفيه آرائهم » .

فالمريد السالك فى طريق الله تعالى يحذر هؤلاء ، ويصحب الأخيار .

ومن الوبال على المريد اختلاطه بالمنكرين الذين كلامهم كالحجارة ، وان قلب المريد كالزجاجة « والزجاجة كسرها لايجبر » فمن عرض قلبه لهم فقد عرَّض زجاجته للكسر فجلوسك مع المنكرين وسماعك لقولهم حرام ، إذ أنت مأمور بالإعراض عنهم ، ففكِّر فى قولى هذا ، ولا تهمله فإنه نفيس - ان شاء الله تعالى :-

أعرض عن الجهَّال لاتسمع لهم * فكلامهم شؤمٌ على من يسمعه
وإذا ذكرت لواحدٍ أهل الهدى * وذكرت سيرته فقولك يفجعهْ
وإذا ذكرت سواه من أهل الدنا * تلقاه يسمع للكلام ويجمعه
كالجعل يؤذيه الغوالى طيبها * ويسرُّ بالروث الدنيىء وينفعه [٨٢]

---

(٨١) الذخيرة المعجلة / ٢٥ .

(٨٢) الإلمام النافع ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ باختصار .

خامساً : أدب المريد مع الإخوان

هذا الأدب لاتنحصر تفصيلاته لأنه مجموع مافى التشريعات الإلهية ، والأحاديث النبوية ، وآثار الصحابة والسلف ولكن يجمعها كلها أن لايعامل المريد إخوانه إلَّا بما يحب أن يعاملوه به ، وأن يرجو لهم من الخير والمسامحة فى ذنوبهم مايرجوه لنفسه وأن يحملهم فى جميع مايقعون فيه من مواطن التُّهَم على أحسن المحامل مما يحب أن يحملوه عليه لو وقع هو فى ذلك ، ويرجو لهم قبول التوبة ولو فعلواْ من معاصى أهل الإسلام مافعلواْ كما يرجو ذلك لنفسه إذا وقع فيما وقعواْ *

ومراعاة هذه الآداب ، والعمل بها يُقَوِّى أبناء الطريق ، ويجمع كلمتهم ، ويمنع الاختلاف والتفرُّق أن يجد طريقه إلى صفوفهم ، ويطرد وساوس الشيطان ، ويجمعهم على حضرة الشيخ فى وحدة وترابط ومحبة ، فتقوى هِمَّتهم ، وتحلّ بركة الشيخ فيهم :

ومن هذه الآداب مايلـــى :-

الصَّبْر على الإخوان والحلم عليهـــم :-

فالمريدون تختلف طبائعهم ، وتتفاوت مداركهم فى الطريق . من أجل ذلك قد يحدث من بعضهم ماقد يغضب الآخرين ، وعند ذلك يأتى الشيخ لِيُبصِّر الإخوان بفضيلة الحلم والتسامح ، ويحذرهم عاقبة الغضب ، وإغلاظ القول .

يقول مولانا الشيخ صالح الجعفرىّ - رضى الله عنه :-

« فلا تكن شديداً على أهلك فيبغضوك ، ولا على أصحابك فيهجروك ، ولا على العشيرة فيبدلواْ العشرة قطيعة لك » [1] .

(*) راجع الأنوار القدسية : ص ٢٢٥ . ط ثانية - دارجوامع الكلم .

(١) الإلمام النافع : ص ١٥٦ .

وَاصْبِرْ كَثيراً عَلَى الإِخْوَانِ مُحْتَسِباً * أَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَدَارِ كلَّ فتَّانِ
الْقِيلُ والقَالُ وَصْفٌ لايَجُوزُ لنا * وصاحِبُ القيل محروقٌ بنيرَانِ
الحبُّ فِي اللَّهِ شَيءٌ لَانَظِيرَ لَهُ * صَبْراً على النَّاسِ لاحَوْلٌ لإِنْسَانِ [٢]

فإن ابن الطريق لاتليق به المخاصمة ، وإغضاب إخوانه :ـ يقول رضى الله عنه :ـ

كُنْ هَيِّناً لَيِّناً لِلْقَوْمِ تَأْلَفُهُمْ * وَيَأْلَفُوكَ وهَذَا الوَصْفُ مَحْمُودُ [٣]

البُعْد عن الغيبة :ـ

وهى من العيوب المذمومة فى النفس البشرية ، ووجودها فى مَنْ ينتسب إلى الطريقة أشدّ عيباً ، وأقبح سلوكاً ؛ لأن حفظ اللسان خُلُق إسلامى رفيع ، ومن أشد الناس تمسُّكاً به أهل الطريق ، فأنت ترى الشيخ ـ رضى الله عنه ـ يشير إلى أن الجَهْر بالسُّوء من القول مبغوض عند الله ، وعند الملائكة الكرام : قال تعالى :ـ

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ [٤] .

وقد ورد فى الحديث أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أخذ بلسانه وقال : كفّ عليك هذا ـ يعنى معاذاً ـ فقال معاذ : قُلْتُ يانبىّ الله وإنا لمُؤاخذون بما نقول ؟ فقال : ثكلتك أُمُّكَ ، وهل يكبّ الناس فى النَّار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » [٥] .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام :ـ « مَنْ يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » [٦] .

فمن فكَّر فى هذه الآيات الكريمة ، وتلك الأحاديث الصحيحة حافظ على لسانه تمام المحافظة لاسيما بعد أنْ علم أنَّ الملَكَ يكتب عليه كل كلمة يقولها .

---

(٢) الديوان : ٦/ ١٠١٧
(٣) الالهام النافع ١٥٦
(٤) النساء ١٤٨ .
(٥) رواه الترمذى .
(٦) رواه البخارى .

قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٧) ، وقال سبحانه :ـ

﴿ مالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (٨) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (٩) .

ثم يبيِّن شيخنا ـ رضى الله عنه ـ خطورة هذه الخصلة فيقول :ـ

« ينهانا ربُّنا عن الغيبة التى منشوءها سوء الظنّ والريبة ، وهى ذِكْرك أخاك بما يكره ، وإن كان فيه فلا تحرك لسانك بما يرديك ويؤذيه ، سِكِّين الحقد ذات الحدّيْن تقطع الصِّلات ، وتورث الآلام ، وتمزِّق الأعراض تمزيق الوحوش الضارية التى لاتعقل قيمة ماتمزقه ، أو النار المحرقة التى لاتعرف غلوّ ما تحرقه ، فهى القنبلة التى تَسْطُو على الأبرياء ، وتهدم بيوت الصالحين والأولياء ، مهنة من أرذل المِهَن مزرعة البغضاء والفتن ، وأصل العداوات والإحَن ، داء عضال يؤذى الصَّاحب والجيران ، ويكدر صفو الأحباب والإخوان .

ترى الإنسان فى نعمة وسرور ، وفرح وحبور ، فإذا قيل له فلان قال عليك كذا سرعان مايتغير الصفو بالكدر ، والفرح بالحزن ، والحلم بالغضب .

فما أشبه المغتاب فى هذه الحالة بالعقرب ذات الزّيل المسموم ، واليوم المشؤم ، وقد لعنها النبىُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث يقول :ـ

﴿ لعنَ اللَّهُ العقرب ما تدع نبيًّا ولا غيره إلَّا لدغَتْهُمْ ﴾ (١٠) . . (١١) .

وكثيراً ما كان شيخنا ـ رضى الله عنه ـ يرشد أبناء الطريق إلى مكارم الأخلاق ،

---

(٧) قّ : ١٨ .

(٨) الكهف : ٤٩ .

(٩) الحجرات : ١٢ .

(١٠) رواه البيهقى فى شُعَب الإيمان .

(١١) منبر الأزهر : ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

وينهاهم عن الخوض فى أعراض الناس ، وتناقُل الأخبار ـ يقول فى إحدى قصائده :ـ

ٱلْقِيلُ وٱلْقَالُ وَصْفٌ لَايَجُوزُ لَنَا * وصَاحِبُ الْقِيلِ مَحْرُوقٌ بِنِيرَانِ (١٢)

ولكن الذى ينبغى لأهل الطريق أن يسايروا أهل الصلاح والتقوى ، ويقتدوا بهم فى أقوالهم وأفعالهم . يقول مولانا الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

« فَسِرْ فى طريقهم عساك أن تشرب من رحيقهم ، فما احتار من سار ، ولا عطلته المنغصات والأكدار ـ بل هم فى فرح من فرح أهل الجنة ، الذين هم فى جوار الله ، وفرحهم لله ، أول دعائهم تسبيح ، وآخره حَمْد وشكر : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣) . . . . » (١٤) .

الرحمة والعطف والإحْسَان إلى الإخوان :ـ

وهى من مكارم الأخلاق التى دعا إليها الإسلام ، ومدح الله تعالى بها نبيه المصطفى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى القرآن الكريم ـ قال تعالى :ـ

﴿ فبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القلب لانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِك فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشاوِرْهُمْ فى ٱلأَمْرِ . . . ﴾ (١٥) .

والذين يتصفون بهذه الصفات الطيبة هم أقرب خَلْق الله إلى الله .

وفى الحديث قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم :ـ « الرَّاحمون يرحمهم الرحمن » (١٦) وبهذا الأدب النبوىّ كان الإمام الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ يُرَبِّىَ أبناء الطريق فهو يقول : للمريد مُعلِّماً ومُوجِّهاً وناصحاً :ـ

« كُنْ رحيماً بخلق ربك يرحمْك يوم لاينفعك مال ولا بَنُون ، واعلم أن الرحمة

---

(١٢) ٦/١٠١٧ .

(١٣) يونـــس ١٠

(١٤) انظر : شهد مشاهدة الأرواح التقية : ص ١٠ .

(١٥) آل عمران : ١٥٩ .

(١٦) رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والحاكم .

تنفعك ولو لحيوان أو طير أو بهيمة ؛ لأن الله تعالى خلقهم مثلما خلقك . قال تعالى :-

﴿ ومَا مِنْ دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ولا طائِرٍ يَطِيرُ بِجناحيْه إلَّا أُمَمٌ أمْثالُكُمْ ﴾ (١٧) . . . » (١٨) .

« فلا تكن شديداً على أهلك فيبغضوك ، ولا على أصحابك فيهجروك ، ولا على العشيرة فيبدلواْ العشرة قطيعة لك » (١٩) .

« المؤمن مَنْ يكون مع أخيه المؤمن هينا ، ليس صعباً قاسياً ، سهلاً ليس وعراً قريب الرضا ليس ببعيده ، وفى الحديث :-

« المؤمن هيِّنٌ لَيِّنٌ سريع الغضب قريب الرضا »

فالمؤمن حقاً يعمل بقوله تعـــالى :﴿والْكاظِمِينَ الْغَيْظَ والْعافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (٢١)

وبقـوله سبحانه : ﴿ وإذَا ما غَضِبُواْ هُمْ يغْفِرُونَ ﴾ (٢٢) . وبقوله ﴿ ويدْرءُونَ بِالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ ﴾ (٢٣) . يعنى : مَنْ قدَّم إليهم سيئة قدَّمواْ إليه حسنة .

وهذه الصفة من أجلّ مكارم الأخلاق ، وقد وعد اللهُ فاعلها بأن عدوّه يكون بعد العداوة ناصراً ، محباً حباً عظيماً ، فتلك مكافأة معجلة فى الدنيا للذين يتصفون بهذه الصفة الكريمة » (٢٤) .

« أطعم الجـائـع ، اسْق الظمآن ، اكْسُ العريان ، عُدِ المريض ، فرّج عن المكروب اقض حوائج ذى الحاجات ، وافعل الخير مع خلق الله لأجل الله ، تجد

(١٧) الأنعـــام : ٣٨ .
(١٨) الإلهام النافع : ص ١٤٥ .
(١٩) الإلهام النافع : ص ١٥٦ .
(٢١) آل عمـــران : ١٣٤ .
(٢٢) الشـــورى : ٣٧ .
(٢٣) الرعـــد : ٢٢ .
(٢٤) الإلهام النافع : ١٥٦ .

ربـك وربهم عنـدك ، فمن راعى مخلوقـاً لأجـل خالقـه فقـد راعى الخـالق سبحانه » [٢٥] .

وإن الصوفية يقتدون فى مكارم الأخلاق بسيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى لم يكن فظًّا ولا غليظ القلب . بل كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، وها هو ذا شيخنا الجعفرى ـ رضى الله عنه ـ يُرَبِّىْ أبناءه على مكارم الأخلاق ، فيقول :ـ

كُنْ هيِّنـاً ليِّنـاً للعـالـمـين ولا * تكثـر مخـاصمـة الإخـوان كالخصم
واجـعـل فؤادك موفـوراً برحمتـه * للمـؤمـنين وأهـل البيت والرَّحِمِ
مَنْ عاش فظّاً غليظ القلب يبغضـه * الأقـربـون ومَنْ بالحـلِّ والحرمِ [٢٦]

وابن الطريق لايليق به أن ينطق بالفاحش من الكلام ، أو يغلظ القول للناس وهو يخاطبهم . بل عليه أن يُعَامل الناس بمثل مايحب أن يعاملوه به :

يقول مولانا الإمام ـ رضى الله عنه :ـ

أَسْـمِـعْ لغيرك مايُرْضيكَ مَسْمَعـهُ * ولاتَـفُـهْ بقـبـيح الـقـول للنَّـاسِ
الـنفس ميزان مايرضيك من أحـد * أو كان يغـضبهـا من منـطق قاسِى
فاجعـل لغيرك مايرضيك يرض به * ومـا يسىء فلا تذكـره للنَّاسِ [٢٧]

التواضع والإنـكســـــار :ـ

ومن أدب المـريد مع إخـوانه : ألَّا يتعالى عليهم وأن يتواضع لهم ويعاملهم معاملة حسنة فإن الكبر داء يبغض إلى سائر الناس ، فما بالنا بأهل التواضع والإنكسار ؟

إن التصـوف إنما بنى على التواضع وهضم النفس والتخفى ، فلا مجال فيه للغرور أو التعالِى ـ يقول الشيخ المربِّى سيدى صالح الجعفرى ـ رضى الله عنه :ـ

« وإذا حدثتك نفسك بأنك خير من إخوانك ، فإن ذلك من دسائس النفس أو

---

(٢٥) نفس المرجع : ١٦٩ .
(٢٦) الإلهام النافع : ص ١٥٤ .
(٢٧) الإلهام النافع : ص ١٦٠ .

انـك تعلم الغيب ، أو أنك شيخ مع الشيخ فذلك غرور ، فلا تلتفت إليه وكن متواضعاً لإخوانك ، قال الشيخ أبو مدين ـ رضى الله عنه ـ :

فَانْهَضْ إليهم وتـأدَّبْ فى مجـالسهم * وخَـلِّ حظَّكَ مَهْـمَـا قَدَّمُـوكَ وَرَا

ومن كلامهم رضى الله عنهم : « مَنْ جلس مع الأولياء وظنَّ فى نفسه أنه منهم حُرم من بركاتهم » . فلا تر نفسك بين إخوانك إلاَّ أنك من أقلّهم ، لعلّ الله أن يَمُنَّ عليك بما مَنَّ به على المتواضعين المنكسرين » (٢٨) .

يقول شيخنا ـ رضى الله عنـه ـ :ـ

ومَـنْ تَعَـالَـى على الإِخْـوانِ نَالَ بَذَا * ضِداً كَمَـا نَالَـهُ الْمَـرْفُـوع فِى الْجَبَـلِ
ومَـنْ تواضَـعَ للإِخْـوَانِ نالَ بِذَا * عِزَّ الـعِـنَـايةِ مِنْ حَافٍ ومُـنْـتَـعـل
فَالْخَلْقُ كالنَّحْـل لاَتُـرْجَى منَـافعهم * إلاَّ بِصَـبْـرٍ وَإلاَّ يُؤْتَ بِالْـفَـشَـلِ (٢٩)

أَلاَّ يجعل المريد لنفسه منزلة على إخوانـه :

بأن يعجبه من نفسه عملها وعلمها وذكرها ، فيدخله الغرور القاتل ، فيتخذ لنفسه مكاناً بين إخوانه ، ويحاول أن يقوم بالتربية لهم أو يجعلهم يعتقدون فيه ما يعتقدون فى الشيخ ، وذلك من أشدّ الأخطار على المريد وعلى الطريق .

يقول مولانا الإمـــــام :ـ

« ومن الوبال على المريد رؤيته لنفسه شيخاً مع الشيخ قبل أن يأذن له » ثم ساق الشيخ حكاية مَرْوِيَّة عن بعض تلاميذ الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه وقد تعـدى طوره ، فرده الشيخ ردّاً جميلاً ، وفى القصـة درس نافع فى هذا السِّيَاق فراجعها » (٣٠) .

---

(٢٨) الذخيرة المعجلة : ص ٢٥ .
(٢٩) ١٠/ ١١٥ .
(٣٠) راجع الإلمام النافع : ٥٩ ـ ٦٠ .

وبعـــــد . . .

فمنهج الإمام الجعفرىّ ـ رضى الله عنه ـ فى تربيته لأبنائه يكون قد تمَّ بهذه الآداب ، وهى فى مجملها تتحقق باتباع المريد لشيخه فى أقواله وأفعاله ، فمن سار على دربه كان فى قُرْبه ، ونال من وِرْده ، ومَنْ خالف طريقه حرم من رحيقه يقول مولانا ـ رضى الله عنه :ـ

ياطـالـب الـدنـيا فعـنَّـا وَلِّـى * ما نَقْبَـل الـمغـرورَ فى التـجلِّى
ما نقـبـل الـمـدفـون فى هواه * ولا بنـو طريقـنـا ترضـاه
إيش حال من يقـلبـهـا لعَّـابُ * فحـالـه مآلـه سـرابُ
تريدهـا أخـرى وذا يريـد * حُطَام دنـياه فذا تبـديدُ
اسـمـعْ كلامى لاتـخـالف فنىٍّ * ياطـالـب الـدنـيا فبُـعـدَاً عنى
ومَـنْـهـج الشيخ هو الأحْـزَابُ * سيرتـه الـسـنَّـةُ والـكـتـابُ
وكـل ما خالـف لا نرضـاهُ * فاحـذرْ من الـتغيير أن تَهْـوَاهُ (٣١)

هيهـات هيهـات عن الـوصـول * ما دُمْـتَ فى الـمـسير فى عُدُولِ
اعـرفْ طريق الشيخ كيف كانـا * واسـلكـه تَلْق الشيخ يا أخـانـا
قد حجب الـنـاس عن الـطريق * لكـثـرة الأهـواء والـتـفـريق
وابـتـعـدواْ عن نهـجهـا السـنىّ * الـواضـح الـصـوفى والـجلـىّ
طريقـنـا هو الكتـاب المـرشـدُ * وسـنَّـةُ قائـلهـا محـمَّـدُ (٣٢)

---

(٣١) انظر هذه الأراجوزة فى المعانى الرقيقة : ص ٦٨ وما بعدها .

(٣٢) المعانى الرقيقة : ص ٧٨ .

الفهـــــــرس

الموضـــوع — الصفحـــة

مقـــدمة الناشر ٥
المقـــدمة ٧
البـــاب الأول
الحقائق التاريخية فى حياة الإمام الجعفرى ١٣
الفصـــل الأول ١٣
الأسرة والنشـــــأة ١٣
ـ النسب الشريف ١٣
ـ الأسرة الشريفة ١٥
ـ مولده وطفولتـــه ٢١
ـ فى مرحلة الشـــبيبة ٢٢
ـ فى الطريق إلى الأزهر ٢٣
ـ أحواله مع شيوخ العلـــم ٢٥
ـ عود إلى دنقلـــة ٣٢
ـ بداية عمله فى الأزهر ٣٢
الفصـــل الثانى ٣٣
علاقة الإمام الجعفرى بالأزهر ٣٥
ـ الشيخ السمالوطى ٣٩
ـ الشيخ المطيعـــى ٤١
ـ الشيخ الشـــنقيطى ٤٢
ـ الشيخ الدجـــوى ٤٥
ـ الشيخ الشـــايب ٤٧
ـ الشيخ عبد الرحمن عليـــش ٤٨
ـ الشيخ محمود الغنيمى ٤٨
ـ الشيخ حســـن مدكور ٤٩

الموضوع	الصفحة

ـ صلة الإمام الجعفرى بعلماء الأزهر فى البرزخ ٥٠
[أ] الشيخ على الصعيدى العدوى ٥٢
[ب] الشيخ محمـــد عبده ٥٢
[جـ] الشيخ محمد عليـــش ٥٣
[د] الشيخ الدردير ٥٤
البـــاب الثانى
منهج الجعفرى العلمى ٥٧
ـ تمهيد فضل العلم والعلماء ٥٧
الفصـــل الأول
منزلة الإمام الجعفرى فى علم التفسير ٦١
الفصـــل الثانى
منزلة الإمام الجعفرى فى علم الحديث ٧٧
الفصـــل الثالث
منزلة الإمام الجعفرى فى علم التوحيد ٨٧
الفصـــل الرابع
منزلة الإمام الجعفرى فى علم الفقه ٩٥
الفصـــل الخامس
منزلة الإمام الجعفرى فى علم السيرة والشمائل ١٠١
الفصـــل السادس
منزلة الإمام الجعفرى فى علم العربية ١٠٥
البـــاب الثالث
منهج الإمام الجعفرى الصوفى ١٠٩
الفصـــل الأول
سلوك الإمام الجعفرى الطريقة الأحمدية ١٠٩
ـ سند الطريق الأحمـدى ١١٠
ـ أعلام الطريق الأحمـدى ١١٠
ـ جذور الطريقة الجعفرية ١١١

الموضوع | الصفحة

الفصـــل الثانى

تأسيس الطريقة الجعفرية ١١٧

الفصـــل الثالث

آداب الطريق فى مدرسة الإمام الجعفرى ١٢٧

أولا : أدب المريد مع الله : ١٢٧

ـ الاخـــلاص ١٢٨

ـ الصـــدق ١٣١

ـ التقـــوى ١٣٢

ـ الرضا والتســليم ١٣٦

ـ الحرص على الطـاعات ١٣٨

ـ المسارعة إلى الأعمال الصالحة ١٣٩

ـ التفكر والشـكر ١٤٠

ـ التوكل على اللـه ١٤٣

ـ السعى والأخذ بالأسباب ١٤٤

ـ ملازمة الذكـــر ١٤٦

ـ التوبة والاســتغفار ١٥١

ـ التذلل والتواضـع ١٥٣

ـ عدم التغالى فى القول والمعتقد ١٥٤

ثانياً : أدب المريد مع النبى ﷺ ١٥٦

ـ محبته ﷺ ١٥٦

ـ طاعتـــه ١٥٨

ـ الصلاة عليـه ١٦١

ـ أدب زيارتـــه ١٦٢

ثالثاً : أدب المريد مع شيخه : ١٦٧

ـ الصدق فى سلوك الطريق ومحبة الشيخ ١٧٠

ـ مذاكرة كتب الشـيخ ١٧٠

ـ ملازمـــة أوراده ١٧٢

الموضوع	الصفحة

- عدم مخالفة منهجه ١٧٢
- رسوخ العقيدة فيه ١٧٤
- ان لايقدم عليه شيخاً آخر ١٧٥
- الاجتهاد فى اتباعه حتى يتحقق بالوراثة ١٧٧
- الأدب مع الشيخ فى الديوان ١٧٨

رابعاً : أدب المريد مع نفسه ١٨٢

- المجاهدة ١٨٣
- علو الهمة ١٨٩
- الزهد ١٩١
- ملازمة العلم ١٩٨
- ملازمة النوافل ١٩٩
- محاسبة النفس ٢٠١
- عدم الاختلاط بالمنكرين ٢٠٨

خامساً : أدب المريد مع الإخوان ٢١٠

- الصبر على الإخوان ٢١٠
- الرحمة والعطف والإحسان ٢١٣
- التواضع والإنكسار ٢١٥
- أن لايجعل المريد لنفسه منزلة على إخوانه ٢١٦

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٨٧٨ / ١٩٩٠